قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب في المدارس الثانوية

عبد العزيز البشري

المختار

الجزء الأول

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب فى المدارس الثانوية

عبد العزيز البشرى

المختار

مختصر

الجزء الأول

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

إهداء الكتاب

الى صديقى الجليل النبيل الأستاذ محمد راغب عطية بك :

أُهدى عُصارةَ ذهنى مُدَّةَ الحيـاة ، إلى من أهدت مودّتُه إلىّ أحلى ذكرَيات الحياة ؟

المخلص

عبد العزيز البشرى

تقدمة الكتاب

بقلم شاعر القطرين وإمام أدباء العربية

الأستاذ خليل مطران

رغب إليَّ صديقي الكريم الأستاذ الكبير الشيخ عبد العزيز البشرى فى تقديم كتابه هذا ، فتفرست فيه فإذا هو لا يهزل . هلاَّ فعل أيامَ كنت أنشئ المجلة المصرية ، ولى من قرب عهدى برياسة تحرير الأهرام بضع سنين ، ومما يُنشَر لى من الفصول فى المؤيد واللواء وغيرهما شهرة وذيوع صيت ، فأقدّم آنئذ للناس بواكير فتًى فارق حلقات الدرس حديثاً ، ودلّت الأوَل من ثمرات بيانه ، على ما سيجنيه العالمَ العربى من قطوف أدبه وافتنانه ؟

أما وهو اليومَ أعرَف من كل معرَّف بين الناطقين بالضاد فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلقد سامنى من هذا التقديم ما ليس بيسير . على أننى سأطلعُ من ثنايا مباحثه إلى ذُروة أرفع عليها علَم أدبه ، وسأقتبس من آيات نبوغه ما أجلو به للمطالعين أمثلةً من صور فضله

لقد ألهم الله الأستاذ خيراً ، فواتى أمنيةً تجيش فى صدور محبيه والمعجَبين به بأن جمع من خطبه البارعة ، ومقالاته الرائعة ، ما تفرق فى الصحف والمجلات ، فاستوت كتاباً هو فى وقته كنز لأولى الألباب ، وسيظَل فيما يلى من الزمن ذخراً للأعقاب

وبعد ، فلم لا أقف من هذا الكتاب موقف الدليل من المُتْحَف ، فهو فى الحق مُتحَف حافل بالمفاخر ، وكل طُرفة من طُرَفه جديرة بأن تطالَع فى تدبّر وروّية .

على أننى سأكتفى بالإشارة المجملة إلى ما يتضمنه كل قسم ، وأتفادى من سماجة الدليل الذى يعطل بثرثرته مآخذ الذهن من التأمل الصامت فيما تقع عليه العين من روائع الفنّ ، وأحبّ إليه بل أجدى عليه أن يتملاّها نظراً ، من أن يتروّاها خبراً.

الباب الأول — فى الأدب

هاهنا يمرّ المطالع بقلائد وفرائد من خطب وفصول فى الأدب لا يُخرج يتيمَها ، ولا يُحكِم صَوغَها وتنظيمَها إلا قلم البشرى ولسان البشرى ، تحركهما نفس كبيرة الهم ، بعيدة المرامى ، قلقة فى مهابّ الأهواء ومثارات المنازع ، فيّاضة بحب مصر ، وإيثار العربية الفصحى لها لغة ، تتجنب التحقيقات العلمية ، والتعاريف المنطقية ، وإن تبتغى إلا اقتناع المتأدبين من طريق الباعث الغريزى فيهم ، ومن طريق إخبارهم بما يجرى عند الأمم الغربية الراقية من مثل ما عندهم ، بأن البيان يجب أصلاً أن يكون عربياً سليماً فى اللفظ والأسلوب والاصطلاح ، وأن يتكيف مع سلامته ومراعاته لتلك الأصول ، فينطبع بطابع الفطرة المصرية التى لها ما تتخيره خاصة من تلك اللغة وتلك الأصول . فإذا أُحيطَ البيانُ بهذا النطاق ، وصِينَ من تسرُّب العُجمة إليه ، فلا مانع يمنع من كل ابتكار وتجديد ، على ألاّ يعدو حدوده ، ولا يمسّ الخصيصة القومية فى جوهرها

يقول فى الأدب بعد أن أمسك عن تعريفه ، و بعد أن أهاب مراراً بأعلام البيان وأئمة المتأدبين أن يعرّفوه أو يدلّوا على مواضع التعريفات الصحيحة له ، فلم تَدلّ أقلامهم بجواب :

« وعلى كل حال ، فإن الأدب إذا لم يضبطه تعريف جامع مانع ، فإن موضوعه واضح فى مظاهره ، وفى الغايات التى يَطلبها ويَتطاول اليها . فما من أحد إلا يرى أن أبلغ مظاهر الأدب فى نفض الأحساس الكامنة ، والعواطف الجائشة ،

وتصوير ما يعتلج فى أطواء النفس من ألوان الانفعالات بعبارات موسيقية تتدسّس إلى نفس السامع ، فتثير منها كلّ ما يثور فى نفس الشاعر أو الكاتب ، ولا شك عندى فى أن هذا أبلغُ مظاهر الأدب وأجلّ غاياته »

ويقول فى فِقرة أخرى يصف بها الأدب المصرى القائم :

« وعلى الجملة إنك لو تصفحت هذا الأدب المصرى القائم ، لرأيته موزّعاً بين حياة فى الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الإسلام ، وبين حياة فى بغداد أو الأندلس ، فيما يلى ذلك العصر ، وبين حياة فى لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو . ولكن أين هذا الأديب الذى يعيش فى مصر ويصوّر عواطفه المصرية التى يُلهمها ما ينبغى أن يلهم المصرى من عواطف وإحساس ؟ »

ثم يعود فيفصل بعض الشىء ما أراده بالأدب العربى القومى ، وما أبلغ الكلام الذى أُوحى إليه فى هذا الغرض . ومنه قوله :

« إذن لا مفر لنا من أن نلتمس أدبنا القومىّ ، ولا يكون هذا الأدب إلا عربىّ الشكل والصورة ، مصرىّ الجوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نبعث الأدب العربى القديم ، وننثِل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروّى منها بالقدر الذى يَفسَح فى ملكاتنا ، ويقوّم ألسنتنا ، ويَطبعنا على صحيح البيان . فإذا أرسلنا الأقلامَ فى موضوع يتّصل بالآداب ، بوجه خاصّ ، أطلقنا القولَ فى صيغة عربية لا شك فيها، على ألاّ نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج فى نفوسنا ، ويتصل بإحساسنا . ونصور بها ما نجد مما يلهمه كل ما يحيط بنا ، وما يعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدمت لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقلِ ما يتهيأ نقلُه إلينا منها فى لسان العرب . وهذا أمر لا شك فيه ، ولا غناء لنا عنه ، فإن ذلك مما يهذب

من ثقافتنا ، و يَفسَح فى ملـكاتنا ، ويُرهف من حِسّنا ، و يَهدينا إلى كثير من الأغراض التى تَشتعبها آدابُ الغرب فى هذا العصر . والواقع أننا تهدّينا من آداب الغرب الى فنون لم يكن لنا بها عهد من قبل ، أو أنها مما عالجه سلَفنا ولم يكن حظهم منه جليلاً . ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبىّ لا يُجدى علينا ، ولا يؤدى الغرضَ المقسومَ بمطالعته والإصابة منه إلا اذا هذّبناه وسوّينا من خلقه ولوّنّا من صورته حتى يتّسق لطباعنا ، و يوائم مألوف عاداتنا ، و يستقيم لأذواقنا ، كما ينبغى أن نجهد الجهد كله فى تجليته فى نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد ، فلا نحس فيه شيئاً من نبوّ ولا نشوز . و بهـــذا نزيد فى ثروة الأدب العربى ، ونرفع من شأنه درجات على درجات »

هذا هو الهدف الأكبر فيما رمى اليه الأستاذ بمختلف مباحثه القيمة فى الأدب : ما تناول منها الموضوع فى لبابه أو جال به جولاته فى النقد والشعر . ومَن مرّ بالقلائد التى نظمها فى هذه الفصول كلها والفرائد التى رصعها بها، لم يفارقها إلاّ بقلب مشتاق ، ولب يستظهر بالذكرى على ألم الفراق

الباب الثانى — فى الوصف

هذا الجناح من المتحف فيه العجب العجاب : أتنظر بعين البدوى الى تلك الآلة العجيبة « الراديو » فترى هيئَتها كما يراها وتَدهَش من مفاعيلها مثل ما دَهِش منه ؟ أتشهد المؤلف قبل أن يركب الطيارة وحين ركبها ، و بعد أن تدلى منها وصار إلى مأمن ، وأعاد ذكراها فى نفسه مروّعاً حين رآها فى السماء قافلة ، وهو يجالس بعضَ صحبه على شاطىء البحر بالإسكندرية ؟

اتتفرس فى رسم المؤلف حين يهتف هاتف من أصدقائه بسنه وقد تشرّف على الخمسين ، وتقرأ فى ذلك الرسم كلّ ما تراءى عليه من الأحساس المتلوّنة التى تُـكِن أمثالَها جوانحُ كل حىّ ؟ ولكن من فيهم يستطيع جلاءها كما جلا ؟

أيروعك شكله وهو صحيح معافى ؟ غير أنه لا يشعر بأنه مجتمع الشمل ، ولا يسكن إلى ما هو فيه ، وكلما اطَّلع على ساعة من ساع الزمان رآه مشغولاً بالانحدار إلى التى تليها . فعلى محياه يرتسم سؤال : « إلى أين ؟ إلى أين ؟ » وسؤال آخر : « ألاَ من قرار ؟ » على أن إجابته عن هذا السؤال هى إجابة الإنسانية كلها ، أجل ، ولكنها إجابتها بأفصح ما يتسنّى لنفس أن تعبر به تعبيراً خلاّباً بديعاً عن أسرار حيرتها الدائمة !

أتنظر إليه فى رسم آخر وهو ينمق ما يوحيه إليه الجمال ، فتمر بك الألواح العجيبة من بزوغ شمس واستوائها على عرش مُلكها تُصدِر توقيعاتها فى حياة هذا العالم ، ومشبهاً بعد ذلك متثاقلة إلى خِدرها ، لتتوارى عن العيون خلف سترها ؟

ثم من طلوع القمر « يبـدو لك أول الشهر خيطاً دقيقاً ، ويبدو فى ثانيه كحاجب الأشْيَب ، ويستوى بعده قوساً ، ولا يزال ينمو ويُدرِك حتى يستوى بدراً كاملا » . فهو فى كل حالاته أولئك « ما حضر إلا أهنأ وهدَى ، وما غاب إلا أضلّ وأشقَى »

ثم من روض أريض « قد انسرح بانه ، وفَرَعت فروعه وبَسَقت أغصانه ، وزكت أوراقه ، ورفّ بوحى النسيم نبته وجَلجَل اصطفاقه » الخ ، فأنت مفتتن بما يطالعك به ، أبدع وشى فى أبرع ديباجة

هذه أمثلة من طرف هذا الجناح ، ولكن أبت العبقرية إلا أن نختم سلسلتها بقصة جعل الأستاذ عنوانها لفظة « حياء » ، وماذا أذهب به وأغرب فى سرد ما سرد من وقائعها ، وفى صدق تصويره لصا حبها بحسه ومعناه ، وفى مختلف أطواره

وفى إحكام السياق إلى أن أطفى من الرسوب، فى أبعد قرارة من النفس، معنى من أدق معاني الحياء. ولقد قال فى استهلال تلك القصة:

« وحين أُترجم لموضوع اليوم بكلمة (قصة) لا أعنى الرواية ولا ما يشبه الرواية، فإننى لا أُشيع فيها خيالا، ولا أخترع لها أبطالا، ولا أخلق مفاجئات، ولا أبتكر مواقف، ولا أمدّ لها مغزى يصيب غرضاً، ولا أعالج تحليل نفس أو فكرة، لأننى لا أُجيد هذا الضرب من البيان ولا أَحذِقه، بل إننى لم أحاوله قطّ طول حياتى الكتابية، وإنما أقص حادثة وقعت بسمعى و بصرى، فإن هى أصابت غرضاً أو اتصل بها مغزى، فذلك من صُنعها نفسها، لا فضل لى من ذلك فى كثير ولا قليل »

وهاهنا لى استدراك على الأستاذ أبديه لزائر المتحف أو مطالع هذا الكتاب! لو أن شيخنا (بالفضل لا بالسن) الأستاذ البشرى ابتدع هذه القصة استخلاصاً من الوقائع التى تجرى كلَّ يوم بأسماعنا وأبصارنا كما يفعل منشئو الروايات، ولم تكن مما شهده على حد ما ذكر، لكان من أبرع القصاصين الذين عرفناهم. الله الله فى دقة الوصف، واستشفاف ألطف ما يتحرك به الحس فى أطواء النفس، الله الله فى روعة الأسلوب وصفاء العبارة، و بلاغة تمهيد الفواتيح للخواتيم

على أنه لا يَزيدك بياناً على مقدرة الأستاذ فى قصصه مثل وقوفك على تراجمه وهى ضرب آخر منه، وقد جلا بعضَ مأثوراتها فى كلامه على المرحوم شوقى، وفى تراجمه التى أفرد لها الباب الثالث

الباب الثالث — فى التراجم

هذا القسم لا يَعرِض لك فيه المؤلف إلا ثلاث صور: رشدى باشا — الشيخ على يوسف — محمد المويلحى. ولكنها ثلاث لا تقوم بها محتويات مُتحَف مهما

كثرت وغلت ، على أنك تستشعر من البدء إلى النهاية فى هذه التراجم أن محرك العبقرية فيها إنما كان الوفاء ، وفى مثل هذا يتجلى بأبهج الصور جلال التآزر بين القلب والعقل

فى هذه التراجم الثلاث حدّث الأستاذ واستفاض فى الحديث ، عن ثلاثة من أكابر رجالات مصر، عرفهم حق المعرفة ، وتروّى حوادثهم شاهداً أو آخذاً عن ثقات ، وعلّق من نوادرهم أعلاقاً فيها من النفائس ما يضمن الخلود

خذ من بعض ذلك إحدى الصور التى صور بها رشدى باشا ، قال : « ولقد حدثت أحداث الإسكندرية فى مايو سنة ١٩٢١ ، ورشدى مع عدلى فى لندن يفاوضان كيرزن فى المسألة المصرية ، وكانت السلطة العسكرية قد مَلَكت الأمرَ كله عن الحكومة المصرية ، وتولت هى التحقيق بقوة الأحكام العرفية التى كانت مبسوطةً يومئذ على البلاد . فلما انتهت المفاوضات إلى الكلام فى حماية الأجانب وعارض المفاوضون المصريون فى أن يكون هذا إلى انجلترا ، دفع اللورد كيرزن إليهم بتحقيق السلطة العسكرية فى حوادث الإسكندرية ، وما دمغ المصريين ظلماً بألوان الوحشية ، وما أضاف اليهم من أمور تقشعر منها الجلود ، فتناول رشدى باشا هذا التحقيق ويداه صفر من كل شىء ، لأن التحقيق كما قلت لك ، استقلت به السلطة العسكرية ، فأبت على رشدى عزيمتُه ، وأبت عليه وطنيتُه ، وأبت عليه عبقريتُه إلا أن يُكِبّ ليلتَه كلَّها على هذا التحقيق ، والله يعلم ماذا بذل من مخّه ، والله يعلم ماذا هَراق من ذكائه حتى اتّسق له فى الصباح تقريرٌ يَعصف بهذا التحقيق عَصفاً ، ويُشهِده على نفسه بالبُطل ، وشدة الحَمل على المصريين ، ثم مضى به إلى لورد كيرزن فألقاه إليه ، وما إن قرأه حتى سأل أن يَتقاصّ الطرفان ، وكذلك أخلت حوادثُ الإسكندرية وجهَ الطريق »

ثم خذ صورة للمرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، تجده بها حيًّا

ناطقاً ، وتستطلع طِلْع الحقيقة فيه محلَّلة تحليلاً يعرف مكانه من الدقة مَن عرف ذلك الكاتب القدير الذى تصرف فى اليسير من مادة اللغة بأحسن مما يتصرف غيره فى الكثير ، فأحدث من بالغ الأثر فى نفوس قارئيه ما تنطق به هذه الشهادة له من أديب لا يُشَق له غبار فى معرفة اللغة كالأستاذ صاحب هذا الكتاب . قال :

« وفى هذا المقام يجدر بى أن أنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجَودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال الى تمكن الكاتب من ناصية اللغة وتفقهه فى أساليبها ، و بَصَره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، الى حسن ذَوق ورَهافة حسّ ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، ويصورها أبدع تصوير ، بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جداً ، إلى شدة نفْس الكاتب وقوة روحه ، فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من مَتْن اللغة ، ولا هو على حظ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنيّ بتقصّى منازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطَّع دونَه علائقُ الأقلام ، ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكره ، تأبى إلا أن تسطو بالكلام فتنتزع البيان انتزاعاً . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى وهو غريب عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شبه غريب عنها ، أبينَ مثال على هذا الذى تقول . ولقد يَعجب القارئُ أشد العجب إذا زعمتُ له أن المرحوم حسين رشدى باشا ، وكان رجلا قلّ أن تَطَّرد على لسانه ثلاثُ كلمات عربية متواليات ، قد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان !

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم فى الأزهر وقرأ طَرفاً من كتب الأدب ، واستظهر صدراً من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها — إلا أنه لم يكن مديناً فى بيانه لشىء من هذا بقدر ما كان مديناً لشدة رُوحه وسطوة نفسه . و إنك لتقرأ له المقال يخلُبك و يروعك ، وتشعر أن أحداً

لم ينته فى البيان منتهاه ، ثم تقبل على صيَغه تفتشها وتفرّها ، فلا تكاد تقع على شىء من هذا النظم الذى يتكلفه صدور الكتاب ، وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً ، أو على الصحيح لقد خط قلمه القوى نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات »

ثم إليك صورة للمرحوم محمد المويلحى ، أعجب ما فيها إبانتها عن سرّ فلسفته الخاصة فى حمله على نفسه وصبره على مضض الأيام ، موفّقاً فى ذلك بين مذهبه الفكرى وسيرته العقلية فى الحياة . قال الأستاذ :

« ومن أهم ما يَلفت النظر فى خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يغمُر المرء من متعارف الناس ومُصطلَحهم فى عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ، بل لقد كان له نظره الخاصّ فى الأشياء ، وكان له حكمه الخاصّ عليها ، وهو إنما يأخذ نفسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالى أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجىّ ولو كان مما انعقد عليه إجماع الناس ، وإذا كنت قد نعتّه (بالفيلسوف) فإنما أعنى هذه الصفةَ فيه ؛ فإننى لم أكد أرى رجلاً لاءم كلّ الملاءمة بين رأيه فى أسباب الحياة ، وشدة تحرّيه أخذَ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لى من خَلّة هذا الرجل بحكم ملابستى له السنينَ الطّوال »

إلى هنا انتهيت بك أيها القارىء الكريم من الطواف عاجلاً بأقسام المتحف ، وليس يذهب عنى أننى لم أزدك شيئاً على ما يعطيك عامةُ الأدِلاّء فى المتاحف من الإرشاد الساذَج الناقص ، إلى مواضع مختلفة من مواقع الجمال والجلال

فانصرف الآن موفقاً الى تروِيَة نفسك من اللذائذ الذهنية التى توحيها اليك — بلا وساطة — مطالعةُ ما فى هذا الكتاب من الآيات الفنية ؟

خليل مطران

كلمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلَّى الله تعالى وسلَّم على سيِّدنا محمد خاتم النبيِّين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن اهتدى بهداهم الى يوم الدِّين

و بعد ، فما كنتُ أُقدِّر فى يوم من الأيام أن يَستوى من بعض هذا الذى أُرسله فى الصحف الدائرة الحينَ بعد الحين كتابٌ مجموع . و إنَّ عادةً لى لزِمَتنى من يوم ضَبطتُ القلم ألاَّ أَحرِص على حفظ شيء من آثاره المنشورة فى هذه الصحف . فإذا وقع لى شيء من ذلك أسرعتُ إلى إتلافه تمزيقاً أو تحريقا

وسبيلُ هذه العادة إلىَّ أننى أولَ ما عالجتُ الكتابة وتعلَّقتُ بصنعة القلم ، كنتُ أُدركُ تمامَ الإدراكِ أننى ناشىءٌ لا أُجيد البيان ، فإذا كانت لى طبيعةٌ فلن تتهيأ لى الإجادةُ إلاَّ بعد شدة معاناة وطول تمرين . وظَلِلت على هذا دهراً وأنا فى ارتقاب الأحسن مما يَثبُت للأنظار لأحفظَه وأدَّخره للجمع ثم الطبع ، فلا أراه قد تهيأ لى ؛ فلا أبرح أُهمل كلَّما يَنتضِح به القلم ، ولا أُبقى منه على كثير ولا قليل

وظَلتُ كلما اطَّرد بى الزمن أشعر بأن المَدَى بينى و بين الكمال الذى أَنشُد يَطول ولا يَقصُر ، وأن الغاية التى أطلب تبعدُ على الأيام ولا تقرُب . حتى لقد جَعلَت نفسى تبرَم وتَضِيق كلما وقع لى عَفواً شىءٌ من تلك الآثار . ثم لقد أصبحتْ تَعفِيتُها و إتلافُ ما يقع ليدى منها عادةً من تلك العاد التى تتصل بالفِطَر والطِّباع .

حتى لو قد خَرج المقالُ فأزهانى به شيطانُ الفتنة بالنفس ، وهَتَف به الصّحابُ وغيرُ الصّحاب ، فإنه لا يتعذّر منى على ذلك المصير

وكثيراً ما استحثّنى صُدقانى على أن أُسوّىَ من تلك الرسائل مجموعاتٍ أطبعها وأنشرها للناس ، فإذا اعتلُّوا على عذرى بأن هذا الذى أصنَع مما لا أراه يرتقى إلى هذا المكان ، رحتُ أجاريهم بظاهرٍ من القول . وفى التعليق على مشيئة الله تعالى عن الكذب مُنتَدَح

ولقد ظل هذا شأنى إلى أن لحقتنى فى صدر هذا العام شكاةٌ ألزمت جنبى الفراشَ ثلاثةَ أشهر تعلّقتُ فيها بين الموت والحياة . ولعل جانبَ الموت عندى كان أرجح ، وحُجتَه كانت بحالى أَسْطَى . وهنا بان لى أننى كنت حقّ مخدوعٍ فى ذلك التأميل ، شأنَ المرء فى جميع أمانىّ الحياة

إذن لم أبلغ ذلك الكمال ، ولست بدانٍ منه ولو وُصلَت بالأجل آجال ، وما أنا بظافرٍ بغيرِ ما كان لى بحال ، فالطمع فيما وراءه من بعض المُحال

وإذن فهذا قَسْمى من صنعة القلم ، وما بات للتأميل من بعد ذاك مآب ، وهيهات أن يُدرِكَ المشيبُ ما انقطع دونَه جُهد الشباب !

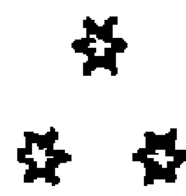
وكذلك ألحَّت علىَّ الرغبةُ فى أن أستعرِضَ آثارَ هذا القلم ، ففى استعراضها استعراضٌ لما يصحّ أن يُدعَى بالحياة . ولعله قد وقع لسمعك ذلك المثل الشائع : (إن التاجر اذا أَفلَس رجع الى دفاتره القديمة) ، على أننى إذا شاركت ذلك التاجر ، فى هذا الحظ العاثر ، فقد زاد حظى عليه فِقدان تلك الدفاتر !

لم يبق بدٌّ من أن أذكى النُّسّاخَ فى المكتبات العامّة ، فرجعوا إلىَّ بكثيرٍ جمعتُ منه هذا الجزء ينتظم أبواباً ثلاثة : الأدب ، والوصف ، والتراجم . * وسيتلوه ان شاء الله آخر فى الفن والمفتنِّين ، والأفاكيه ، والمراثى

* ألحق بباب التراجم فى هذه الطبعة كثير مما جرى به قلم المؤلف فى التأبين والتعزية والرثاء

على أننى وان لم أحرِّف رأياً سَلَف لى أو أُعدِّل فى فكرة ، وان عَدَلتُ فى الواقع عنها ، حفظاً لحق التاريخ علىّ ؛ فإننى قد عُدت بشىء من الصَّقل والتَّسوِيَة فى بعض العبارات ، واستدراكِ ما عسى أن تكون قد فوَّتت العَجلةُ مما يستقيم به نظمُ الكلام

كذلك لقد ضبطتُ بالشَّكل كلَّ ما يَشيع الخطأ فى النطق به على ألسنة الكثير من الناس ، وشرحتُ ما عسى أن يُخطِئَهم من مفرَداتِ اللغةِ عِلمُه ، تيسيراً للناشئين من المتأدِّبين



و بعد ، فوالذى نفسى بيده لو كنت أعلم بظهر الغيب أن أستاذى إمامَ البيان وشاعرَ القطرين سيَصفنى بما وَصَف ، ما سألتُه ما سألت . ولكنه أبى إلا أن ينظر إلىَّ نظر الأستاذ إلى تلميذه الخاصّ فلا يرى إلاَّ حسناً . وحبذا لو كان قد جَمع عزمَه ، وحمل على نفسه ، وخرج قليلاً عن عَطفه ، فبصَّرنى مساقطَ عيوبى ، فما أحوجَنى إلى أديب عالم نزيه يبصّرنى هذه العيوب . ومَن أولى بهذا من أستاذى مُطران ؟

و إذا كان قد أخذنى بأنى لم أتقدم اليه بما تقدمت وأنا فتى ناشىء وهو يُخرج (المجلة المصرية) ويجول قلمه فى كبريات الصحف كلَّ مَجال ، فليعلم وصل الله فى حياته النافعة أننى ما برحت أنظر إليه اليومَ بتلك العين التى كنتُ أنظر إليه بها فى تلك الأيام ؟

عبد العزيز البشرى

الباب الأول

فى الأدب

تطور الأدب العربى

وموضعه بمصر اليوم*

تعارف حملة الأقلام

سيداتى ، سادتى :

وأخيراً فهذا نادى القلَم ، يَجمع فى مصر أيضاً بين رجال القلَم . ولقد يتداخَلُ بعضَ الناسِ العَجَبُ من أن آخرَ من يفكِّر من أرباب المِهن فى التعارف والاتّصال والتعاون فى أسباب المِهنة هم أصحابُ القلم !

والواقع أن الأمرَ ، لو جازَ بهِ النظر لا يَبعث على كثير ولا قليل من العَجب . فإن رجالَ القلَم هم ، من صَدْر الزمان ، المتعارفون المتواصلون المتعاونون ، وإن تراخت بينهم الدِّيار ، يلتقون كلَّ حين فى حَلَق الدرس ، وعلى متون الصحف ، وفى بطون الكتب . يلتقون لا بصُوَرهم وأشباحهم ، بل بعقولهم وأرواحهم . فإذا كان تَعارفُ غيركم وتعاوُنهم أثراً لاجتماعهم واتّصالهم . فإنما يكون اجتماعُكم أنتم

* خطاب ألقاه الكاتب فى أول اجتماع لنادى القلم (١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣) و نشر بجريدتى الأهرام والسياسة فى صبيحة اليوم التالى

ثراً لتعارُفكم وتعاوُنكم . فاتصالُكم اليومَ ، على تفرُّق أصنافكم وألسنتكم أهوائكم ، إنما هو مِن تسجيل الأمر الواقع لا أكثر ولا أقل

وهذا هو الاجتماعُ الذى لا تقوَى على تصديعه يد الزمان !

سيداتى ، سادتى :

لم تكن ثمار الفكر مِلكَ أمة ولا خِلصاً لوطن ، ولا حُكرةً لخلق من الناس . أفرأيتم كيف اجتمع لنادى القلم ، فى كل هذا اليُسر ، مع المصريين أصنافٌ شتّى من الغربيين ؟ وكيف استوت السيداتُ فى مجالسهن أثناءَ الرجال ؟ بل كيف توافَى له مَن عسى ألاَّ يجمع بينهم من مذاهب الحياة إلا صَنعةُ القلم ؟ أفرأيتم إذن صِلةً أوثقَ من هذه الصِّلة ، ورحِماً أبرَّ من هذه الرَّحِم ؟

*
* *

بعد هذا ، لقد أقبلتُ على نفسى أُسائلها : لماذا آثرنى بعضُ إخوانى بالدعوة إلى إلقاء أول كلمة فى أول اجتماع لنادى القلم ؟ ولماذا كلما زدتُهم اعتذاراً زادونى إلحاحاً حتى لم أجد لى من المطاوَعة ، بظَهر الغيب ، مَفيضاً ؟

لقد أقبلتُ على نفسى أُسائلها . وكلما استصعبَتْ وتعذَّرتْ علىَّ فى الجواب زدتُها كذلك إلحاحاً حتى طاوعتنى هى الأُخرى . فإذا الجواب الذى استراح إليه فكرى أن العادة جَرَت بأنه إذا انتظَمت مواكبُ الجيش تقدَّم الأحدثون ، فالذين من فوقهم درجة ، وهكذا حتى يخلُص آخر صفٍّ للقادة العِظام . ومالى وللعسكرية وقد سَلختُ فى منصِب القضاء دهراً . وآدابُ القضاء تجرى بأن يُبدأ باستخراج الرأى من أحدث الجالسين جميعاً

إلى هذا المعنى استراحت نفسى ، وعلى هذا الاعتبار تقدمتُ إلى إلقاء أول كلمة فى هذا الاجتماع الكريم

ولستُ ، بالضرورة ، أعنى بالحداثة الحداثةَ فى السن ، و إلا لكنت من آخر مَن يتكلم فيكم جميعاً !

الأدب عرض يتلون ويتكيف

سيداتى ، سادتى :

كان حتماً علىّ بعد ذلك أن أختار موضوع حديثى إليكم ، ففكّرت ثم فكّرت ، فلم يهدنى تفكيرى ، على طول الترديد ، إلاّ أن أُلِمّ إلمامةً يسيرةً بتطوّر الأدب العربىّ وموضعه فى مصر اليوم . فلعلّى بهذا أجلو منه صورةً واضحةً بعضَ الوضوح على مَن عسى ألاّ يكون قد عُنِىَ بمطالعته من إخواننا السادة الغربيين

وقبل أن أسترسل إلى هذا الغرض ، أبادر فأقرر أننى مؤمن كل الإيمان بأن الأدب ما كان فى يوم من الأيام ، ولعله لا يكون فى يوم من الأيام ، فنًّا محدود الأطراف ، ثابتَ الأبواب ، مُرْسَخَ القضايا ، ينتهى من التأصيل والتقعيد إلى كمال معيّن ، أو شِبه كمال معيّن ، شأنَ الفنون الموصولة بالعقل ، أو بالطبيعة ، أو بالواقع . فلا يدخُل على قضاياها التغييرُ إلاّ بحدَثٍ عظيم من نحو استكشافِ مجهول خَفِى فى الزمان على أنظار العلماء . بل إن الأدبَ لَعَرَضٌ يتكيّف و يتلوّن طَوعاً لعقلية كل قوم ، وتاريخهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، والجوّ الذى يعيشون فيه ، وأسبابهم الخاصة ، ومبلغ شعورهم بالجمال ، بل بصوَر هذا الجمال أيضاً

فالأدبُ الحقُّ لكل قوم هو ما يكافئ عقليّتهم ، ويُرضى أذواقَهم ، و يواتيهم فى سائر أسباب الحياة

وعلى هذا ، لقد يكون من العَبث أن نطلُب للعامة من سكان الصعيد الأعلى مثلاً ، وهم شركاؤنا فى الجنس واللغة ، الأدبَ الذى يتروّاه و يَمتَع به المتعلّمون فى

كَبِد الحضَر. وأن ننعَى عليهم تخلُّفهم فى هذا . و إن عَيْبًا كبيراً أن يُراد تنعيمُهم وتلذيذُهم بمثل أدب الجاحظ والأغانى ، و بمـا انتَضَحت به قرائحُ أئمـة البيان وقادة الفكر فى الشرق والغرب ، ولو تُرجم إلى لغاتهم ، وأُدِّىَ إليهم فى لهجاتهم

عصور الأدب العربى

سيداتى ، سادتى :

لقد كان لسلفنا العرب فى جاهليتهم أدبٌ قوىٌّ جداً يُكافئ بداوتَهم وشدة طباعهم ، وقوةَ غرائزهم ، وصفاء نفوسهم . أدبٌ يُواتى كلَّ أسبابهم فى الحياة من الحرب والغَزو والطَّرَد ، والتفاخر بالكرم والإيثار ، والتكاثرِ بالأهل والعشيرة ، وقوة الغزل ، ودقةِ الوصف لـكل مايتناوله حسُّهم . والوقوف بالديار ، ومساءلة النُّؤى والأحجار

فلما فَتَح الإسلامُ عليهم من أقطار الأرض ، جعلَت أشعارُهم وسائرُ آدابهم تتلوّن بِلَون الحضارةِ التى لابَسوها ، والحياةِ التى أَخَذوا فى تَذَوُّقها . حتى إذا بلغوا من العِلم حظاً ، واطّردت بهم الحضارة الواسعة فى عهد العباسيين ، كان الأدبُ العربىُّ شيئاً آخر ، شيئاً يُواتى مطالبَ عقولهم ، و يَتَوافى لأحلامهم وأذواقهم فى أسبابهم الحديثة

ومثل هذا يقال فى أدب الأندلُس ، فإن صوَره ما برحت تُدارج شأنَهم فى حَضارتهم فتترَف بترَفهم ، وتَلين بِلِين عيشهم ، حتى كاد الأدب يصاب فيهم بالتزايل والاسترخاء . وحتى ولَّدوا فى الشعر فنوناً لتؤدِّىَ من الأغراض اللِّينة الرِّخوة ما عسى أن تثقُل عليه أوزان الشعر !

ومصرُ أيضاً ، لقـد كان لها من عهد شيوع العربية أدبٌ يكافئ عيشَها فى كل عصر . على أنه و إن كان أدبُها فى مبتَدَإ الأمر لا يكاد يختلف عنه فى قاعدة

الخلافة ؛ لأن الأدبَ العربىّ إنمـا كان فيها شِبه عارَية ، لا يكاد يعالجه إلاّ مَن انحدروا إليها من الأقطار العربية ؛ فإنه على تَطاول الزمن جعل يَتأقلم . وما برح يطّرد فى هذا حتى أصبح يحمل الطابع المصرىّ الخالص . حتى إن العديد الأكبر ممن هبَطوا مصر من العلماء والشعراء والكتاب فى أواسط القَرن السابع الهجرى ، عَقِب سقوط بَغدادَ فى أيدى التتار ، لم يستطيعوا أن يحيلوا لونَ الأدب المصرىّ ؛ بل لقد طبعهم وأنسالَهم بطبعه على الزمان !

دخول الصنعة فى الشعر

سيداتى ، سادتى :

لقد امتُحن الشعرُ العربىُّ من العصر العباسى الأول بدخول شىء من الصنعة عليه . وكانت هذه الصنعةُ أولَ الأمر تعتريه فى رِفق ولين . وكان أكثر ما يتغشّاه من ألوان البديع الطِّبَاقُ والتقسيم والتجنيس . وكيفما كان الأمر فإن الاحتفال للصنعة فى الشعر مما يُفتِّر فى الترجمة عن صادق الحسّ . وكلما أمعن الشاعر فى الاحتفال للصنعة ازداد ، بالضرورة ، التراخى بينه و بين نَفْسه

ثم ما برح يطّرد هذا الصنيعُ ويَشيع فى الشعر العربى ، إلى أن يطلُع فى العصر العباسى الثانى فيلسوفُ الأدباء قاطبةً وأعنى به أبا العَلاء المَعرّىّ ، يطلع بديوانٍ كامل ، ديوانٍ تضمّن أجلَّ ما تنزّل عليه من الحكمة ، يَنتظِم جميعَ أبياته لونٌ واحدٌ من البديع ، وهو لزومُ ما لا يَلزَم من إجراء القافية على حرفين أو أكثر !

ولقد شاعت هذه المحنةُ وتَغلغَلتْ ، لا فى الشعر وحدَه ، بل فى الشعر والنثر جميعاً . وكان لمصر منها حظها العظيم

وليس يتّسع هذا المَقام للحديث فى أصحاب البديعيات من الشعراء ، ولا فى

القاضى الفاضل وتلاميذه من الكتاب . وكلُّ ما أستطيع أن أرِدَه الآن ، فى هذا الباب ، أن الأدبَ كله أصبح عبداً للصنعة ، يَرتصِد للنكتة البديعيَّة ، ولا يزال يَتحرَّف باللفظ لإصابتها واقعةً ما وقعت بعد هذا مرامى الكلام . حتى لقد ترون الشاعر يَعقِد فى قصيدته القافيةَ على حرف عزيز كالثاء مثلاً ، دَلاًّ ومكاثرة ، فيستخرج القوافى أولاً . ثم ما يزال يَجدّ ويجهَد فى تجنيد الألفاظ لها ، وقَسْر الكلام عليها ، حتى يصيبها عن طَوَاعِيَة أو استكراه !

وعلى الرغم من أن مصر قد استوفت قِسطها من هـذا اللون من الأدب ، فقد بقى فيها الشعر والنثر كلاهما يحملان طابعها الخاصّ : حلاوة فى اللفظ ، ورقة فى الغَزَل ، ودقة فى وصف مشاهد الطبيعة

الأدب فى عهد الترك

سيداتى ، سادتى :

لقد كَرَثَ الحكمُ التركىُّ مصرَ فى كل شىء : فى العلم ، وفى الفن ، وفى الأخلاق ، وفى الصناعة ، وفى التجارة ، وفى سائر وسائل العيش ، فأصبح من الطبيعىّ أن يتلوَّن الأدب ، على الزمن ، بلون هذه الحياة . ولو قد ظلَّ مع هذا على شأنه الأول من القوة وسعة التصرّف لما كان أدباً مِصرياً ، ولا كان مما يَتّسِق لأذواق المصريين !

ضعُفت مَلكةُ العربية ، وشاعت التركيةُ على الألسُن ، بل على بعض الأقلام . واستأثرت بجميع الأسباب الدِّيوانيَّة . ودارَ الشعرُ فى أضيق الأغراض من المديح والرثاء والغزَل المتكلَّف المصنوع . ونحو هـذا مما لا غَناء فيه لمطالب العقل القوىّ ، ولا لحاجات النفس الكريمة . وقد هزَلَت المعانِى ، وتزايلت التراكيب . وقلّت العنايةُ باصطفاء اللفظ الشريف

وما برِح شأنُ الأدب على هذا حتى كان الفتحُ الفرَنسىّ فى مُؤخِرات القرن الثامنَ عَشَر . وتنظّرَت بعضُ أسباب الحضارة الغربية لخاصّة المصريين . ثم أقبلت النهَضاتُ التى بَعثَها محمد على دِراكاً فى العلوم والصناعات ، وخاصّةً من هذه ومن هذه ما كان بسببٍ من المطالب العسكرية

ولا يذهب عنكم أنه لم يكن من الرأى أن يَلتفت هذا المصلحُ العظيمُ ، بادئَ الأمر ، إلى الآداب فى حين أنه بسبيل استنقاذ البلاد من براثن الحكم التركى من جهة ، واستخلاصها من لهَوات المماليك الذين أسرفوا فى استنزاف دمائها ، وشدة اعتصارها بالأيدى ، وضَغْمها بحِدَاد الأنياب من الجهة الأخرى . فإن هذا مما لا سداد للأدب ولا للفلسفة ولا للفن الجميل فيه ! إنما أمرُه كلُّه إلى القوة المادية . فهذا لعمرى هو المَقام الذى يجب أن يُخفِتَ فيه عَزيفُ المدفع صوتَ الشاعر ، وتَزُمَّ فيه يدُ الجُندى بنانَ الموسيقىّ والمصوِّر جميعاً

الأدب فى عهد محمد على

سيداتى ، سادتى :

لسائل أن يعترضنى بهذا السؤال : لقد زعمتَ أن الأدب عَرَضٌ يَلحَق حالَ كل أمة فى عقليّتها وأسباب حضارتها . فما بالُ الأدب ظلّ على شأنه طَوال عهد محمد على إلى صَدْر كبير من عهد إسماعيل ، مع أن البلاد قد تحوّلت حالُها بما أصابت من الفن وما حصّلت من العلم الحديث ؟

وإننى لَأُجيب سائلى بأن عقليّات الأمم لا تتحوّل بمثل هذه السرعة ، مهما يَجِدَّ المصلحون أمثالُ محمد على فى الإسراع بأخذ عُنُق من أبناء البلاد بالعلم الحديث . إلى أن المتعلمين من بنى مصر يومئذ كانوا فى شُغل دائم بالوسائل المادية التى كان يريد القائمُ أن يَخُط بها مُلكَه . إلى أن التركية كانت ما تزال شائعةً

على الألْسُن ، منتضِحةً على الأقلام . إلى أن مثل هذا العَرَض ، أعنى به الأدب ، لا يُواتى مَعروضَه من الساعة الأولى ، بل لا بد من مَرّ الزمن حتى يَثبُت الطابع الحديث للعقليّة العامّة فى موضعه

على أننى أزعم ، بعد ذلك ، أن الأدب فى هـذه الفَترة إذا لم يكن دارَج الحضارةَ الحديثةَ ، فقد لَمَحها وأصاب منها فى بعض الحين

نهضة فى عهد اسماعيل

سيداتى ، سادتى :

أدركَت مصرُ فى عصر إسماعيل حظًّا محموداً من الحَضارة . فشاعت فيها العلوم ، واستوثَق الاتصالُ بينها و بين بلاد الغرب التى كثُر رُوّادها من المصريين . وانحدَر العديدُ الأكبر من الغربيين إلى هذه البلاد سُيَّاحاً ومستوطنين . كما نزحت إليها طائفةٌ من أعيان الأدباء والكتاب السوريّين

بهذا و بهذا و بذلك جعلت الثقافةُ العامّةُ تتلوّن بلون جديد . وجعلت الأقلامُ تَستشرِف ، بقدر مّا ، إلى أسباب الحَضارة الحديثة . ولا يفوتكم أن المطالب العسكرية فى ذلك الحين لم تُصبح مما يستغرق هَمّ القائم . بل لقد انبسط منه فضلٌ كبير للآداب والفنون . وكان أول من انبعث فى هذين البابين الصحافةُ الشَّعبيةُ والتمثيل

ولقد انبَعث ، طَوعاً لهذه الحال ، جماعةٌ من مَشْيخة العلماء فى طلب أدبٍ خيرٍ مما عانَوا من أدب ، فكان أول ما طلبوا مجفوّات كتب الأدب القديم . واستَخرجوا دواوينَ الفحول من متقدمى الشعراء . وجعلوا يتروّوْن هذا الأدب الجَزْل و يُروُّونه تلاميذَهم بالدرس والمحاضرة ، و بمجلة « رَوضة المدارس » التى

كانت مجالاً لأبرع الأقلام فى ذلك العهد . فاستقامت الملكات ، وصفت الطبائع ، ورهفت الأذواق . وجرت فُصَحُ العربية ناصحةً على بعض الأقلام من أمثال المرحومَين إبراهيم المويلحى و إبراهيم اللقانى من الكتاب ، وعبد الله فكرى ومحمود سامى البارودى من الشعراء

إذن لقد جاد الشعر وجاد النثر . أو لقد جادا على ألسُن نفَر من الشعراء ومن الكتاب . وأشرقت ديباجةُ البيان ، وجرى ماء العربية صفواً . على أن النظم والنثر و إن اشتركا فى هذا المعنى ، فإن النثر كان أوسعَ فى فنون البيان تصرُّفاً ، كما كان أسبقَ إلى الإصابة من المعاني التى يقتضيها عيشُ الحضارة الحديث

مذاهب الأدب واتجاهاته

ولقد اطّردت هذه النهضةُ البيانيةُ فى مصر ؛ ولكنها لم تجرِ كلُّها فى مذهب واحد ، ولم تجتمع على الاتجاه فى سَمْت معيَّن . بل لقد كان شأنها شأنَ القنبلة تنفجر فتتطاير شظاياها إلى اليمين و إلى الشمال و إلى وراء و إلى قُدّام ! فخَلْقٌ من أدبائنا لم يسلِّموا قطُّ بأن الأدب شىء يعدو شِعرَ امرىء القَيس ، وعَيشَ امرىء القَيس . فان هم تطاولوا إلى الفرزدق وجرير فمن بعض التطوُّل والإحسان : المركب : الناقة ، والمأكل: سَنام البعير (كهُدّابِ الدِّمقس المُفتّل) ، والمورِد : النبْع أو القَليب ، والأرض : المَوْماة ، والمنزل : الخَيش أو الشَّعَر ، وملتقَى الأحبة : سِقط اللوَى . أما اللفظُ فالمنتقَى المنتخَل من كل ما ندّ عن الطباع ، ونَشَزَ على الأسماع ! ! !

موقف أبناء الثقافة الغربية منه

وقام بإزاء هؤلاء جماعة من شبابنا قد استهلكهم الأدبُ الغربىّ ، فلا يرون

أدباً إلا ما قال شكسبير و بيرون وأضرابُهما . وأدّوا إلينا طريفاً من هذا النظم فى لغة ليس منها عربىٌّ إلا مفردات الألفاظ ، ألفاظ يكاد المرء يشهد ما بينها و بين ما قُسِرت عليه من المعانى من التصافُع بالأيدى والتراكل بالأرجل . ولولا ما يَرتبِطها من مثل قيد الحديد لطاركلٌّ منها إلى عُشّه . نخرج لنا من ألوان التعابير مالا يُرضى الذوقَ الشرقى ، ولا يَستريح إليه الطبعُ العربىّ !

وجعل كذلك جماعةٌ ممن تعلموا فى بلاد الغرب ، بنوع خاصّ ، يعالجون فى العربية إصابةَ المعانى الطريفة التى لامَسها حسُّهم ، وهدتهم إليها أسبابُ تفكيرهم . فعجَزت اللغة ، أو عجَز على الصحيح عِلمهم باللغة عن حق أدائها . نخرج لهم الكلام إما غامضاً مبهما ، و إما عاميا أو ما يدنو من العامىّ

و بَقِيَ كتاب و بَقِيَ شعراء على ما تحدّر إليهم عن آبائهم من صُوَر الأدب : ضيق فى الأغراض ، و إسفاف فى المعانى ، وفُسولة فى الألفاظ !

وارتصَد لهؤلاء أولئك أعناقٌ من النقَّدة ، خَلَص بعضُهم لوجه اللغة ، و بعضُهم تجرّد فى الطَّريف، و إن شئنا قلنا فى الغريب من المعانى . أولئك لا يرون فى شوقى ولا فى حافظ شاعراً ، ولا فى المويلحى ولا فى الشيخ على يوسف كاتبا ! وكيف ذلك ؟ ذلك بأنه قال : أَثَّر عليه ، إذِ الصواب : أَثّر فيه . وقال : غير مرة ، والصواب : أكثر من مرة ! وهؤلاء لا يؤمنون بشاعريّة البارودى لأنه لم يقع فى كل شعره على الشَّفق الباكى ، ولم يتحدَّث قطُّ عن الموت اللازَوَرْدِىّ !

على أنه من الإنصاف أن نقرر أن النقد كان له أثرُه فى تقويم الألسن وتحرّى الفصيح من جهة . ثم كان له أثره الحىّ بعد لأْى ، فى الاحتفال للمعانى وتعمُّد الإصابة من جهة أخرى

تعريف الأدب اليوم

سيداتى ، سادتى :

كذلك كانت حالنا من ثلاثين سنة خَلَت . بعضُنا يريد أن يُرضىَ العقلَ المحض ، و بعضُنا لايتجرّد إلا فى إرضاء اللفظ المحض ، و بعضُنا خلَبته آدابُ الغرب ، وفتنته تشبيهاتُ شعرائه وكُتّابه ، فهو يتصيّدها واقعةَ حيث وقعت من ذَوق الشرق ومن لغة العرب !

كنا إذَن من أمر الأدب فى بَلبَلة أو فى شبه بَلبَلة . وما لنا لا نكون كذلك ونحن حقٌّ مختلفِين على ماهية الأدب ، مختلفين على ما يَنبغى أن يؤديه الأدب ؟

ولكن الأستاذ الأعظم ، وأعنى به الزمن ، قد أنشأ يُلقى علينا من دروسه البليغة ما يقصّر كلّ يوم من مَدَى الفُرقة ، و يوَثّق من أسباب الأُلفة ، حتى اتفقنا ، أو بتنا على شرَف من الاتفاق على أن الأدب إنما هو أولاً الأداةُ الجميلة لمواتاة مطالب العقل والحس والعاطفة جميعا . وتأدية كل شعورنا بما نَلمِس من أسباب الحضارة القائمة ؛ على أن يُترجِم عن هذا كله لسان عربى ناصحٌ ، لا وَحشة فيه ولا استعجام

ولا شك فى أن مظهر هذا الخير أجمعه هو الصحافة ، فللصحافة بهذا الفضل تدين

كنوز الأدب القديم

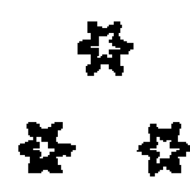
ومن الواقع الذى لا تَلحقه الرِّيَب أن العربية القديمة زاخرةٌ بكنوز البلاغة فى جميع ألوان المعانى : فلقد مثّلَت فأبدعَت فى التمثيل، وصوّرت فأوفت على الغاية من دِقّة التصوير . ولَكَمْ ترجمت عن أعمق ما تدَسّى فى النفس ، وعبّرت عن أشفّ

ما يترقرق به الحسّ . ولكن لا تَنسَوا أنه ليس من العدل أن نجشِّم هذه اللغةَ أن تَرتَصِد ، بِظهر الغَيب، لإصابة كل ما عسى أن يَجِدَّ من الأسباب بعد ألف عام !

انشاء أدب قومى

إذن لقد أصبح مُهِمُّنا الأعظمُ اليومَ هو استثمار تلكم الثروة الواسعة فى تجلية شعورنا ، والترجمة عن عواطفنا ، والتعبير عن كل ما يلامس حِسَّنا نحن فيما جَلَّ ودَقَّ من أسباب هذه الحياة . وبهذا نَصِل ماضِيَنا بحاضرنا ، وبهذا نُدرك ما ينبغى لنا ، لا من أدب عربى فحسب ، بل من أدب قومى يطلِق عليه التاريخ: (أدب مصر) . وهذا هو الجهد الجبار الذى يعانيه رجالات الأدب فى مصرَ اليوم ، وكثيرٌ منهم ماثلون فى هذا المجلس الكريم

ولكى أكون متَّسقاً مع نفسى أقرر أننا لا نحاول أن نخلُق لنا أدباً مصنوعا ؛ بل إننا نَتقرَّى هذا الأدبَ الذى يواتى عقلِيَّتنا ، ويُشا كل إحساسنا ، ويُرضى أذواقَنا فى هذا العصر الذى نعيش فيه . فنحن بهذا إنما نَرُوض الأدبَ على حكم الطبع ، ولا نَرُوض الطبعَ على حكم الآداب



التجديد ، ما هو ؟

ولست أختم هذا الكلامَ دون أن أُلمّ بمسألة كانت فى هذه الأثناء ، ولعلها ما برحت ، من شُغل الأدباء ، وهى مسألة (التجديد) .

هنالك معركة مستحِرَّة بين التجديد وأنصاره ، و بين القديم وأوليائه . وأرجو أن تصدّقونى إذا ادعيت بين أيديكم أننى إلى هذه الساعة لم أتبيّن وجهَ الخلاف الحقّ بين المتناضلين . على أننى أرجو أن نتفق فى القريب على أن الأدب أيضاً

كائن حيّ يجب أن يَشِبّ وينمو ويتطاول إلى ما قُدّر له من كمال ، على ألا تتنكّر صورته ، ولا يخرج عن شخصه

* * *

مستقبل الأدب :

سيداتى ، سادتى :

قدّمت لكم أننا أبناء العرب قد تعارفنا بعد تناكُر ، وتلاقينا بعد تهاجُر ، واجتمعنا بعد فُرقة ، وتآلفنا بعد طول وَحشة . على أننا لم نَقنَع بهذا ، فلقد كان لاستيثاق الصِّلات بيننا وبين الغرب أثرُه فى شدة إقبالنا على أدبه وتَرَوِّينا منه ، وطبع كل ما يَسوغ طبعه على غِرار أدبنا حتى ليمكن لهذا العصر أن يسجِّل ما أصبنا سواء فى وسائل النقد أو فى طرائق التفكير . وإنّ تعاوُن رجال العلم فى بلادنا اليوم مع إخوانهم من الغربيين لَعَلَى هذا من بعض الدليل .

وإننى لأرجو ، بفضل أدبائنا العِظام وقوة جهودهم ، أن يَفسَح الأدبُ العربىُّ لنفسه المكانَ الكريمَ بين سائر الآداب العالية ، لا ليَدُلَّ على نفسه فحسب ؛ بل ليُساهم ، بحظٍّ كبير فى حركة الفكر ، وفى تنعيم الذّوق الانسانىّ فى العالم المتحضِّر كلِّه .

حيرة الأدب المصرى* !

قبل أن أخوض فى هذا الحديث الذى يَستشرِف له القلمُ اليومَ أُقرِّر ، ولعلّى أفعل للمرة العاشرة ، أننى بالذّات — على كُثر ما قرأت للمتقدّمين والمحدَثين — لم أقع للأدب على تعريف جامعٍ مانعٍ ، على تعبير أصحاب المنطق . ولا أدرى إن كان الفرنج قد عرّفوا الأدبَ على هــذا أم لم يعرّفوه ؟ فإذا تحدثتُ عن الأدب ، فإننى إنمـا أتحدث عن الأدب الذى ألمحه ، وهو الذى خرج فى لسان العرب

وكيفما كان الأمر ، فإننى بالذات لم أَقع ، كما قلت ، على تعريفٍ يَجمع حدودَ الأدب ، ويَدفع عنه ما ليس منه . . . ولقد أهبت مراراً بأعلام البيـان وأئمة المتأدبين أن يُعرّفوا لنا الأدبَ أو يدلُّونا على مواضع التعريفات الصحيحة له ، فأمسكوا ولم تَتدلَّ أقلامُهم بجواب !

وعلى كل حال ، فإن الأدب إذا لم يضبطه تعريفٌ جامعٌ مانع ، فإن موضوعه واضحٌ فى مَظاهره ، وفى الغايات التى يَطلبها ويَتطاوَل إليها . فما من أحد إلاَّ يرى أن أبلغَ مَظاهر الأدب فى نَفْض الأَحساس الكامنة ، والعواطف الجائشة ، وتصوير ما يَعتلِج فى أطْواء النفس من ألوان الانفعالات بعبارات موسيقيَّة تتدسَّس إلى نفس السامع فتثير منها كلَّ ما يَثور فى نفس الشاعر أو الكاتب ، ولا شك عندى فى أن هذا أبلغُ مَظَاهر الأدب وأجلُّ غاياته

وأخرُج من هذا إلى أن الطبيعة البشرية وإن كانت ، على وجه عام ، واحدةً

* نشرت بمجلة المعرفة فى عدد فبراير سنة ١٩٣٢

فى الناس ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، إلاَّ أن لـكل أناس على ظهر الأرض أخلاقَهم وصفاتِهم ، وأسلوبَ تفكيرهم ، وتصورَهم للأشياء ، وتقديرَهم لها ، ثم أذواقهم ، وألوان عواطفهم وما يثيرها من فنون العوامل

ذلك بأن لـكل قوم أصلهم وتاريخَهم ، ورقعة بلادهم ، ومناظرَ أرضهم وسمائهم، وما دَرَجوا عليه من أخلاقٍ مطبوعة، وعاداتٍ مَوْروثة، وأحداثٍ مأثورة، وغير ذلك مما يَطبَع كل أمة على غِرارٍ خاصّ ، ويجلّيها فى شخصية تغاير ما عداها من شخصيات الأمم الأخرى . وما من فكرة تتحرك فى العقل ، أو عاطفة تَعتلِج فى النفس ، أو خيال يُحلّق فى الذهن ، إلا وهو مستَمَد من حقيقة واقعة أدركها الإنسان بإحدى حواسه الخمس . أما أن يختلق الذهنُ ما لا يَتكِىء على حقيقة واقعة ، فذلك ضرب من المستحيل . وإذا بَهرَك أن الخيال قد يخلُق من الصُّوَر ما لم تقع عليه عين أو تتصل به أذن ، فاعلم أنه ملفّق لا أكثر ولا أقل : ملفِّق كلّ ما يجلو من الصُّوَر من أجزاء يرجع كل منها إلى حقيقة يقع عليها الحسّ

وبعـــد ، فإنما نحن فى تفكيرنا وتصوُّرنا وما يحوك فى أنفسنا من ألوان العواطف ، وما تَتعلَّق به أذهانُنا من فنون الأخْيِلة ، إنما نُترجِم عن تاريخنا ، وعاداتنا ، وبيئتنا ، ومناظر بلادنا ، وغير أولئك من العناصر التى طبعتنا أمةً واحدة . هذا هو الشأن الذى ينبغى أن يكون لـكل أمة ، وعلى هذا ينبغى أن يكون الأدب فى كل أمة

وإنك — على تقارب اللغات الغربية وتَكافُؤ أصحابها فى المدنية ، وتَوافى بعضها لبعض فى أسباب الحضارة — إنك مع هذا لَتسمَع بالأدب الفَرَنسىّ ، والأدب الإنجليزىّ ، والأدب الألمانىّ ، والأدب الروسىّ ، وغير ذلك . كما تسمع بالأدب العربىّ : ذلك بأن العلومَ والصناعاتِ وما إليها ، أمورٌ يمكن أن تتقارَضها الأمم . أما الأذواقُ وخلَجاتُ النفوس ونَزَواتُ العواطف ، فما لا يقع عليه التقارضُ

والإعارة ، و إن جاز لأمة أن تقلّد أُخرى وتَحذُوَ حَذوَها فى طريقة الأداء وأساليب الاستقراء والتحليل ، وليس معنى ذلك تحويل الأذواق أو تلوين العواطف !

*
* *

نعود بعد كل ذلك إلى أدبنا — نحن المصريين — ونُقْبِل على أنفسنا بهذا السؤال : هل ما نتحرّك فيه من الأدب اليومَ يُؤدِّى حقًّا مطالبَ الأدب التى سلف عليها الكلام ؟ و بعبارة أخرى : هل الأدبُ الذى نعالجه اليوم مؤدٍّ حقَّ الأداء لما يَعتلِج فى نفوسنا من العواطف ، وما يَجيش فيها من فنون الإحساس ؟ أو بعبارة ثالثة : هل نحن نترجم اليومَ بهذا الأدب عما يَنبغى أن يُمليه علينا تاريخنا وطبيعتُنا ، وأخلاقُنا ، وعاداتُنا ، ومناظرُ بلادنا ، وما جاز بنا من أحداث ؟ وعلى الجملة : هل نترجم حقاً عما تقتضينا جميعُ أسبابنا فى الحياة ؟

لا شك فى أن أول ما يخطر على القلب فى سبيل الإجابة عن هذا السؤال ، أو هذه الأسئلة ، هو استعراض مَظَاهر الأدب القائم اليوم ، وتَقَرِّى صُوَره وألوانه ، وتحرِّى مطالبه وغاياته ، لنعرف أين يقع من مطالب الأدب التى تقدم فيها القول

والواقع أنه مهما تختلف لهَجات المتعاصرين من الأدباء فى أية أُمة من الأمم ، وتَتَغايرْ أساليبُهم فى فنون البيان : شعراً كان أو نثراً ، فإنك — ولا ريب — واجدٌ لمجموعهم طابَعاً خاصاً يَدلّ على عصرهم ، و يميزهم عن غيرهم ، بحيث يَتهيأ للناقد الخبير أن يَستدِلّ من نفس البيان على العصر الذى انتَضَح فيه دون أن يُرفَد بأية إشارة إليه . ولكنك ، مع هذا ، لا تستطيع أن تجد اليوم هذا الطابع للأدب فى مصر ، وتستطيع أن تزعم مثلَ هذا عن الأدب فى الشام . ونَقصِر الكلامَ على الأدب المصرى ففيه سُقنا الحديث

عندنا شعراء عظام ، وكذلك عندنا كتّاب عظام، على أنك حين تبلو آثارَهم ، وتقلِّب النظر فى ألوان بلاغاتهم؛ لا تصدِّق ، لولا أنك تعيش فيهم، أنه يجمعهم عصر

واحد فى أمة واحدة ! وليس هذا التبلبل مقصوراً على أساليب البيان ونسج الكلام والملاءمة بين الألفاظ ، بل إنه ليتعدَّى هـذا إلى الأغراض والمطالب ، وطريقة نَفْض العواطف الباطنة ، ونَزْل النزوات الكامنة

هذا شاعرٌ فَحْل لا يرى الشعر يجود ، بل لا يرى فيه شعراً ألبتةَ إلاَّ إذا خرج فى كلام جزل ، وتحرَّى الإتيان فيه بغريب اللفظ وشامسه[1] ، وحسبُه من المطالب الوقوفُ بالديار ، والبكاء على النُّؤى والأحجار ، والتشبيبُ بهند ودَعْد ، والهُتاف برَضْوَى وسَلْع . وطَلَع بك على مضارب القباب ، وما أجنَّت من عاتكة والرَّباب ، ووصف لك النِّياق وما صنع بها الوَجيف فى المَوَامِى حتى أتت أنقاضاً على أنقاض !

وهذا شاعرٌ لا يرى الشعر إلا أن يكون الكلامُ جزلاً سهلاً ، متين الرصف ، متلاحم الأجزاء ، مُشرِق الديباجة ، واقعة أغراضه ومعانيه بعد ذلك حيث وقعت !

وهذا شاعر يَعتصِر ذهنَه ، ويُكدّ عَصَبَه ، فى تصيّد معنى جديد ، والوقوع على تشبيه طريف .... الخ

وهـــذا كاتبٌ أَجَلُّ همّـه تجويدُ العبارة وصقلُها ، وتلقُّطُ ما جالت به أقلامُ السابقين من الألفاظ المشرقة والجمل النيِّرة لا يسوقها إلى معانٍ قائمة فى نفسه ، وإنما يسوقها لنفسها ، ولو استكـرَه المعانيَ عليها استكراهاً !

وهذا أديبٌ لا يراك حقيقاً بالبقاء فى هذا العالم إذا زَلّ بك القلم فقلت : « أثّر عليه» ولم تقل : « أثر فيه» أو قلت : «الشماعة» ولم تقل : «المِشجَب» أو قلت : « غير مرة » ولم تقل : « أكثر من مرة » الخ الخ — لا يراك كفؤاً للحياة بَلْهَ حملَ القلم ، ولو لم يَتعلّق بغُبارك فى العلم والأدب والبيان أحد !

(١) الشامس : النافر المتمنع

وهؤلاء كتابٌ ، وجُلّهم من ساداتنا أصحاب التجديد ، لا يُعجبهم كاتب عربيّ ، ولا فكر شرقيّ ، ولا شيء مما يتصل بأسبابنا باعتبارنا مصريّ البيئة ، عربيّ اللغة . ذلك بأنهم قرأوا شكسبير ، و بيرون ، وما كولى ، ودنتى ، وفلاناً وفلاناً من تلك الأسماء التى تَسكُبها أقلامهم فى آذاننا كل يوم . ولقد يَطلُعون علينا بألوان من البيان لا نُدركها لأنها لا تتصل منا بسبب ، ولقد يريدوننا على اتخاذ نماذج لألوان من البيان لا نفهمها ولا نستطيع فهمها ولا تذوّقها ، فضلاً عن أن نَصنعها ونجوّدها ، لأن طبيعتَنا غير طبيعة أصحابها ، و بيئتَنا غير بيئتهم ، ولسانَنا غير لسانهم ، وكل شيء فينا مغاير لكل شيء فيهم !

وعلى الجملة ، فإنك لو تصفّحت هذا الأدبَ المصريّ القائم ، لرأيته موزّعاً بين حياة فى الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الإسلام ، و بين حياة فى بغداد أو الأندلس ، فيما يلى ذلك العصر ، و بين حياة فى لندن أو برلين أو باريس أو روما أو موسكو . ولكن أين هذا الأديب الذى يعيش فى مصر و يصوّر عواطفه المصرية التى يُلهمها ما يَنبغى أن يلهم المصرى من عواطف و إحساس ؟

الواقعُ أن الأدب المصرى من هذا فى أشد الحيرة والاضطراب . على أنه لا ينبغى لنا أن نَبتئس بهذا ولا أن يَشتدّ ضيقُنا به ، فإن من الواقع المحسوس أيضاً أن أساليب أصحاب البيان جعلت تَتقارب رو يداً رو يداً ، كما جعلت مَنازعُ تفكيرهم تتّصل شيئاً فشيئاً . ولا شك فى أن الفضل فى هذا يرجع إلى قوة انتشار الثقافة العامّة وتعاظم وسائلها فى هذه السنين

كفاح اللغـة العربية

فى ســـبيل الحيـاة والنهوض*

لقد أدالَ القدَرُ من الدولة العربية ، فكان أولَ ما دُهِيَت به من جُلَّى الأَحداث سقوطُ بغدادَ فى أيدى التتار ، ثم طردُ العرب من الأندلس وتشريدُ من سَلِمَ منهم على التقتيل والإحراق ، ثم استيلاء الدولة التركية شيئاً فشيئاً على البلاد التى تتكلم العربيةَ فى الشرق والغرب جميعاً ، خلا مراكش فى المغْرِب الأقصى ، وما لا خطر له فى هذا الباب إذا كان قد سَلِمَ من الفتْح التركىّ بعد ذلك شىءٌ من البلاد .

لست الآن بسبيل سَرْد الأَحداث التاريخية التى صَبَّها القدَر على الأقطار العربية والمستعربة . ولا بسبيل طَرْدِ تلك الأحداث وتسلسلها ، والكشفِ عن أسبابها وبواعثها ، وإنما الذى يَعنينى تقريرُه فى هذا المقام أن العربيةَ ، بزوال سلطان العرب فى كلّ مكان ، لم يبق لهـا مَعقِلٌ تلوذُ به ، ولا مددٌ تَسترفِدُه ، بل لم يبق لها مجال فى مذاهب الحياة . فإن الترك الحاكمين كانوا يَفرضون لغتَهم فرضاً فى جميع الأسبـاب الحـكومية ، كما كانوا هم وعمالهم لا يتحدثون إلى الأهلينَ إلا بالتركية . فأصبحت هـذه لغةَ الخاصة أولاً كما شاع كثيرٌ من صِيَغها وبخاصَّة فى الشئون الدائرة على ألسنة العـامَّة أيضاً ، فشُوِّهت العربية بهذا الخلاَط تشويهاً شديداً .

* نشرت فى مجلة (الهلال) فى أول أبريل سنة ١٩٣٧

ولو اقتصر الخطبُ على حديث الحاكمين وعمّالهم لما أعْيا على أبناء العربية أثرُه . ولكنّ حكمَ القوم إنما كان قائماً على استخراج الأموال للساعة من أيّ سبيل ، واقعاً ذلك حيث وقع من أسباب التعمير والتثمير والتّحضير ، فكان ذلك بالضرورة مدعاةً إلى جُثُوم التّجارة وتقلُّص الصّناعة ، بل إلى فِرار جماعات الزارعين من زراعة أرَضيهم . وما لهم لا يَفِرون بل ما لهم لا يَخلَعون ملكية الأرض عنهم إذْ هي قد أصبحت لا تُغِلُّ مع الجُهد إلا قليلاً بالقياس إلى ألوان الجِبايات تُقتَضَى عليها اليومَ بعد اليوم والساعةَ بعد الساعة . فإذا عَجَزوا عن الوفاء وهم لا بد عاجزون ، ففي السّوْط (الكرباج) فضلٌ للإبْرَاء !

أظن أنك بعد هذا في غير حاجة إلى من يقيم لك الدليلَ من مَرَاجع التاريخ على أن المدارسَ قد عُطِّلت ، وأن دُور العلم قد عُفِّيَت ، وأن الناس قد ارتدُّوا إلى جَهالة عمياء ، وانكسَروا في وسائل الحياة جميعاً على طلب ما يُقيم الأَوَد ، ويستر الجَسَد . فإذا بقي بعد ذلك فضلٌ من الجهد ، فهو حَبْسٌ على التَّحَرُّفِ عن مواقع سَطْوة الظالمين ! وبحسبي أن أقول لك : إن السلطانَ سَليماً لما فتح مصرَ جمع كلّ الحُذّاق في فُنون الصّناعات المختلفة وحملهم إلى الآستانَةَ ليبنوا له هناك ويُعَمِّروا ويُنَجِّدوا ويُزَخرِفوا . وبهذا قضى على جميع الصناعات البارعة في مصر القضاء الحاسم !

وبعد ، فإذا صارت أمةٌ إلى ما صارت إليه مصرُ بالفتح التركى ، قَفْر وفَقْر ، وظُلْمٌ تَغشاه ظُلُمات ، فلا علمَ ولا فنّ ولا تجارةَ ولا صناعة ، ولا أيّ مظهر من مظاهر الحضارة — ففيم تجرى اللغةُ ، وما ذا عسى أن تتناولَ من الأغراض ، وعَمّ تُترجم من ألوان المعاني ؟ اللهم إنه لم يبق بين يديها إلا ما يُغْنى في أدائه أخس العامية ولو شاهت بخِلَاطِ هذه التركية !

العربية تنبعث للعلم

لقد رَكَدَت اللغةُ العربيةُ فى مصرَ إذن وجَفَّ عُودها . وجَعلت تتقاص يوماً بعد يوم إلى الغَزْوِ الفَرَنْسى ، وإلى قيام محمد على الكبير ، حتى خُيِّلَ إلى مُتَرَسِّمِ التاريخ أنها ماتت موتاً لا بعثَ لها منه إلى غايةِ الزمان !

ولا يتعاظَمَنَّكَ أنه كان يقوم فى مصرَ فى تلك الأيام « أدب » وأنه كان يقوم فيها « أدباء » فلقد كان فُضَالَةَ الثمرة الجافَّة ، وأثارةَ البَقلةِ الذَّابلة . وناهيكَ بأدب كلُّ همه إلى التَّحَرُّفِ لإصابة نُكتةٍ بَديعيَّة ، إذا لم تُغْنِ فى إشلاَسِها الحيلةُ جُرَّتْ جَرًّا ، واستُكْرِهَت استِكراهاً . أما دِقاقُ المعانى وأما كرائمُ الأغراض فما لا تستحق عند الكاتبينَ ولا الشاعرينَ جليلاً من الاحتفال والتشمير !

كان هناكَ نفرٌ يَقرِضون الشِّعر ، ويُزخرفون المرْسَلَ من القول ، وقد يقع الجَيِّد فى بعض ما يَنظِمون وفى بعضِ ما يَنشُرون ، ولكنه لا يصدُر عن طبع ، وإنما تجىءُ به المصادفة ، أو تأتى به مشاكَلَةَ المحفوظ عن مُتَقَدِّمِى البلغاء !

وكيفما كان الأمر ، فإن هؤلاء الأشتاتَ من « الأدباء » كان أدبُهم وما تسلُكُ أقلامُهم من فُصَحِ العربية فى شِبْهِ مُنْقَطِعٍ عن سائر الناس ، عالمهم وجاهلهم فى هذا بمنزلةٍ سواء ، وعلى الجملة لم يكن ذلك « الأدب » ولا ما يجرى فيه من صِحاحِ العربيـة بمُتَرْجِمٍ ، ولو بطريق التكلُّف والاستعارة ، إلاّ عن أولئك النفرِ الأقلِّين . أما الجمهرةُ فليست من ذالك وليس ذاك منها فى كثيرٍ ولا قليل . فإذا زعمنا أن لغةَ المصريين فى ذلك الزمان كانت العربيةَ ، فإننا نُمْضِى هذا على تَرَخُّصٍ بعيد !

ويستقرّ الأمر لمحمد علىّ، وتَستَمكِنُ من ناصية الحكم يدُه، وتلتفت عزمتُه إلى تجييش جيش وافِى العُدَّةِ مدرَّبٍ على النظام الحديث، فللرجل فى السلطان مرامٌ بعيد. والجيشُ يَحتاج إلى الأطباء إذ ليس فى البلد كلّه طِبٌّ ولا طبيب. فيقيم مدرسةً للطب ويسوقُ إليها فيمن يسوق بعضَ المتقدمين من مجاوِرِى الأزهر، لا يعرفون كلمةً افرنجيةً واحدة، ويرميهم بمعلّمين من حُذّاق الأَطباء فى الغرب لا يعرفون كلمةً عربيةً واحدة، فيقوم المترجمون بين الأساتيذ وتلاميذِهم ليؤدُّوا ما يُلْقِى أولئك إلى هؤلاء!

وتَترامى همةُ محمد علىّ إلى آفاق العلومِ المختلفةِ. فيقيمُ لها المدارسَ فى مصر، ويوجِّهُ بعوثَ الطلاّب لتَرَوِّيها من منابِعها فى بلاد الغرب.

إذن فهذه علومٌ وهذه فنون تستَكرِهُ وثبةُ محمد على أصولَها وفروعَها وقواعدَها ومسائلَها على أن تَتجَلَّى عربيةً يتفهّمُها طلابُ الأزهرِ القديم. وقد تمثَّلوا لتلقّى العلمِ الحديثِ. إذ العربيةُ لا عهدَ لها من زمانٍ بعيدٍ ببعضِ تلك الفُنون. ولا عهدَ لها ألبتةَ بكثيرٍ مما يؤَدِّى مسائلَ تلكَ الفنون!

بعثَ أولئك المترجمونَ العربيةَ فى عُنْفٍ وغِلْظَة، وما كان لهم من هذا مَحِيص، فهبَّتْ هُبوبَ النائم المستغرق فى حُلُمه وقد أزعجه عنه من الطوارقِ ما يستطِيرُ اللُّبّ، فركب رأسَه وجرى لا يَلْوِى على شىء، ما يُبالى أعثَرَتْ رجلُه أم اصطدم بالجدَار جَبِينُه. وإنَّ الذُّعر لأَعْصَى من أن يَدَعَ لمثل هذا فضلاً من الفكر فيما يأخذُ من عُدَّةِ القتال وما يَدَع!

ولقد بان لك أن العربيةَ لم تمت، ولو قد ماتت ما قُدِّرَ لها بَعْثٌ أبداً. ولكنها إنما تَقبَّضَتْ وتقلّصت وجَثَمَت فى أُفْحُوصِها دهراً طويلا، لا تطالعُها شمس، ولا يُقرَّبُ إليها غِذَاء. ومع هذا لقد ظلت مَطْوِيَّةً على حَيَوِيّتِها، وهى

لِحُسن الحظِّ حيوية قوية متينة ، فإنها لم تـكد تُحِسُّ حرارةَ الشمس وتُصيب المُتَنَفَّسَ فى الجوِّ العريض ، حتى انتعشَت وراحت تطَلبُ من وسائل الحياة ما يطلب سائرُ الأحياء !

فهذا رفاعةُ الأزهريُّ يعود من فرَنْسا بعد المُقَام فيها مع إحدى البَعَثَات بِضْعَ سنين ، وإنه ليقوم فى جماعة من لِدَاتِه وتلاميذه على « قلم الترجمة » وقد راحوا يَصُبُّونَ ألوانَ الصِّيَغِ والمصطلحات فى شتَّى العُلوم والفُنون ، يتوسَّلون إلى هذا بالبحث فيما أُثِرَ عن الأَقدمين تارةً بالِاشتقاق ، وأخرى بالتعريب ، وأحياناً بغير أولئك من وسائل الدَّلالات . واللغة تَتَّئِدُ فى مُماشَاتهم مرة ، وتَخِفُّ فى التَّسْيَار مرة . على أنها فى الحالين وَاتَتْ ، بقدرٍ مَا ، مطالبَ العِلْمِ الحديث . فَحَقق جُهْدُهم فيها وجُهْدُها معهم ما كاد يَصِلُه الظنُّ بجملةِ المستحيل !

ولقد جعلتِ اللغةُ أبلغَ همِّهَا إلى العلم ، لأن نهضةَ محمد على إنما كانت تعتمدُ فى جُلِّ وسائلها على العلم . أما الأدبُ فقد فَرَضَتْ له حظًّا ضئيلاً من يومِ تقدم محمد على بإخراج (الوقائع المصرية) وعهِدَ بتحريرها إلى العالِمِ الشاعرِ الأديب الشيخِ حسنِ العطارِ ، رحمة الله عليه .

العربية تنقبض عن العلم وتتحرر للأدب :

أَمْعَنَت العربيةُ فى ألوان العلوم والفُنون ، وخرجت فيها الـكتبُ المؤلفةُ والمترجَمَة فى الطبِّ والهندسةِ والرياضةِ والزراعةِ والمعـادنِ وطبقات الأرضِ والفُنونِ العسكريةِ وغير ذلك مما جادت به القرائحُ فى العالَمِ الجديد إلى تلك الأيام.

ثم خَبَتْ هذه الجَذْوَة ، وسكَنَت بانتهاءِ ولايةِ محمد على تلك الفَوْرة ، حتى قام حُـكْمُ إسماعيل ، فانبعثَتِ اللغة ثانياً ، ولـكنها لم تَـكْسِرْ أجلَّ همها هذه

المرةَ على العلوم ، بل لقد فرَضَتْ من جُهْدِها صدراً عظيماً للآداب ، فخرجت الصحفُ الدَّوْرِية تتبارى على مُتُونِهاَ سوابقُ الأقلام .

ويقوم فى ذلك العهدِ العالمُ الكاتبُ الأديبُ المجدِّد حقًّا أعنى به المرحومَ الشيخَ حسين المرصفى فيلفِتُ جَمْهَرَةَ الأدباء عن ذلك الأدبِ الضَّامر ، ويوجِّه أذهانَهم وأذواقَهم جميعاً إلى الخالِصِ المُنْتَخَلِ من أدبِ العرب فى جاهِلِيَّتِهِم وفى إسلامهم ، ويبعثُ لهم شعرَ أبى نُوَاس وأبى تمَّام والبُحْتُرِيِّ وغيرهم من فحولِ الشعراء . كما يَدُلّ على بيانِ ابنِ المُقَفَّع والجاحِظ والصُّولِيِّ وأحمدَ بنِ يوسفَ وأضرابِهم من مُتَقَدِّمى الكتَّاب . فسَرْعَانَ ما يَصْفُو البيانُ ويحلو ، وسَرعان ما يجْزُلُ القول ويعلو ، وسَرْعَانَ ما تَنْفَرِجُ آفاقُ الكلامِ وتَتَبَسَّط أَسَلَاتُ الأقلامِ فى كلِّ مقام . وناهيك بغَرْسٍ يَخْرُجُ من ثِمَاره إبراهيمُ المُوَيْلِحِيُّ فى الكُتَّاب ومحمود سامى البارودىّ فى الشعراء !

وفى أعقاب نهضة المَرْصَفِيّ يُقْبِلُ العالمان الأديبان اللغويّان الشيخُ حمزة فتح الله والشيخُ إبراهيم اليازجيّ ، فيكشفان عن مَجْفُوِّ العربية ، ويَسْتظهران من أوضاعها وصِيَغِها ما يَدُلُّ على الكثيرِ من الأسباب الدائرة ، ويتعقَّبَان الأخطاء الشائعةَ ، ويَدُلَّان على الصحيحِ الناصِحِ من كلام العرب . فيأخذُ الكتَّابُ والشعراءُ أنفُسَهم بالتَّحَرِّى فى التماس الصحيح حَذَرَ النَّقْدِ والتشهير . وكذلك تصفو اللغة وتشْرِقُ دِيباجتُها . ولا شك فى أن للصحف السيارةِ فى هذا الباب فضلاً غيرَ منكور .

وظلت لغةُ الآداب فى رُقِيِّهاَ واطّرادها فى سبيل كمالها إلى اليوم . أما لغةُ العلم فلقد دهاها من السياسة ما دَهَى . فإن (دنلوب) ما كاد يَقْبِضُ على زِمَامِ التعليم فى المعارف ويَنْفَرِدُ بالسلطان فيها حتى جعَل يُحِيلُ لغةَ العلوم إلى الإنجليزية ،

وتمّ له من هذا فى المدارس الثانوية فما فوقها كلُّ ما أراد . ولو قد تهيّأ له أن يدرُسَ الطلّابُ قواعدَ العربيةِ نفسها بالإنجليزية لما أعوزَهُ الإقدام !

وطالتْ هذه الحال ، وخرجت كتبُ الدراسة فى العلوم فى الإنجليزية ، وتقلّبَتْ فيها ألسنة الطلّاب فى دُور التعليم . وجعلَتْ لغةُ العرب تتقلّصُ عن أداء الصِّيَغ والمصطلَحات فى شتّى العُلوم والفُنون ، حتى تمّ التنَاكُر والقطيعةُ بينها وبين تلك أو أشرفَ على التمام .

إذن لقد كان بعضُ اللغة أعنى لغةَ الآداب فى تبسّط وازدهار ، إذ بعضُها وهو ما يتصل بالعلوم فى تقلّصٍ وإقفار !

ويشاء القَدَرُ الحانى على لغةِ الكِتَابِ أن يتولّى المرحومُ سعد زغلول باشا (نظارة) المعارف ، وهو مَنْ هُوَ فى وَثاقة عِلْمه بالعربية ، ونفوذه إلى دقائق أسرارها ، وقوةِ يقينِهِ بأنها زعيمة ، لو قد مُرِّنَتْ بالعلاج ، بأن تسَع علم الآخرِين ، كما وَسِعَتْ علم الأوّلِين ، فتقدم من فوره بدراسة العلوم ، بكلِّ ما يتّسع له الذَّرْع ، باللغةِ العربية . فشمَّر الأساتيذُ لهذا ، وأقبل العالِمُونَ على رَفْدِ العربية بالعلوم المختلفة من كلتا الطريقتين : الترجمةِ والتأليفِ . وخلَفه على (نظارة) المعارف المرحومُ أحمد حشمت باشا ، وحذا حَذْوَه فى حِياطَةِ هذه اللغة وحَضَانتها . وكان من توَسُّعِهِ فى هذه الناحية أن أنشأَ فى (نظارة) المعارف قلماً للترجمة لينقُلَ إلى العربية ما يتدارسه الطلاب فى شتّى العُلوم والفُنون . وإذا كان هذا « القلم » لم يغْنِ فى هذا المطلب جليلاً فلأنه كان حقّ عسير . وألّفَ لهذه الغاية أيضاً لجنة دعاها « لجنةُ الإصطلاحاتِ العربيةِ » وعقَد رياسَتها له ودعا إلى عُضوِيّتها بعُنُقٍ من المشهود لهم بسَعَةِ العِلم وجَزَالةِ الفضل ، والتضلع فى فقهِ العربية مع المشاركةِ فى مختلِفِ العلوم .

العربية لغة علم وأدب

وبعد، فالحقُّ أن اللغةَ العربيةَ إذا كانت في هذا العصر الذي نَعيشُ فيه قد أزْهَرَت وأشْرَقَت وأضحَتْ تُوَاتِي في يسرٍ حاجةَ الآداب، فإنها ما بَرِحَتْ تُثقِلُها مطالبُ العلوم، بل لا غَرْوَ عَلَيَّ إذا زَعَمْتُ أنها ما بَرِحَت تُحِسُّ العجزَ الشديد، فلقد ازدحمت مصطَلَحاتُ العلوم في هذه الأربعينَ سنةً الأخيرة، على وجهٍ خاص، ازدحاماً هائلاً مُرَوِّعاً بما أخرجت القرائحُ فيها من فنون المخترعاتِ والمُستَحْدَثَات في مختلِفِ وسائل الحياة. وإن إحساس أبناء العربية، وبخاصةٍ من يَتَوَلَّوْنَ منهم شأنَ التعليم والتأليف، بهذا العجزِ هو الذي كان يَبْعَثُ أعيانَ أصحاب العلمِ والبيانِ في مصرَ الفترةَ بعد الفترة على الدعوةِ إلى تأليف المجامعِ اللغوية لعلاج لغتنا، ومَدِّها بالوسائل المختلفة، حتى تُوَاتِيَ حاجاتِ العلوم والفنون. ولم يُقَدَّرْ لشيءٍ منها النجاح، لأنها كانت تُعْوِزُها بعضُ وسائل الحياة، ومن أهمِّها المالُ والسلطان.

وأخيراً أُنشئَ «مجمعُ اللغةِ العربيةِ الملكيُّ» وفوق أنه فَرَضَ صَدْرًا عظيماً من جُهْدِهِ لاستظهار ألوان الصِّيَغ والمصطَلَحات في شتَّى العُلوم والفُنون، فقد رَاحَ يَتَبَسَّطُ في قواعد العربية ما أسْعَدَتْه على هذا التَّبَسُّطِ مذاهبُ السَّلَفِ الأكرمين، إلانَةً للغة، وتَيسيراً لما كان يَتَعَاصَى في هذا المطلب على جَمْهَرَةِ المُعَلِّمين والمؤلِّفين، وقد قَطَعَ في هذا الشَّوْطِ الخُطَا العِرَاض. والأملُ معقودٌ بأن هذا هذا المجمعَ في ظلِّ نظامِهِ الجديد سَيُبْلِغ العربيةَ مُنْيَتَها إن شاء اللهُ في وقتٍ غيرِ طويل.

هذا كفاحُ العربية في مائةِ عام. وإن لغةً تُرْزَقُ هذا الصبرَ وهذا الجلدَ في الكفاح، وهذه الجدَّاتِ على كثرةِ دوَاعِي البِلى، لحَقيقةٌ في النهايةِ بالظَّفَرِ والعِزَّةِ في الدنيا على طولِ الزمان.

القصص

في الأدب العـــــربي *

أخذ العربُ عن اليونان فلسفتَهم وحكمتَهم ، كما نقلوا عنهم إلى العربية علوماً شتى كالطبّ والنجوم وغيرها ؛ ولكنهم لم يأخذوا عنهم فنّ القَصَص ، وخاصّةً القَصَص التمثيلي (الروايات المسرحية) . ولا أدرى أكان ذلك يرجع إلى اعتبار دينيّ ، وكراهة الشرع والطبع العربيّ أيضاً أن تَسنَح امرأةٌ لجمهَرة النظّارة تُمثّل عاشقة أو معشوقة ؟ أم يرجع إلى أن العرب فى مطلع حضارتهم كانوا ككل الأمم الناشئة ، تُعنَى أول تُمنَى بالضروريّات ، حتى إذا أصابت منها حظّاً محموداً لَفتت بعضَ سعيها للكماليات ؟

وهنا أرجو ألاّ تَنسى أن العرب إنما عُنوا بنقل فلسفة اليونان ومنطقهم إلى لغتهم لغرض دينيّ ، فلقد وصلوها بالعقائد ، وأقاموا عليهما علمَ الكلام (التوحيد). والدينُ كما لا يذهب عنك من أخصّ الضروريات

أم أن انصراف العرب عن ذلك الفن يرجع إلى أن الحياة الاجتماعية لم تكن قد استقرّت عندهم استقراراً يدعو الأذهان إلى التغلغل فى تحليل حياة الفرد والجماعة ، والخروج بفكرة عامة تجلو على الجمهور رواية قصصية أو تمثيلية . أم أنه يرجع إلى بعض هذه الأسباب دون بعض ، أم يرجع إليها جميعاً ؟ ومهما يكن من شيء فذلك الذى وقع والسلام

على أن العرب كانوا إذا عالجوا القصة لم يَعدُو إثبات شيء وقع ، أو شيء يَتخيّلون وقوعه . فكان حظهم فى هذا الفن ضئيلاً لأن شيئاً من ذلك لم يتعرض

* نشرت بجريدة المساء فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٠

لتحليل ناحية من حياة المجتمع . والخروج بفكرة عامّة . هى فى الواقع معقِد القصة والغاية من وضعها

ولقد نزل القرآنُ الكريمُ فجاء بكثير من قصص الأمم الغابرة ، وبيّن كيف فُتِنوا وكيف ضَلُّوا ، وأتى على من بُعِث فيهم من المرسلين ، ومن آمنوا بهم ومن كفروا برسالاتهم ، وما أعدّ الله لأولئك وكيف صنع بهؤلاء

والقرآن كتاب الله تعالى لا تخييل فيه ولا اختراع، ولا خَلْق لحوادث لم تقع ، ولا تَجلِيَة لأناسِىّ لم يكونوا ، تصويراً لفكرة ، واستدراجاً لفهم الجمهور بوسائل التلفيق والتخييل. إنما هو القول الحق يَرْوى به الكتابُ العزيزُ ما وقع للسالفين للعِبرة والادّكار

ولقد بَقيت القصة مقصورة ، فى الجملة ، على الشعر . ولكن بالقدر الذى أسلفناه عليك . حتى إذا كان عهدُ الدولة العباسية ، التفت الناس للقَصَص ، وترجم ابن المقفّع (كَليلةَ ودِمنة) ، وترجم غيرُه كتابَ (هَزار أفسانه) ألف خرافة ، وهو الذى قالوا إنه أصل كتاب (ألف ليلة وليلة)

وعلى ذكر كتاب (ألف ليلة وليلة) أقول لك إن أبسط نظرة فيه تعرّفك أنه لم يُكتَب بقلم واحد ، ولم يؤلَّف فى زمان واحد ، ولا فى مكان واحد . فإنه قد يعلو فى أغراضه ومعانيه وعباراته علوّاً كبيراً فى بعض المواضع ، وإنه لَيُسِفّ فى ذلك إلى غاية الإسفاف فى مواضعَ أُخَر . وإنه ليحدّثك حديثَ شاهد العِيان عن بغدادَ فى أزهى أيامها ، كما يُحدّثك حديث شاهد العِيان عن القاهرة فى أظلم عهودها الخ . كما أنك تجد هذا الكتاب فى العربية غيرَه فى التركية ، وتجده فى كلتيهما غيرَه فى الفارسية

ولستُ هنا بصدد البحث فى كتاب (ألف ليلة وليلة) وكيف نَجم ، وكيف تألَّف . ولعلّى إن تجرّدت فى هذا البحث لا أَبلغ منه مَدى ؛ وإنما هى كلمةٌ اطّرد بها القلم . ومن حقنا أن نعود بعدها إلى ما نحن بسبيله

ولقد أخرج الجاحظُ كتابَ (الحيوان) ، بحث فيه طبائع الحيوانات وعاداتِها، وعقَدَ المناظراتِ الكثيرةَ بين أصحابها . والجاحظُ رجل واسع العلم ، شديد التمكّن من النفس ، قويّ الحجة ، يَملِك من ناصية البيان ما لا أحسب أن قد ملكه بعده كثير . فهو لا يزال يُمهِّد على لسان هذا للرأى ، ويَفلَج بالحجة ، ويَبعَث بالشاهد فى عَقِب الشاهد ، ويضرب المثل بعد المثل ، حتى يأخذ عليك مخانق الطُّرق ، فلا تجد بعدها مَحيصاً من الإذعان والتسليم . ثم يبعث لك الطرَف الآخر ، فما يزال يدافع تلك الحجج ، ويَنقُض ما قام بين يديك من الأدلة والشواهد ، ثم ما يزال يَبريها ويَفريها حتى تَستحيل هباء يتفرّق فى الهواء . ثم يردّك إلى مكانك الأول ، ثم يعود بك إلى الثاني . ويَظَل يرجِّحك بين الرأيين المختلفين بقوة حجته ، وسَلاطة بيانه . حتى إذا قدَّر أنه دوَّخك وأرضى شهوته بإذلال ذهنك ، رحمك فعَدَل بك إلى حديث آخر !

ولقد عَرَض الجاحظُ فى كتاب (الحيوان) لمسائل من العلم ومن الحكمة ، وحلّل شيئاً من الطباع والأخلاق . بل لعله بالتكنية الغامضة والتورية البعيدة قد مسّ أشياء تَتّصل بحياة المجتمَع . ولكن لا تنس ، مع هذا ، أنه لا الجاحظ ولا ابن المقفّع ، ولا من نحا نحوَهما عَرَض لاصطناع القصة على النحو الذى كان يعرفه قدماء اليونان ونعرفه نحن اليوم . وكل ما طلبوه من هذا فيما أخرجوا من الكتب لا يَعدو أن يكون حِكَماً منثورة ، وعِظاتٍ جزئيةً لا ينتظِمها سَبَب ، ولا يَجمع بينها نَسَب . أما القصةُ بمعنى اختراع الأشخّاص ، وتمهيد المكان ، وابتكار الحوادث ، وخَلْق الوقائع ، ونَفْض الصفات على ممثّليها ، على أن يتّجه كل ذلك إلى غاية واحدة ، ويَدرُج إلى غرض معيّن ، فذلك ما لم يُعنَ به العرب ولم يتوجّهوا إليه

ولكن لا ينبغى لنا أن نُغفِل ، فى هذا الباب ، أمراً آخرَ له أثرُه وله خَطرُه : ذلك أن العرب ، وخاصةً فى عصر الدولة العباسية ، قد عُنُوا بِلَون من القصص،

وهو الحكايات القصيرة يُضيفونها إلى بعض الناس لتشهيرهم والعبَث بهم ، أو لمجرد التفكيه والترفيه بما يَتندَّرون به عليهم . وهذه الأقاصيص وإن عَرَضت فى بعض الأحيان لتحليل جانب فى نفس إنسانية ، فإن ذلك لا يتراءى إلى الغرض الذى تجتمع له القصة على ما كان يعرفه لها قدماء اليونان ونعرفه لها نحن اليوم

وعلى هذا كتابُ (البخلاء) للجاحظ . ولا أظن أن الجاحظ كان صادقاً فى أكثر ما روَى عن بخلائه . ولعله إن صدق فى أصل بعضٍ فقد غَلاَ فيه غُلوًّا كبيراً ! وعلى كل حال ، لقد كان الرجل فى تصويره وتخييله ، وتشبيهه وتمثيله ، بارعاً تامَّ البراعة ، رائعاً بالغ الروعة !

وهناك غير أحاديث (البخلاء) أحاديثُ فيها عجب وفتنة ، ما أحسب أكثرها إلاّ قد اختُرعت اختراعاً لا لشىء إلاّ للتشهير والعبَث . أو لمجرد التفكيه وإدخال السرور على نفوس الناس . ولعلى أُوفَّق يوماً إلى أن أعرِض طائفةً منها للقارئ الكريم

وعلى أىّ حال فإن أثر هذا اللون من القَصَص لا يجاوز التسليةَ والتفريج عن النفوس بالإتيان بالعجيب يَتعَاظم الأحلام

على هذا فهم العربُ القصة ، وعلى هذا اتخذوها . فنشأ القُصَّاص تُعدُّ لهم الحَلَق ليحدِّثوا الناسَ عن أبطال الحرب ، وعن أبطال الجود ، وعن أبطال الغرام ، وعن غير أولئك من الأبطال . وتجمّعت أحاديثُ (ألف ليلة وليلة) ، وبرزت قصةُ (عنترة) ، ووُضع كتابُ (قصص الأنبياء) ، وخرج كتابُ (بدائع الزهور ، فى وقائع الدهور) ، وكتابُ (سيف بن ذى يزن) . ثم استرسلت العاميَّةُ فى مصطفَى منظومها ومنثورها فى سيرة أبي زيد الهلالى وأصحابه ، واحتفلت الاحتفالَ كله لذكر وقائعهم ومَغازيهم وفُتوحهم ، وما يكون منهم ، إذا استحرّ القتال ، وتداعَى الأبطالُ للنزال ، فترى الواحدَ منهم يَقُطّ الأعناقَ عشرين وثلاثين بضربة من السيف واحدة ! . . . الخ

ولا زال الشعراء (وليسامحنا شوقى وحافظ ومطران و إخوانهم فى هذا التعبير فإنه الشائع فى السواد) . ما زال هؤلاء (الشعراء) يتخذون لهم مجالس عالية فى بعض المقاهى البلدية ليقصُّوا على العامّة سيرةَ أبي زيد وأصحابه فى ترتيل وتنغيم يوقّعونه فى لباقة ولطف أداء على (ربباتهم) . ولأولئك العامّة بهم ما شاء الله من افتتان ، ولهم ما شاء الله من التطريب على تلك الألحان !

على أن تأليفَ الحكايات فى العربية و إجراءها مجرَى الخيال لم ينقطع فى زمن من الأزمان . ولعل أبرز ما ظهر من ذلك أثناء هذه النهضة الحديثة كتابُ (عَلَم الدّين) للمرحوم على مبارك باشا ، و (حديث عيسى بن هشام) لمحمد بك المويلحى ، و (حديث موسى بن عصام) لأبيه ابراهيم بك ، عليهما رحمة الله . وما قام على ترجمته المرحوم عثمان بك جلال

ومن أوائل من وَضعوا القصة فى مصر ، بالمعنى المعروف ، أحمد شوقى بك (النضيرة بنت الضَّيزَن) ، وأحمد حافظ بك عوض (رواية اليتيم) . ولقد تَرجم المترجمون مع هذا فى هذا العصر من قصص الغرب ما لا يُحصى كَثْرَةً

وأما القَصص التمثيلى (الروايات المسرحية) فأول عهد العربية بها هذا العصرُ الحديث . وقد بدأت بالترجمة من لغات الغرب . وأولُ من عالج هذا فى الأمم العربية إخوانُنا السوريُّون ، لأنهم أولُ من عالج التمثيل المسرحى فى أبناء العرب. وأولُ ما شَهِدتْ مصرُ التمثيلَ المسرحىّ ، وكان ذلك فى عصر اسماعيل ، شَهدتْه من فِرَقهم التى هَبَطت مصرَ من ذلك العهد واحدة بعد أخرى . على أن تخلُّفنا فى هذا الباب عنهم يرجع إلى أسبابٍ لا محل لذكرها فى هذا المقام

و إذا كانت مادّةُ التمثيل إلى هذا الوقت هى ما يُترجَم إلى العربية من لغات الغرْب ، فإن كثيراً من أبناء العرَب عالجوا بعد ذلك الوضعَ والتأليف ، وكان من أسبقهم إلى هذا الشيخ نجيب الحداد و إسماعيل بك عاصم

ولقد كثر فى هذا الوقت الذى نعيش فيه واضعو القِصص التمثيلية ؛ على أنها فى جوهرها وغاياتها ومغازيها وسائر أسبابها لم تبلغ مبلغَ الروايات الغربية

وأخيراً تقدم أميرُ الشعراء أحمد شوقى بك ، فنظم روايتين (كيلو بترا وعنترة)(١) فأَوَ الشعرُ فيهما على الغاية

وكلتا القصتين تاريخية ، إذا رمت إلى غرض فلا شأن لنا به ، ولا دخل لعيشنا الحاضر فيه !

وهنا يَنبغى لنا ألاَّ نُغفِل أن مؤلِّفى روايات الريحانى والكسَّار ومن يَنحُون نَحوَهما فى أسلوبهما التمثيلى يَعرضون لنواحٍ من الحياة المصرية ، ولكن على سبيل التهكم عليها والزِّراية بها ، فى أساليب رشيقة طلية، طلباً لإضحاك النَّظَّارة والتسلية عنهم ؛ فإذا كان لشىء منها مَغْزًى بعد ذلك ، فهو مَغزًى ضئيل لا يتَّسق لما نخوض إليه من جِسام المطالب . هذا إلى أنها كلها تُفرَغ فى لغة عامية بحت ، فهى ليست من الأدب الذى نَعنيه فى كثير ولا قليل

و بعد ، أفلا يمكن أن يَستشرف الأملُ إلى أن يخرُج فينا مؤلِّفون مسرحيون يُضارعون كتَّاب الغرب فى سَبك رواياتهم ، و إمعانهم فى التحليل بطريق التخييل والتمثيل ، و إصابة الأغراض البعيدة وتجليتها على النَّظَّارة بطريق التلويح لا بالمواجهة والتصريح ؟ فذلك الأشحذُ للأذهان ، وذلك الأبلغُ موقعاً من النفوس . بحيث يكون موضوعُ هذه الروايات مصريًّا بحتاً يُصيب من عاداتنا ، و يحلِّل جوانبَ من حياتنا ، و يَهدينا فى بعض أسبابنا السبيل

أَلاَ ليس ذلك على الله بعزيز ! .

(١) وضع شوقى بك رحمه الله بعد ذلك قصصاً شعرية كثيرة .

فى الأدب

بين القـــــديم والجديد*

(١)

لقد كان يَتداخلُنى العَجَبُ كلما رأيتُ أن المتقدِّمين من أهل العلم والأدب إجماعٌ على تقديم شعراء الجاهلية عامّةً على الشعراء المولَّدين عامّةً . ولم يقع لى فيما طالعتُه من كتب الأدب ونقد الشعر والموازَنَة بين الشعراء ، مفاضَلةٌ بين شاعرين أحدهما جاهلىٌّ والآخر مولَّد . إنما تُعقَد الموازنةُ بينَ شاعرين وَقَعا فى الجاهلية أو بينَ شاعرين نَجما فى الإسلام . ولقد يعود هـذا إلى الإيمان بأن من حقِّ شعر العرب أن يرتفع عن أن يقايَس بشعر غيرهم من المولَّدين

ولقد قرأتُ شعر امرئ القيس والنابغة والأَعشَى ومن إليهم من المتقدمين ، وقرأت شعر بَشَّار وأبى نواس والبُحتُرىّ ومن إليهم من المتأخرين . فأجد لهؤلاء من نضارة الشعر ، ونصاحة القول ، وحلاوة التعبير ، وسَعة الخيال ، ودقة الأداء ، والتصرف فى فنون الكلام ما لا يَشيع فى كلام أولئك ، و إنما تَتلقَّطه من دواوينهم تلقطاً . فكيف لا يقوم فى شريعة الأدباء ، أحدٌ من أولئك بأحد من هؤلاء ؟

لقد تَداخَلنى العجبُ من هـذا حتى ظننت أنى اهتديت إلى سببه وعلّته : ذلك أن القوم قدروا هذا الشعر صناعةً عربيةً ، مَنجَمُها طبائع العرب وما تجرى به سجاياهم . فإذا تقدّم غيرُهم لقرض الشعر فهو مقلّدٌ لهم ومتشبهٌ بهم ومحتذٍ لمثالهم . وهو لا يَتوسَّل إليه بطبع ، ولا يجرى فيه على عِرْق . إنمـا هو متكلِّف متصنِّع . وليس يكون للمقلِّد مهما يوفِ على الإتقان شأن المبتدِع ، ولا للمتكلِّف مهما يعظمْ خطرُه شأو مَن ينضَحُ بالفِطرة ، ويجود بالطبع

* نشرت فى (السياسة) ضمن (ليالى رمضان) سنة ١٩٢٥

ولقد جرى الشعراء المحدَثون أنفسُهم على هذا وسلَّموا به . فكان الشاعر يخرج فى صَدْر شبابه إلى البادية فيقيم الحولَ أو الأحوالَ ليَحذِق اللغة ويحفظ الغريب ، ويتروّى أراجيزَ العرب وأشعارَهم . ويتعرّف أحوالَهم وأخبارَهم . ويُلِمّ بكلّ أسبابهم وفنون تصورهم وتخييلهم . ويُعنَى العنايةَ كلَّها بأسماء إبلهم وأوصافها وكيف يُنيخُونَها ، وكيف يبعثونها ، وكيف يَضربون أكبادها ، وكيف يسُوسون أولادها ، وكيف يُرعونها الأكلاء ، وكيف يُورِدونها مواردَ الماء ، وكيف يكون العلَلَ والنَّهَل ، وكيف يكون الخِمْس والسِّدْس . وغير هذا مما تحتفِل به أحاديثهم ، وتسير به أشعارهم ، حتى إذا رجَعوا إلى الحاضرة فقرضوا الشعر لمدح أو ذم أو هوى أو وصف أو غير هذا من مطالب الكلام ، ذكروا الأبل وكيف حدَوها ، وكيف قادوها بأشطانها ، وكيف أبركوها فى أعطانها . وأطالوا فى وصف مشيها بين وَخْد وخَبَب ، وتَزيدٍ وَرَسيم . وغير هذا من هيآتها وحركاتها وأوصافها مما تجده فى صدور أشعارهم . وإنما كان منهم هذا التكلُّف كلُّه ليتشبهوا بالعرب وليحاكوا بأشعارهم ما استطاعوا شعرَ العرب ، إذ كان مقدَّراً أن البلاغة فنُّهم ، وأن الشعر الأصيل ما قرَضوا هم وما نظموا . وهذا رُؤبة وهذا العجّاج الراجزان : لقد عاشا فى دولة بنى أُمية وأدركا حضارة دِمَشق ، وأصابا كثيراً أو قليلاً من مناعم تلك الحضارة . ومع هذا فإني أعوذ لى ولك بالله تعالى من أراجيزهما . وحَسبُك أن تنشُر بين يديك واحدة منها فتَعرِض كلَّ كلمة منها على معجمات اللغة ، حتى إذا واتتك وتوافت لك بحل طلاسمها ، وجلَت عليك مستغلق معانيها ، رأيت ذلك البلاء كلَّه (كما قال بعض شيوخنا) لم يعدُ وصفَ أتانة أو بعرِ قَعود ، أو هَملَجة بِرذَون . ولا يمكن ألاّ يكون رُؤبة والعجّاج قد رأيا شيئاً فى دِمَشق حقيقاً بالوصف ، ولا يمكن ألاّ يكون حِسُّهما قد وقع على معنى يحرك القريض . ولكنهما قد شُغِفا بالتبريز ، وظنّاً أن لن يتهيّأ لهما ذلك إلاّ إذا قالا وأسرفا ، على طريقة

العرب ، وحَبَسا قولهما على أسباب عيش البادية وتصرّف أهلها وخيالهم

وهذا أبو نواس، أفرأيت أحلى منه قولاً ، أو أبدع شعراً ، أو أدق وصفاً ، أو أقدر تصرفاً فى فنون الأغراض ، أو أشد استمتاعاً بكل وسائل الرّفاهِيَة فى صميم دولة بنى العباس ؟ أو إرفاداً للأدب بوصف كل ما وقع للشاعر من جليل الأمر وحقيره ؟ ومُستملَحه ومقبوحه ؟ حتى لقد كان الصدق فى الفن والحرص على دقة الوصف يتدليان به أحياناً إلى العامىّ المبتذَل من القول والمسترخِى الساقط من الكلام ، حتى يجلّى عليك الصورةَ كلها وينفُض على نفسك الحديثَ أجمعه . لم يَلِته بترك هَنَة أو إشارة قد يُفسدها أن تؤدَّى باللفظ الشريف — أفرأيت أن هذا كله إنما كان يتكلّف التبدّى تكلّفاً ويصطنع الغريب اصطناعاً حين يقول :

إليك ابنَ مُستَنّ البِطَاحِ رَمَت بنا ... مُقَابَلةٌ بين الجدِيل وَشَـدْقَمَ
مَهَارَى إذا اشرِعْنَ حَرَّ مفازَةٍ ... كَرَعْنَ جميعاً فى إناءٍ مُقسَّمِ
نَفَخنَ اللُّغَامَ الجَعْدَ ثم ضَرَبْنَه ... على كلّ خَيْشُومٍ نبيل المُخَطَّمِ
حَدَا بيرُمَا ينفكُّ من حيث بَرَّكتْ ... دَمٌ من أظَلٍّ أو دمٌ من مُخَدَّمِ

ويقول كذلك يصف ناقةً له وتَلعابَ ذنبها :

ولقـد تَجوبُ بِى الفَلاةَ إذا ... صَامَ النهـــارُ وقالت العُفْرُ
شَـدَنيّةٌ رَعَتِ الحِمَى فأَتَتْ ... مِلءَ الجِبَالِ كأنَّهـا قَصْرُ
تَثْنِى على الحاذَيْنِ ذَا خُصَـلٍ ... تَعْمَالُهُ الشزَرَانُ والخَطْـرُ
أَمَّا إذَا رَفَعَتْـهُ شَامِذَةً ... فَتَقُولُ رَنَّقَ فَوقَهَـا نَسْرُ
أَمَّا إذَا وَضَـعَتْهُ عَارِضَـةً ... فتقُولُ أُرْخِيَ فوقَها سِـــتْرُ

ولا تفوتنك قصيدته الطويلة السابغة التي مطلعها (وَبلدةٍ فيها زَوَر) وما أحسب أديباً في أيّ عصر من العصور الإسلامية قد تفهّمها واستوضح معانيها بغير كدٍّ ومطاولةٍ وتقليبٍ في معجمات اللغة وطول تنقيب !

وهذا هو أبو نواس الذي يقول مالا أستطيع أن أحدّثك به في صحيفة سيارة ضنًّا بالأدب العامّ ، والمتأدبون يقرأونه في مواطنه من تراجم أبي نواس ودواوين أشعاره . وكله سهل ليّن يقع فيه كما حدثتك العاميّ والمبتذَل والساقط من الكلام !

وإنما كان أبو نواس يجرى في هذا على السجيّة المرسَلة ، فيصف الأشياء كما ينبغي أن تُوصف ، ويُطلِق القول كما يجب أن يُطلَق . وإنما كان في تلك يتطبَّع ويتكلَّف ليشاكل العربَ حرصاً على معنى الشاعرية عند الناس ، وليظفرَ برضى أمثال أبي عُبيدة من حُفَّاظ لغة العرب ، وليبعثهم على الاحتجاج بكلامه . وتلك المنزلةُ كانت في الأدب تُجدَع دونها الأنوف وتُقَط الأعناق

ولستَ تجدُ دليلاً أَبْيَنَ ولا حجة أوضح على أن أبا نُواس كان في ذلك الشعر البدويّ متكلِّفاً متصنِّعاً لا يترجم عن شيء يجده هو ، من قوله نفسِه يَتهزّأ بمن يذهب هذا المذهب من الشعراء ويبالغ في السخرية منهم :

قُل لمن يبكى على رَسْمٍ دَرَس واقفاً ما ضَرَّ لو كان جَلَس ؟!
تَصفُ الرَّبْعَ ومن كان به مثل سَلمَى ولُبَيْنَى وخَنَس
اتركِ الرَّبْعَ وسَلمَى جانباً واصْطبِح كَرْخِيَّةً مثلَ القَبَس

وله في هذا الباب شيء كثير

وبعد فإن الحياة متحركةٌ غيرُ جامدة . والشعرُ لا يَعدُو أن يكون وصفاً لأمر واقع ، أو خيالاً ملفقّاً من أمر واقع ، أو إحساساً يَستمِدُّ كلَّ أسبابه من الأمر الواقع . فلم يكن في طَوق الشعر أن يَعشَى عن كل هذه الحضارة الواسعة التي تَبَسَّطت فيها دولتا بني أُميّة وبني العباس ، وأن يَظلَّ حَبْساً على ما جال فيه شعراء

الجاهلية ، على ما أسلفتهُ عليك . بل لقد مشى الشعرُ طَلَقاً مع الحياة ، فتناول كلّ ما أخرجَته الحضارة . فَافْتَنَّ في وصف القصور ورِياشها وآنيتها ، وجَوارِي البحر ووصف هَوَاديها وقَوَادمها ، وأزهار الروض وأنواره . ولكم جال فى وصف الخمر والطَّرَد . وقال حتى قال فى العلم نفسه . وتناول من ألوان المعانى والترجمة عن فنون الأَحساس ما جاشت به كلُّ تلك الأسباب

الواقع أن حياة الدولة العربيّة تطوّرت فتطوّرت معها لغتُها وأدبُها وشعرُها أيضاً ، ولم يكن إلى غير هذا من سبيل . إلاَّ أنها على عُظم هذا التطوّر لم تتنكّر لهجَاتُها ولا نَشَزَت عليها أساليبُها ، بل ظلّت على الدهر عربيّةً لها كلُّ مشخّصات لغة العرب ومميزات حياتها . وكان شأْنُها فى هذا شأنَ جميع الكائنات الحيّة ، تزيد بما يدخل عليها من جديد ، وتنقص بما يخرج عنها من قديم . إلا أنها تَظَلّ بكُلها هى هى ، لأن هيكلها وصِفَتها العامّة ومقومات حياتها الخاصة ما زالت هى هى .

ولقد خرجت الدولة العربيّة من بداوة مطلَقة إلى حضارة مطلَقة ، وتبدَّلت فى كلّ شيء عيشاً بعيش ، فدارجَتْها لغتُها البدوية ، وواتت حضارتَها العريضة بكل مطالبها فى غير رجَّة ولا مُطاوَلة ولا عُنف . والفضل فى ذلك يرجع إلى قوة اللغة وسعَتها ، و إلى حرص أصحاب اللسان وشعرائهم ، على وجه خاص ، على أن يُشاكلوا العربَ فى منطقهم ولهَجَاتهم ومنازع كلامهم . و إذا قلتُ العربية فلست أعنى مفرداتها فحسب . فلقد تقرأ الكلام لا يقع فيه إلاّ عربىٌّ صحيح ، وهو مع هذا ليس من العربيَّة فى كثير ولا قليل . و إنما أَعنِى فيما أَعنى الأسلوبَ وطريقةَ تأليف الكلام . وسنَعرِض لهذا المعنى فى كلامنا عن الجديد إن شاء الله .

ولقد ظلّ الشعراء دهراً طويلاً ، على تقلّبهم فى فنون الحضارة ، وافتنانهم فى ذكر أسبابها ، ووصفهم لمناعمها ، وهُتافهم بما جلّ ودَقّ من مُستحدَثاتها ، يجولون بالشعر أيضاً مَجالَ أهل البادية فى أُسلوب عيشهم وسائر أسبابهم . ولقد يكون هذا ضرباً من التكلّف كما ذكرت لك . ولكن الذى لم يدخله التكلّف ولم تَلحَقه الصنعة أن هؤلاء الشعراء من المحدَثين إنما كانوا يتصورون ، بوجه عامّ ، كما كان يتصور العرب ، ويذوقون مَذاقهم ، وينزعون فى مذاهب النظر والحسّ منازعهم . وليس هذا بعجيب لأنهم أبناؤهم ومواليهم ، وأبناء جيرتهم ، الناشئون فى دولتهم . ولهذا ترى أن الذّوق الشعرىّ العامّ واحدٌ فى العهدين ؛ وإن اختلف فيهما بالصنعة وإرسال الطبع ، وبخشونة عيش البداوة وضيق مجاله ، واتساع حياة الحضارة ولين أسبابها .

ولقد جاء المتنبى . والمتنبى من أفحل من حذَقوا لغة العرب وحصّلوا غريبَها ، وممن خرجوا إلى البادية ليتعلّموا لغة الأعراب ومنازع بلاغاتهم وطُرُق عَيشهم . فهو من هذه الناحية غيرُ مُتّهَم ، لقد طالما أخذ إخذَهم وجرى على سنتهم . ولكنّ للرجل عقلاً عبقرياً قد يسمو به عن هذا الأُفُق ويحلّقُ به فوقَ هذا المستوى ، فيدرك أشياء على غير ما أدركوا ، ويتصوّر أشياء على غير ما تصوروا ، فينحطّ بها إلى الشعر .

ولقد يَشْعُرُ بعقله لا بوجدانه ، فيجرى كلامه على منطق الفلسفة لا على منطق الشعر . ولقد يجازف فى إصابة المعنى الذى ارتصد له بأحكام البلاغة ؛ بل لقد ينشُز على قوانين اللغة نفسها ما يبالى فى كثير ولا قليل !

أتعرف موقع هذا من آراء علماء الأدب ونَقَدة الشعر ؟

لقد قال بعضهم فى غير تردّد ولا تحبُّس : إن المتنبى ليس بشاعر ألبتَّةَ !

وما كان هذا إنكاراً منهم لفضل المتنبى ولا جحوداً لخطَره . ولـكن لأن ما جاء به ليس من جنس ما يقوله الشعراء رعايةً لقوانين الأدب ، ومشاكلةً لمنازع لهجات العرب .

*
* *

ولقد أطلْت الحديث هـذه الليلة ، وهذا الموضوعُ الذى نعالجه يحتاج إلى حديث بعد حديث . ولعلَّنا نوفَّق غداً إلى غاية الكلام إن شاء الله !

(٢)

انتهى الحديث أمس بنا إلى أن قوماً من نَقَدة الشعر قالوا إن المتنبى على جَلَالة مَحَلِّه ، لم يكن شاعراً ألبتَّة . ولقد تجد لأبى الطيب فى بعض شعره من حسن النسج وقوة التعبير وسَطوة الكلام ما تجده فى شعر أبى تمام ، وهذا فى نحو قوله مثلاً إذ يصف الأسدَ وما كان من تعفير سيف الدولة له بسَوطه :

وَرْدٌ إذا وَرَد البُحيرةَ شارباً ... وَرَدَ الفراتَ زئيرُه والنِّيلا
متخضِّبٌ بدَم الفوَارِسِ لابسٌ ... فى غِيلِه من لُبدَتَيهِ غِيلا
ما قُوبلَتْ عيناه إلاَّ ظُنَّتا ... نارَ الثَّرَى تحتَ الفَريق حُلولا
يَطَأُ الثَّرَى مترِّفقاً من تِيهِهِ ... فكأنَّه آسٍ يجُسّ عَليلا
ألقَى فريستَه وبَرْبَرَ دُونَها ... وقَرُبتَ قُرْباً خالَه تَطْفيلا
فتَشابَهَ الخُلُقانِ فى إقدامِهِ ... وتخَالَفا فى بَذْلِكَ المأْكُولا
أمُعفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بسوْطه ... لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقولا ؟

ولقد كان المتنبي يَرِقّ فيقول فى مثل ديباجة البُحْتُرىّ ، حتى لتحسبه ينظم من زَهر الرَّوض أو من نسيم السَّحَر :

حَببتكَ قلبي قبلَ حبِّك من نأى وقد كان غدَّاراً فكُن أنتَ وافيا

* * *

يا أخت مُعتنِق الفوارس فى الوغَى لأخُوكِ ثَمَّ أبَرُّ منكِ وأرْحَمُ

وغير هذا وغير هذا تجده فى شعر أبى الطَّيِّب ، ولكنه من القليل أقلّ . أما سائر شعره فمن نَظم العقل لا من نَظم القلب ، ومذهبُه إلى صحة الفكر لا صحة الدِّيباجة .

ولقد حدثتك أمس أن للرجل عقلاً عَبقرياً قد يسمو به عن هذا الأُفُق ويُحلِّق به فوق هذا المستوَى فيُدرك أشياء على غير ما يجرى فى تصوُّر جَمهَرة الناس ، فَيَنحطّ بها إلى الشعر ضغطاً فى غير تزويق . وعلى هذا لا تقوى على احتمالها مثل ديباجة البُحترى ، وهى كما وصَفها بعضُ أصحابنا من « الدنتلا » فتتمزّق من دونها تمزيقاً . بل لقد تضطرب بجانبها قوانين البلاغة ، ولقد تنشُز على الذوق العامّ .

ولقد أرى أن الموضوع الذى نعالجه بهذه الأحاديث (القديم والجديد) لم يَنجُم اليومَ ولا فى هذا الجِيل ، وإنما نَجَمَ مع شعر المتنبي من قُرابة ألف عام .

على أن هذه المسألة لا يتهيأ حلُّها قبل الاتفاق على جواب هذه المسألة : ما الأدب ؟ ثم ما الشعر ؟

ولو قد تهيأت لنا معرفةُ حدِّها والاتفاقُ على تعريفها ، لما تعذَّر علينا حَسْمُ النِّزاع فى هذا الموضوع الذى نعالجه اليوم .

ولا أزعم أنى وقفت للأدب أو للشعر على تعريف وَقَع عليه اتفاق الأدباء كلِّهم أو أكثرِهم فى أىّ عصر من العصور. ولا أزعم أنى أستطيع أن أحدّ كلا منهما بالتعريف الجامع المانع ؛ فذلك منّى فوق الغُرور. ولو قد تقدَّمت له لصادرت أحد الفريقين على المطلوب ، لأن القضاء فى هذا تَسلُّف للقضاء فى ذاك .

ولكن هذا كلَّه لا يعنى أننا لا نلمَح وجهَ الخلاف ، ولو بصفة عامَّة ، بين أنصار القديم وأشياع الجديد . فلقد نلمَحه على الأقلّ من الخلاف بين من قالوا إن المتنبى أكبرُ شاعر ، و بين من ذهبوا إلى أن المتنبي ليس بشاعر ألبتة .

ولقد نستطيع أن نصوّر هذا الخلاف ولا نحدده . ولقد نصوّره بأن الشعر عند قوم لا ينبغى أن يتجاوز لهجةَ العرب وما كانت تستريح إليه أذواقُهم، وبحيث لا يَعْدو لغتَهم وقوانينَ بلاغاتهم . و يرى الآخرون أن الشعر كما هو مَظهرُ الشعور ينبغى أن يكون مَظهرَ حاجات العقل والفكر معاً . فليس من حقّ الديباجة ولا من حق الاسلوب المتخيَّر ولا من حق الذَّوق العربى أن تعترضها فى هذا السبيل .

وكذلك حدَّث فى الأدب عندنا : أهو مسألة عربيةٌ لغَوية ؟ أم هو المسألة الجامعة لكل مطالب العقل والتصوّر والخيال ؟ مهما تنحرف عبارتنا فى تصوير هذه المطالب عن أُسلوب اللغة ولهجاتها وديباجتها المرتَضاة ؟

والذى يُعظِم فى أَثر هذا الخلاف أن اللغة العربية قد رَكدت قروناً عدَّة انقَبض فيها أهلُها عن تقليبها و إجالتها فيما تُجِدُّ الأيامُ من فنون المعانى . وفى هذه المدَّة لقد انبعَث الغَرب وتحركت فيه علومٌ كثيرةٌ وفنون ، وسطعت من أُفقه فى العالم مدنيَّةٌ جليلةٌ تناولَت كلّ أسباب الحياة . ثم هبَبْنا نحن الآخرين من نومتنا الطويلة ، ونحن فى تثاؤبنا وفَرك عيوننا ، نبعث أَيمانَنا فإذا لغةٌ عظيمةٌ راكدةٌ فى الشرق من عدَّة قرون . ونبعث شمائلنا فإذا حَضارةٌ هائلة شَبَّت

فى الغرب من بضعة قرون . ولابدّ لنا لنأخذَ فى أسباب العلم والفنّ والقوّة ، ولنجاريَ هذا العالمَ فى حَضَارته ، من أن نطابق بين قديم الشرق وجديد الغرب ، ونعمّل على الملاءمة بينهما . وما كان ليتّسق لنا هذا ، إذا هو اتّسق ، بمثل هذه السرعة التى يقدّرها منا كثير ، فالمطلبُ ، فى الواقع ، حَقٌّ عَسير .

ولقد بدأ اتصالُنا الحديثُ بالغرب فى عهد منقذ مصر محمد على الكبير ، إذ أراد أن يَبعث العلمَ الحديثَ فى هذه البلاد ، فجاء له إلى مصر بمعلّمين ، وأشخَص إليه من مصر متعلّمين ، ومن ثمّ تُرْجمتْ عن لغاته كتبٌ فى مختلف العلوم والفنون لتُدْرّس فى معاهد مصر بلغة البلاد . فجاءت مَزْجاً من العامّية والعربيّة والتركيّة والإفرنجيّة المعرّبة ، ولم يكن إلى غير هذا من سبيل .

ثم جاء إسماعيل وبَعث الحركةَ العلميةَ فتُرجمت كذلك كتبٌ لم تُوَاتِها اللغةُ العربيّةُ ، ولم يكن من سبيل إلى أن تواتيَها بكل ما عَرَضَت له من أسباب هذه الحضارة .

وأُنشِئَت لِعهده مدرسةُ دار العلوم ، وقام على تعهُّدها المرحوم على مبارك باشا ، وأَتى لها بالأَفذاذ من أقطاب اللغة العربية ، مثل الشيخ حسين المرصفى ، فروّوا طَلَبتها أدبَ العرب ، ولقّنوهم مُتخيَّر شعرهم وفنونَ بلاغاتهم . فخرج منهم ناظورةُ العلماء فى اللغة والأدب العربىّ فى هذه البلاد ؛ وكانوا مُثار نَهضتها الجديدة فى هذا الباب .

إلاّ أن هذه النهضة ، مع شىء من الأسف كثير ، كانت عربيةً خالصة ، فلم تتّصل بالعلم الغربىّ الذى هو يَنبوع حضارتنا الجديدة ، ولم تلائم بينه و بين اللغة العربية فى كثير

و إنى لأَستطيع أن أقول إن العلم بَقِىَ فى ناحية ، و بقيت اللغة فى ناحية

أخرى . وظل الأدبُ عندنا يجول فى حفظ المعلقات السّبْع ، ولاميّة العَرَب ، وقصيدةابن زُرَيق ، و (أَفاطِمُ لو شهِدتِ بِبَطن خَبْتٍ) ، وفى رواية حادثة طَسْم وجَدِيس ، وحرب داحِس والغَبْراء ، وحرب الفِجَار ؛ وحفظ صَدْر من مقامات بديع الزّمان وأبى محمد الحريرىّ ، ونحو هذا وهذا . ويعيش أدبُنا بهذا دهراً !

ثم جاءنا الشّنقيطىّ ، وجاءنا اليازِجىّ ، وجعلا يَتسقّطان الأدباء والكُتابَ والشعراء فيما يَقع لهم مما لا يَجرى على قوانين الصَّرف ، ولا تُقرُّه معجَماتُ اللغة ؛ ودعت هذه الحركةُ الجديدةُ إلى أن يَشيع فى الناس كتاب (دُرّة الغوّاص ، فى أوهَام الخوَاصّ) للحريرى، وكتاب (لغة الجرائد) لليازجى ، يَستظهرهما المتأدّبون ، ويَرتصِدون للكتاب والشعراء يأخذون عليهم كلّ سبيل . فإذا قال كاتب : « أثَّر عليه » فلِأُمّه الهَبَل[1] ، إذ هى : أثّر فيه . وإذا قال شاعر « طبيعى » فما أجهلَه وما أقصَر علمَه، فإن النسبة إلى « الطبيعة » طَبَعى لا طبيعى ، ويخرج ذاك غيرَ كاتب مُطلقاً ، وهذا غيرَ شاعر ألبتّة ، وهل يكون شاعراً أو كاتباً من يُسِفّ هذا الإسفاف ويَسقُط كلّ هذا السقُوط ؟ !

أما اللغة التى تُوانِى حاجات العلم وحَضارة العَصر ، فلم يكن لها أىّ حظٍّ فى تلك النهضة ، إذا صح هذا التعبير ، إذا استثنينا جمعيةً أو مؤتمراً لغويًّا عَقَده السيد توفيق البكرى فى داره ، ودَعَا إليه أئمةَ اللغة والبيان ، فتمخّض عن عَشْر كلمات عربية تَصلُح للتعبير عن أغراض حديثة ، فوقع من نصيب (التليفون) : المسرّة . ومن حظ (البسكليت) : الدّرّاجة ؛ ومنها ما أخذ الأدباء به ومنها ما أهملوا. ولست أُخفى عليك أن حاجة العلم والفنّ قد امتدّت من ذلك التاريخ وحدَه إلى عشرة آلاف كلمة أو تزيد !

---

(١) الهبل بفتحتين : الثكل

والعَجبُ العاجبُ مع كل هذه العناية باللغة أن القائمين بالنهضة في ذلك العهد لم يُعنَوا حتى بأساليب اللغة ولهجتها وذَوقها . بل لقد حَبَسوا كلَّ عنايتهم على مفرداتها . وقد قلت لك أمس : « إني إذا قات العربيةَ فلست أَعنى مفرداتِها فحسب . فلقد تقرأ الكلام لا يقع فيه إلاَّ عربيٌّ صحيحٌ ، وهو مع هذا ليس من العربية في كثير ولا قليل ، وإنما أَعنِي فيما أَعنِي الأُسلوبَ وطريقةَ تأليف الكلام »

وتقدّمتْ نهضتُنا اللغويةُ حقًّا ، كما تحرّكت رغبتُنا في العلم حقًّا . فعَكَف ناسٌ على اللغة يحفِظوا مفرداتِها ، وفَتحوا أذواقَهم للهجاتها وأساليبها ؛ كما عَكَف ناسٌ على علم الغرب ، فاطلعوا عليه واستَشرفوا له ، ورغِبوا رغبةً صادقةً في أن يَرجِعوا به إلى قومهم ، ويُلَقُّوه مَعشَرَهم في لغتهم . إذ اللغة ، أو إذ عِلمُهم باللغة ، أو إذ هما معاً لا يَستطيعان أن يُواتيا كلّ أغراض العلم ، وإذ العلم لا يَرضَى أن يُذالَّ لأساليب اللغة أو إلى الأساليب التي لا يَستريح إلا إليها المتَصدُّون لحفظ اللغة ، فعندنا قوم يُحبون أن يُخضِعوا العلمَ للغُـة ، وعندنا آخرون يُريدون أن يُخضِعوا اللغةَ للعلم ، وهذا أصل الخلاف ومَنجَم الشقاق

ولقد تَبسَّطَ بيَ الكلام إلى الحد الذي لم أكن أقدِّره ، إذ وعدتك أمس بأني مُوفٍ على غايتي في حديث اليوم ، فانتظرني إلى غد ، واعذرني إذ أُطيل عليك هذا الحديث

(٣)

ذهب عني وأنا أَعرِض عليك في مقال أمس تلك الصُّوَر التي اضطرب فيها الأدبُ العربيُّ في هذا العهد الحديث ، أن أُلِمَّ بصورة كان لها أثرٌ في نهضتنا الأدبية ، ولا يزال لها فيها أثرٌ غيرُ ضئيل . فلقد أخذ شبابٌ من أذكياء شبابنا

بحظٍّ من لغات الغرب و تروّوا أدبَه واستظهروا من شعر شعرائه ، وجاشت نفوسُهم بكثير من معانيهم وأخيلتهم ، وفنون استعارتهم وتشبيههم ؛ وكان لهم كذلك حظ غيرُ قليل من أدب العرب ، واستظهار كثير مما نضحت به قرائح شعراء الصدر الأول ؛ ولقد حفزوا عزائمهم لِيَصلوا أدبَ الشرق بأدب الغرب ، أو ليجلُوا فى ديباجه البُحتُرىّ ما قال شكسبير ، فنظموا كذلك وترسَّلوا . ولكن كان هذا المَرامُ فوق مَناط الطبيعة ، نخرج كلامٌ لا ترضَى عنه أساليب العربية ، ولا تستريح إليه أذواق المتأدبين .

على أن أُولِي هذه النهضة أنفسَهم قد فطَنوا إلى ما فى هذه الوثبة الهائلة من شديد الخطر على لغة العرب ، إذ أنها لا تَستبقى منها إلا ألفاظاً تُحشَر إلى ألفاظ ، أما رَونقها وأما بَهجةُ أُسلوبها فقد يُدركها العفَاء . فرجَعوا إلى اللغة يبعثونها فى رفق وفى لين ، ولا يحمِّلونها من بلاغة الغرْب إلا ما كان أشبهَ بذوقها ، و إلا ما صقلوه بِصِقالها ، فدار فى أساليبها لا نابياً ولا مُتعصِّياً .

على أن هذا النوع من البيان قد تسرّب إلى المسارح و إلى بعض الآثار المترجَمة أو المنشَأة ، فلا زلنا نسمع ونقرأ « الموت البنفسجى — وضوء القمر الطّرىّ — والصخرة المدمدِمة — والزهرة الفيلسوفة — واضطراب الشيطان فى نسيج عنكبوته » ! ! !

ونعود بعد هذا إلى ما كنا بسبيله ؛ ولقد قرأت رسالة صديقى الدكتور هيكل فى صحيفة الأدب التى خرجت بها السياسة أمس ، و بين فيها رأيه فى القديم والحديث ؛ و إنى لاوافقه على كل ما قاله فى جملته وتفصيله ، وأُعلن فوق هذا إعجابى بدقّته واعتداله وصحة حكمه .

و إذا كان المقام يحتمل مزيداً على ما كتَب ففى بعض التفصيل .

ولقد عرفتَ أن عندنا أنصاراً للقديم وأنصاراً للجديد . أما أولئك فالذين يَرَون بوجه عامّ أن الأدب مسألةٌ عربية لغوية ، فما جاءنا عن العرَب وما انتهى إلينا من بلاغة الصدْر الأول والذين يَلُونهم إلى عهد انقباض اللغة هو الأدبُ لا غيرُه . وأما هؤلاء فلا يَرَون إلاَّ أن الأدب هو الوَفَاء بحاجة العقل والفكر والتصوّر والشعور ، وأن اللغةَ وأساليبَها ليست إلا أداة لها وظَرفاً . وثمرةُ هذا الخلاف تَظهر ، كما حدَّثتُكَ أمس ، فى أنه إذا لم تَتَوافَ اللغةُ لـكلٍّ تلك الحاجات فأيهما ينبغى أن يَخْضَع للآخر ؟

ونحن حين نتحدَّثُ عن أنصار القديم وأنصار الجديد نَبْرُ الحقيقةَ ونظلم الواقع إذا نحن نظمنا كلّ فريق فى صفٍ واحد . فإن أنصار القديم يَبتدئون بقوم لم يتَّصل لأدبهم حسٌ بحَضَارة القرن العشرين ، ويَنتهون بقوم قد اتَّصل شعورهم بكل ما حولهم . وإنك لتراهم يَستشرِفون لـكل ما يلامِسُهم من فنون الحضارة وحاجات العقل والتصوّر فى هذا العصر ، ويشكونه بالترجمة والتعبير ما استطاعوا بشرط ألاَّ يَنبو عنه الذوق العربى ولا تَشمُس عليه أساليب الـكلام. وأما الآخرون فيتهون بطائفة لعلها لا تَلمَح شيئاً من بهاء هذه اللغة ورَونقها ، ولا ترى لديباجتها وأسلوبها حقًّا ولا كرامة . وأولئك الذين لا يقع لـكلامهم من العربية إلاّ مفرداتُها ، ولـكن بيانهم نفسه ليس من العربية فى شىء أبداً !

ولعلّه لا يَشُق على الفريقين أن يُسقطا ذينك الطَّرَفين من حساب هذا الخلاف ، فيَدَعا أولئك مزمَّلين بِشَمَلاتهم ، ظاعنين على عِيسِهم ، حتى إذا « وَخَدَت » بهم يوماً فى شارع عِماد الدين صدمها « المترو » صدمة جعلتها وجعلتهم « أنقَاضاً على أنقَاض » ، ويَدَعا هؤلاء فى رَطانتهم وعُجمتهم ، فإلى المالِطية غايتُهم وبئس المصير !

وبعد أن يَنفُض الطرفان أيديهم من تراب أولئك وهؤلاء لا يبقى إلاّ قومٌ تفقّهوا فى لغة قومهم، وحَذَقوا أساليبَها، وهم مع هذا دائمو الاستشراف لما تطلع به الحضارة الحديثة من علمٍ وفنّ، حِرَاصٌ على أن يَشُكّوه بلغتهم ويَنتظِموه ما استطاعوا فى أساليبها النّصاح، وقوم حَذَقوا العلم والفن يحبّون أن يَجلوهما على قومهم بلغة العرب؛ فهم دائمو البحث والتّقرّى، علّهم يَعثُرون بين محكَم صِيَغها وروائع تعبيراتها على ما يمكّنهم من أن يحمِّلوه رسالة العلم الحديث

وهذا هو الواقع والحمد لله. وإن من حقّنا أن نَغتبط كلّ الاغتباط بهذه النّهضة الكريمة، نهضة العلم والفنّ الحديث، تُجاولها نهضةُ اللغة والأدب القديم. ولن يخرجا من هذه الحرب إلاّ إلى الصُّلح والسلام، ولن يُفضىَ بينهما هذا الخلاف إلاّ إلى الوِفاق والوِئام

سيقول فلانٌ من أنصار الجديد: إنى ليَعتلِج فى نفسى معنًى لا أستطيع أن أنفُضه فى ديباجة عربية صحيحة. وسيُبادره فلانٌ من أنصار القديم بأن هذا أو قريباً منه قد وقع فى تعبير المتقدّمين فهاكه. وبهذا يحيا الأدب وتحيا اللغة معاً

* *

لم يَبق من مواطن الإشكال إلاّ فيما لم يُعِن فيه القديم على الوفاء بأداء الجديد، ولا شك أن أكثر هذا أو كلّه من مستحدَثات العلوم والفنون. وكيف الحيلةُ فى هذا، وما عسى أن يَرى فيه أنصار القديم؟ أيَرون أن يَلينوا بقديم لغتهم حتى يتّسع له؟ أم يَرون أن يُذادَ جملةً ويُدافع ألبتّة حتى لا يقع للعربية ما يُفسد كرائم مفرداتها ويذهب بأساليبها النّصاح؟ وكذلك تُكتَب الفُرقة بين العلم والعربيّة إلى غاية الزمان!

وتلك مسألة لا يحلها إلاّ الزمن ، وسيكون الفوزُ فيها للأنفع على كلّ حال[1]

على أن الحيـاة مُتحرِّكة والمعانى تُستَحدَث فى كل يوم . ولا بدّ للعلماء والأدباء من أن يقولوا ، وهم يقولون فعلاً ، وهم يؤدُّون أغراضَهم بما يَتهيأ لـكلّ منهم من فنون الـكلام . وهنا لا يسعنى إلا أن أذكر بالخير كلّه أنصار القديم ، فلولا غَيْرتُهم وحرصُهم على لغتهم ، واستظهارُهم لبدائعها ، وتعصّبِهم لـكل مُنحرف عن قوانينها ، ناشز على أساليبها ، لعفَت اللغةُ ، وتبلبلَت الألسنُ ، وتشعّبت اللهجات ، وأضحى هذا التراث الجليل أثراً من الآثار ، وبخاصّةٍ فى هذا العصر الذى هجمت فيه حضارةُ الغرب على أهلِ الشرق من كل مكان

ومهما يكن من شىء فإن من أفحش الظلم أن يتدلّى أنصارُ الجديد بمعانيهم فى ألفاظ وصِيَغ لا تستقيم لِلُّغة إذا كان فى فصيح العربية ما يُغنى فى أدائها كاملة غير مَوتورة . وأحسب أن هذا موضِـع اتفاق بين الفريقين . وأرى أن حركتنا فى هذا الباب مرضية ، بقدر مّا ، إن لم تـكن كاملة . فاللغويّون يَعرِضون ، والأدباء يستظهرون ، والمترجمون يتحرّون ؛ ولغتنا كل يوم تتبسّط لتتناول مختلف الأغراض

أما ذلك الإشكال الذى أسلفتُ الـكلام فيه فـكأنى بصديقى الدكتور هيكل قد فطَن إلى أنه لا يمكن أن يحل بجهد الجماعات . فلقد جرّبَت مصرُ لهذا الغرض نفسه جمعية بعد جمعية ، و بَلَت مؤتمراً بعد مؤتمر ، فلم تَظفَر اللغةُ منها كلّها إلا بخذلان . فالتفتَ بالأمل إلى جهد النوابغ الأفذاذ ، وفى الحق إننا مدينون بكل نهضاتنا ، والأدبية منها بوجه خاصّ ، لجهد أولئك النوابغ الأفذاذ

وقد ردّ الدكتور هيكل سببَ انصداع المتأدبين إلى أنصار قديم وأنصار

(١) كتب هذا الموضوع قبل إنشاء المجمع الملكى للغة العربية ، وقبل أن يقرر ما قرر فى هذا الباب

حديث إلى أن « مثل هذا الخلاف يرجع إلى قيام طائفتين اختلف تهذيب كلٍّ منهما، واختلفت ثقافتها عن الأخرى ، فتعذّر عليهما التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والأدب . ولن يزال هذا الخلاف ما بقي الاختلاف بين الطائفتين في التهذيب والثقافة ، وما بقيت الأمة في علمها وأدبها كَلاًّ على سواها وعالةً على غيرها » اهـ

وهذا كلام صحيح . وإن من يُمن الطالع أنه فى الوقت الذى تدور فيه هذه المناقشة تأخذ وزارةُ معارفنا أُهبتها لأنشاء جامعة تضم إلى كليّاتها العظيمة كليّةً للآداب خاصة . ولا شك فى أنها ستُروِّى طلبتَها آداباً من آداب أمم الشرق والغرب ، ولكن مِلاك الأدب فيها ومادّته وأساسه لن تكون بالطّبع غير العربية . فليطمئنّ صديقى ، فلن نلبث طويلاً إن شاء الله حتى نظفرَ بأدبنا القوميّ ، فلا نكون عيالاً على غيرنا . وحتى تتقارب مذاهبُ أنظارنا باتحاد ثقافتنا ، فلا يرى بين ناشئتنا الجديدة — على الأقل — ما يرى بيننا نحن من فرقة فى قضية الأدب وانصداع .

فلننظر المستقبلَ فى غِبطة وأمل وارتياح

كيف نبعث الأدب*

وكيف نتروّاه ؟

(١)

عرض وجلاء تاريخ :

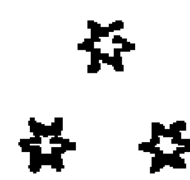
لا شكّ فى أن من أهمّ نهضاتنا التى نتواثَبُ فيها الآنَ ومن أبرزها نهضةُ الآداب : فلقد زاد عددُ المُقْبلين على الأدب العربىّ والذين يُعالجونه فى هذا العصر بقَدْرٍ عظيم ، كما أُعليَت مكانتهُ ، وأُبْعدتْ أغراضُه ، وتلوّنتْ فنونُه . وبعد أن كان يَضطرِب فى أضيق مُضطَرَب ، ويَتقلّب فى أفْسل المعانى ، ولا يَستشرِف إلاّ للضّئيل التّافه من الغايات : من المديح الوضيع الذليل ، ومن الغَزَل المصنوع المتكلَّف ، ومن فخر مكذوب لا يَمُتُّ إلى مَفاخر العصر بسبب ، ومن وَصفٍ مُفترًى على الطبيعة ، فلا هو مما يَنتظِمُ الواقع ، ولا هو مما يَخلع عليه الخيالُ الصَّناعُ صورةَ الواقع ، ومن هَجوٍ تُتلقَّط فيه المعايبُ والمقاذيرُ من هنا ومن هنا لتُعفَر بها وجوهُ الناس عَفراً . ونحو ذلك مما كان يجول فيه الأدبُ فى الجيل الماضى ، على وجه عامّ ، وتتجرّد فى طلبه والتشمير له جَمهرَةُ المتأدّبين . على أنه لم يكن له أىُّ حظّ من وجدان ولا من جَيَشان عاطفة ، وكيف له بهذا وهو لم يَذْكُ له حِسّ ، ولم يَخفِق به قَلب ، وإنما أمرُه إلى حركة آليّة لا تكاد تعدو فى مَذهَبها تلك الحركةَ التى تَنبعث بها الصّناعاتُ اليدَوية . إلى أنّ تلك المعانى ، إذا صدق أن مثل ذلك مما تُطلق عليه كلمةُ المعانى ، كانت ، فى الكثير

---

* نشرت فى مجلة الرسالة العدد ٩٠

الغالب ، تُجلَى فى صُوَر مُترهِّلة مُتزايلة ، لا يقوّى بناءها أو يشدّ مَتنَها شىء من جزالة اللفظ ومَتانة الرّصف ، وتلاحُم النسج ، ولا يَجتمع لتزيينها وتبهيجها شىء من حُسن الصياغة و إشراق الدِّيباجَة وجَمال النظام !

ولقد قَيّدتُ هذا (بالكثير الغالب) لأن ذلك الجيلَ الماضى لم يَخلُ من كتّابٍ ومن شعراء أغلَوا حظّ الأدب ، ففسَحوا فى أغراضه ، وأبعدوا فى مطالبه ، وحلّقوا بمعانيه ، وأبدَعوا فى البيان ، فاتّسَق لجلالة المعانى شرفُ اللفظ ، و براعةُ النظم ، و إحكامُ النسج . وكذلك استوَى من المنظوم والمنثور كليهما كلامٌ يترَقرق ماؤُه ، ويَتألّق سَناؤُه . ورحم الله إبراهيم المويلحى و إبراهيم اللقانى وأضرابهما فى الكتّاب ، ومحمود سامى البارودى و إسماعيل صبرى فى الشعراء ، فقد هَدَوا إلى حُسن البيان السبيل .



و إذا كان الأدبُ يَتمثّل لأدباء هذا الجيل فى صورة أبدعَ وأروعَ من الصورة التى كان يَتمثّل فيها لسلَفهم القريب ، كما أدركوا هم أن له مهماتٍ أوسعَ أُفقاً وأبعدَ مَدًى من تلك التى كان يَدور فيها فى ذلك العهد ، حتى لقد أصبح يَتقلّب فى جُلّى أسباب الحياة ، بل لقد تَجاوز أو كاد يَتجاوز أُفقَ الكماليات البَحت إلى موطن الضرورات فى الحياة الاجتماعية — إذا كان المتأدّبون قد أصبحوا يُحِلّون الأدبَ هذا الموضع ، ويَتمثّلونه على هذه الصورة ، فذلك لأنهم طالعوا أدبَ الغرب ورأوا ما يتصرّف فيه من مختلف الفنون ، وما يتجرّد له من جسام المطالب .

لقد أصبح الأدبُ وسيلةً من وسائل تنعيم النفس وتلذيذها بما يَجلُو عليها من صُورِ الجمال ، و بما يُرهِف من الحسّ حتى يتفطنَ من ألوان المعانى إلى كل دقيق و إلى كل بديع ، كذلك لقد تبسّط الأدبُ واستَرسَلَت آثاره إلى كثير من

الأسباب العامة ، على ما تقدمت الإشارةُ إليه ، فعظم بذلك أمرُه وجلّ في عَيش الحضارة خَطبُه ، وكذلك أضحى للبارعين من أهله فى الغرب من الشأن ما لا يكاد يوصَل به شأن

ولقد زعمتُ لك أن الذى بعث تقديرَ أبناء العربية للأدب هذا المبعث ما جُلىَ عليهم من أدب الغرب، وما طالعوا من بعيد آثاره فى شتّى الأسباب ، فراح كثيرون منهم يتأثرونه ، و يتصرّفون بالبيان فى مثل ما يتصرّف فيه من مختلف الفنون . على أن كثيرين من هؤلاء الكثيرين قد انقطع جهدُهم دونَ هذه الغاية ، فلم يظفروا من الأمر بجليل . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أنهم ، فى غالب الأحيان ، إنما يَنقُلون إلى العربية ما يتهيأُ لهم نقلُه من آداب الغرب على الصورة التى يستوى فيها لأهله ، لا يحاولون ، أو لعلّهم يَعجِزون إذا هم حاولوا ، أن يَطبَعوه على ما يَألَفه الخيالُ الشرقىّ ، و يستريح إليه الذوقُ العربىّ ، وتَسلَسُ له بلاغات العرب !

ولقد يكون هذا من أثر الافتتان بأدب الغرب ، والتجرّد فى محاكاته وتقليده من جهة ، وقلة المحصول من فقه العربية ورقةِ الزاد من ألوان بلاغاتها من جهة أخرى

و بعد ، فما نحسب أن هناك من يُنكر على الأدب العربىّ جليلَ خطره فى عهد الجاهلية وفى قيام الدولة العربية فى الشرق والغرب ؛ وأنه كان ، فى الجملة ، يؤدّى من مطالب الحياة ما يؤدّيه الأدبُ الغربىُّ اليوم ، وأقول (فى الجملة) لأن الأدبَ قد تشعبتْ فى هذا العصر فنونُه ، وتطاولت آثارُه إلى كثير لم يُلتَفَت إليه فى الزمان القديم ، ولعله لو ظَلّت دولةُ العرب قائمة ، وظلت حضارتُهم فى اطّرادها ، ما تقاصر اليومَ عن شأو الأدب الغربىّ ، بل لعله كان يَسبِقه إلى كثير ! ولو قدعُنِى النَّشء من متأدّبينا بدراسة هذا الأدب ، وخاضوا فى أمهات كتبه ، وأطالوا تسريح النظر فيما أُثِر من روائعه ، لرجعوا إلى نفوسهم بأنه أدبٌ عظيم كلَّ عظيم ، أدبٌ

يمتع حقًّا و ينعّم الروح حقًّا بما يَنفَض من عاطفةٍ مُعتَلِجة، و يصوّر من دقيق حسّ، و يتدسّس الى ما استكنّ فى مَطاوِى الضمير؛ الى ما أصاب من المعانى البارعة، وما تَعلّق به من الأخيِلة الرائعة، وما تصرّف فيه من كل دقيق وجليل فى جميع الأسباب الدائرة بين الناس. ما ترك جليلاً من الأمر ولا دقيقاً إلاّ مَسّه وعَرض له وعالجه بالتصْوير والتلوين، وكلّ أولئك يصيبه فى مصطفى لفظ، ومُحكَم نَسج، وبارع نظم، ودقة أداء، وحلاوة تعبير!

على أنّ الأدبَ العربي، مع هذا، طالما جال فى بعض الأسباب العامّة وساهم فى الأحداث السياسيّة والقوميةِ والمذهبية بقدر غير يسير؛ ومهما يكن من شيء فهو أدبٌ واسعُ الغنى، رفيع الدرجة؛ بل إنه لَمِنْ أغنى الآداب التى قامت فى العالم ومن أعلاها مكاناً.

والواقع أنه قد انقبض بانقباض الدُّوَل العربية وضَعُف بضعفها، فجعلت تضيق أغراضُه، وتتواضعُ معانيه، ويَجِفُّ ماؤُه، ويَتجلجَل بناؤُه، حتى صار الى ما صار اليه، وظل عاكفاً عليه، إلى ما قُبَيل نصف قرن من الزمان.

ولا يذهب عنك أنه فى فَترة انقباضه الطويلة قد انبعثت فى الغرب حَضارةٌ جديدةٌ جعلت، على الزمن، تَنبسِط وتتناول وسائلَ الحياة دِراكاً حتى بلغتْ شأواً بعيداً. ومما ينبغى أن يُلتفتَ اليه أشدَّ الالتفات فى هذا المقام، أن هذه الحضارة أوْلَتْ أجلّ عنايتها للشُّئون المادية، فكان حظ العلوم الطبيعية والكيميائية منها عظيما، فاستُكشِفت أشياء كثيرة، واختُرِعت أشياء كثيرة، حتى كاد الإنسان لا يتناول شأناً من شئون الحياة إلا بسبب طريف. وبذلك كثُرت الآلاتُ الماديةُ كثرةً تفوق حدود الوصف، وهى تطّرد فى الزيادة كل يوم،

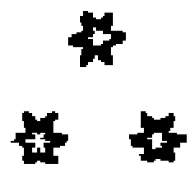
إذِ اللغةُ العربيَّةُ جاثمةٌ فى أُفحوصِها[١] لا تمتدّ بالتعريف عن هذا ، إذا هى امتَدّت ، إلا إلى قليل ، بل إلى أقلّ من القليل !

ولقد كان من آثار فقر العربية فى هذا الباب أنها حتى بعد نهضتها الأخيرة لَزِمَت فى بيانها دائرة الأدبيات لا تصيب من المُحَسَّات المادية ، إن هى أصابت ، إلا فى حَرَج وفى عُسر شديد ! وكيف لها بهذا وليس لها به عهدٌ قريبٌ ولا بعيد ؟!

وإذا كانت الحاجة تَفتُق الحيلة كما يقولون ، فقد بعثت النهضةُ العلميةُ فى عهد محمد على الكبير رفاعةَ وأصحابه إلى أن يَنفُضوا قديم العربية لعلهم يجدون بين مفرداتِها وما أُثِر فى كتبها من المصطلَحات العلمية والفنية ما يَدلون به على ما استوى لهم من جديد فى العلوم والفنون . فإذا أصابوا هذا وإلا عمَدوا إلى الوسائل الأخرى من النحت والاشتقاق والتعريب . وإذا كان قد اجتمع لهم فيما نقَلوا إلى العربية من علوم الغرب وفنونه صدرٌ محمود ، فإن ذلك أصبح لا غَناء فيه ولا سداد له ، بعد إذ فَترت تلك النهضةُ وخَبت جَذوتُها بعد ذهاب مُذكيها المرحوم محمد على الكبير ، على حين تطّرد العلومُ والفنونُ فى تبسُّطها حتى لتَخرُجَ على العالم كلّ يوم بجديد . وهذه الحاجة الملحّة ، والتى يشتدّ إلحاحُها ويتضاعف كلما تراخت الأيام ، لقد كانت تبعث جماعات الفضلاء الفَيْنةَ بعد الفَيْنة الى تأليف الجمعيات للبحث والنظر فى تحريك لغة العَرب حتى تستطيعَ أن تتوافى لمطالب الحضارة الحديثة . على أنه لم يُقدَر لها النجاح لأسباب لا محل لذكرها فى هذا المقام . فلم يَبق بدٌّ من أن تضطلع وزارةُ المعارف بالأمر ، وبعد لأْىٍ قام (المجمع الملكى للغة العربية) ، نسأل الله تعالى أن يُمِدّه بروحه ، ويُعينه على مهمّةٍ جليل المشقة جليل الآثار ، وأن يَهديه إلى أقوم سبيل !

---

(١) الأفحوص : الموضع الذى تفحص القطاة التراب عنه ، لتبيض فيه . والجمع : أفاحيص .



لقد استطرد القلم من حديث الأدب إلى حديث اللغة ، وماله لا يفعل واللغة مادّتُه وملاكه . وإذا كان أجلُّ همّه الى المعنويّات فليس له عن هذه المادّة غناء ، بل لقد تكون وسيلتَه وأداتَه حتى فى التعبير عن أخفَى العواطف وأدقّ خلَجات النفوس ، على أن أهم ما يَعنينا من هذا البحث إنما هو حَيرة الأدباء ، أو على تعبيرٍ أضبَط ، حَيرة بعض من يعانون الأدبَ فى هذا العصر ، وذلك أن فى مأثور العربية أدباً غنياً سريًّا ، وَافَى سلفَنا العظيمَ بمطالب الشعور ومطالب الحضارة جميعاً . على أننا نعيش الآنَ فى حضارةٍ غيرِ حضارتهم ، ونُعالج من وسائل الحياة غيرَ ما عالجوا ، ثم إنه مهما تطبعنا الوراثةُ على طبعهم ، وتنضَح علينا من أذواقهم وشعورهم وغير ذلك من خلالهم ، فإن مما لا شك فيه أن لتطاوُل الزمن ، وتغيُّر البيئات ، وتلوّن الحضارات ، وما يجوز بالأقوام من عظيمات الأحداث أثراً قد يكون بعيداً فى كل أولئك . وأنت خبيرٌ بأن الأدبَ الحق إنما يتكيّف بما هو كائن ، ويُترجِم عما هو واقع(١) . ومن هذا تجد كل أدب حىّ متحرِّكاً فى تطور مستمر طوعا لتطوُّر العوامل والأسباب . ولست تلتمس دليلا على أن الأدبَ العربىَّ إنما كان كذلك فى حياته القوية بخير من أن تستعرض شأنه فى الجاهلية ، وتقلبه فى جميع الدول العربية فى العصور الإسلامية ، فلن تخرج من هذا إلا بأنه قد تأثر فى كل عصر وفى كل بيئة بقدر ما تغيَّر على القوم من مظاهر الحياة .

ومعنى هذا الكلام أن الأدب العربىّ ، فى أى عصر من عصوره الخالية ، مهما يجلّ قَدرُه ، وتعظُم ثروتُه ، لا يمكن أن يُغنينا الآنَ فى كثير من مطالب الحياة

(١) قد يحاكى الشاعر أو الكاتب لأمر ما ، أدب السابقين ، وقد يعمد إلى تصوير عواطفهم وخلجات نفوسهم حتى كأنه يجدها ويشعر بها على نحو ما شعروا ، وأكثر ما يقع ذلك فى الأدب القصصى ، على أن الأديب فى هذا مستعير لا أكثر .

إذا نحن اتخذناه على حاله ، ولم نَعدُ ما كان من صُوَرِه وأشكاله . و إلا فقد سألنا الطبيعةَ شططاً . فهيهات للساكن الجاثم أن يَلحق المتحركَ السائر .

وهناك أدبٌ غربيٌّ دارَجَ الحضارةَ الحديثةَ وسايَرَها خطوة خطوة ، واتّسع لكل مطالبها ، وواتاها بجميع حاجاتها فى غير مشقّة ولا عناء ، ولا يذهب عنك أننا إنما نتأثّر الغربَ فى ثقافته وعلومه وفنونه وسائر وسائله ، وهذه سبيلُنا إلى ما نَستشرِف له من التقدم ومشاكلةِ الأقوياء ، ولكن هذا الأدب الغربىّ الذى نُقبل على محاكاته فيما نُقبل عليه من آثار القوم ، لا يَتّسق فى بعض صوره لشأننا ، ولا تستريح إليه أذواقُنا ، بل إنه قد لا يَستوى فى تصوُّراتنا ، ولا يُجدِى علينا فى كثير . أَضِفْ إلى هذا عجز بعض نقَلَته سواء فى شعره أو فى نثره ، وقلة محصولهم من العربية ، واضطرارهم بحكم ذلك الى إخراجه ، مترجمين كانوا أو محاكين ومقلّدين ، فى صورٍ بيانيّة شائهة الخَلْق ، ناشزة على الطبع ، لا تُحَسّ إلا مليخة باردة فى مَذَاق الكلام !

وبعد ، فإن مما لا يتقبّل النزاع أنه لا بد لنا من أدبٍ قوىّ سرىّ يُواتِى جميعَ حاجاتنا ، و يُساير ثقافتَنا القائمة ، ويَتوافَق لهذه الحضارة التى نعيش فيها ، بحيث تَطمئنّ به طباعُنا ، وتستريح إليه أذواقُنا ، شأن كل أدب حىّ فى هذا العالم ، ولعل من أشد الفضول أن نقول إن هذا الأدب لا يمكن إلا أن يكون عربياً . ولكن كيف الحيلةُ فى ذلك ؟

ذلك ما نعالجُه فى مقال آخر ، إن شاء الله تعالى ، فلقد طال هذا الحديث .

(٢)

أين أدبنا الصريح ؟ :

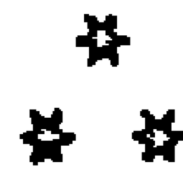
لقد تعرِف أن الأدبَ الحقّ لكلّ أمّةٍ هو الذى يُشاكِلُ حَضارتَها ، ويُكافئُ ثقافتَها ، ويُواتيها فى جميع أسبابها ، ويُترجِمُ فى صِدقٍ ويُسرٍ عن عواطفها ، وينفضُ ما يَعتلج فى الصُّدور من ألوان الشعور والأحساس . ولقد تعرِف أن الأمم كما تختلف فى ألوانها وفى ألسنتها وفى أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فإنها تختلف كذلك فى شعورها وفى أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف فى أفراد الأمّة الواحدة هذه العواطفُ بالقوة والضعف ، والرِّقة والجَفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فإنها ترجعُ إلى أصل واحد ، وتَندرِجُ تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق . وذلك لأنها أثرٌ من آثار الإرث ، والبِيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردّد عليه النظر من صُوَر الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظِّ الأمة منها أثرَه البعيدَ أو القريبَ فى هذا الباب .

وكيفما كان الأمر ، فإن لون العواطف الشائعَ فى كل أمة ليس بالشىء الذى يُستعار استعارةً ، ولا بالذى تتناقله الأمم كما تَتَناقل العلومَ وفنونَ الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيتَ أن أبلغَ عناصره مما لا يُدرَك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلاّ حُكم الطبيعة وما من حُكم الطبيعة مَناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، فى غير حاجة إلى أن نَبعث الأدلة على أن ما يُترجِم عن عواطف قوم ويُصوّر من حسّهم الباطن قد لا يؤدّى هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خَلْق من الناس قد يَنشُز على أذواق مَعشرٍ آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوقُ كلاهما فى معنى من المعانى ، وحينئذ يَصدقُ البيان .

وعلى هذا فإنه مهما نُسرف فى مطالعة أدب الغَرْب والتروّى منه ، ومهما نجهَدْ فى محاكاته وتقليده ، فإنه لن يكون لنا أدباً فى يوم من الأيّام ، اللهم إلاّ أن تَنقلب أوضاعُ الطبيعة ، فإن الأمم لا تُطبَع على غِرار الآداب ، بل إن الآدابَ لَهِىَ التى تُطبَع على غِرار الأُمم !

لقد نكون فى حاجة ، ولقد تكون هذه الحاجةُ شديدة جدًّا إلى مطالعة آداب الغرب و إطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل ما يتهيَّأ نقلُه إلينا منها فى لسان العَرَب . ولـكن ليس معنى هذا أن نتَّخِذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمتَ ، عَبَثٌ لا يُغنى ولا يفيد !



والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مُستعرِبين نعيش فى مصر ، مأخوذين بثقافتها القائمة ، مَوْصُولين بتاريخها القديم . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يُوحى به إلينا تاريخُنا العربىّ من ناحية ، وتاريخنا المصرىّ من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذى تُلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتُنا وثقافتُنا ، ويسوّيه لنفوسنا العيشُ فى وادى النيل . إننا نلتمس هذا الأدبَ الذى يفيض بما تجيش به عواطفنا ، ويَصدُق فى الترجمة عما يَعتلِج فى نفوسنا ، ويصوِّر دخائلَ حسِّنا أكمل تصوير ، ويعبّر عنها أدق تعبير ، وإن شئنا الـكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدبَ القومىّ فلا نُصيب أثرَه إلاّ قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدِّبين !

اللهم إن فينا أدباء جَرَوا من العربيّة على عِرق ، وأحرزوا صَدْراً من بديع صِيَغِها ، وتفتَّحت نفوسهم لمنازع بلاغاتها ، واستَظهروا الكثيرَ من روائعها فيما نظم متقدّمو شعرائها وما أرسل المجلون من كتّابها . على أن أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاصّ ، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفض ما يُحسّ

هو وما يشعُر ، وإنما تراه يُترجِم عما كان يجده السلَفُ الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كلَّ همِّه إلى المحاكاة والتقليد ليخرُج شعرُه عربياً لا شكَّ فيه ، وهؤلاء يتناقصُ عديدهم على الزمان حتى أشفَى فنُّهم على الزوال

وهنالك شبابٌ لم يَبْلُغوا حظًّا مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظًّا منها لم يُعنَ بها ولم يَكترِثْ لها ، وهؤلاء أَقبلوا على أدب الغرب فجعلوا يحاكونه ويترسّمون آثارَه ؛ فيَستحدِثون أَخْيِلةً لم تَتراءَ لأحلامهم ، ويُسوُّون صوراً لم تتمثَّلْ لخواطرهم ، ويُريقون عواطفَ لم تَترَقرق فى نفوسهم ، ويَفصِدون أحاسيسَ لم تجِش قط فى صدورهم . وتراهم يَستكرِهون هذه الأمشاجَ من المعانى على نظام ليس فيه من العربيَّة إلاَّ مفردات الألفاظ ، يَشُدُّ بعضُها إلى بعض بمثل قيود الحديد ، برغم تنافرِها وتناكرها ، بحيث لو أُطلِقَت من إسارها لتطايرت إلى الشرق والغرب ما يَلوى شىءٌ منها على شىء ! . فيخرج من هذا ومن هذا كلامٌ لا يَستوِى للطبع ، ولا يَستريح إليه الذوق ، ولا يَخِفُّ للتعلّق به الخيال ! وكيف له بشىء من هذا ولم يَنتضِح به طبع ، ولا رَهُف له حسّ ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبعث إليه من نفسه خيال ! . فهو أدبٌ مصنوعٌ مكذوبٌ على كل حال !

بل إن هنالك شباباً لم يحذِقوا شيئاً من لغاتِ الغَرب ، ولم يَظْهروا فيها على شىء من آداب القوم ، ولكن تعاظَمَتهم صَنْعةُ أولئك فراحوا هم الآخرون يُشاكلونها و يَحذُون جاهدين حَذوَها ، ليُضافوا هم كذلك إلى جَمهرَة (المجدِّدين) . وما التَّجديد فى شِرعةِ أكثر هؤلاء إلاَّ الإتيان بالغريب الشامس فى نظمه وفى صُوَره وأخيلته ومعانيه ! . وإذا كان هذا اللّونُ من البيان مما يَصِحّ أن يَنتسب إلى أىّ أدب من الآداب ، فإنه مما لا يَصلُح لنا على أىّ حال !

وإن مما يُضاعف الإساءةَ ويَزيد فى الألم أن يُقبِل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللّغو، فيتخذوا منه نَماذجَ يحتذونها إذا شمَّروا للبيان، ولن يُجشّمهم التَّجويدُ والبراعةُ فيه جليلاً من جهد ولا مشقة، لأن قَسْر أىِّ معنى على أىّ لفظ، وتسوية الخيال فى أيّة صُورة، ليس مما يُعيي جهدَ المرء ولا مما يعتريه بالمشاقّ. ومن هنا يَشيع أرخصُ الآداب، أو أنه يُنذر بالشيوع فى هذه البلاد! ولو قد ترك فى مذهبه هذا لطغَى أشدَّ الطُّغيان ما تُغنِى فى صدِّه جهود الأعلام من الأدباء. وحينئذٍ يُكتَب على مصر أن تعيش من غير أدبٍ أو تعيش بهذا الأدب المنكَّر الشائه الذى لا نَسبَ له، مدة طويلةً من الزمان!

الأدب القومى :

إذن لا مفرَّ لنامن أن نلتمسَ أدبَنا القومىَّ، ولا يكون هذا الأدبُ إلاّ عربىَّ الشكل والصورة، مصرىَّ الجَوهر والموضوع. وإذن فقد حق علينا أن نَبعَث الأدبَ العربىَّ القديم، ونَنثُل دواوينه، ونستظهر روائعه، ونَتروّى منها بالقدر الذى يَفسَح فى مَلَكاتنا، ويقوّم ألسنتنا، ويطبَعنا على صحيح البيان. فإذا أرسلنا الأقلامَ فى موضوع يتَّصل بالآداب، بوجه خاصّ. أطلقنا القولَ فى صيغةٍ عربيّةٍ لا شك فيها، على ألاّ نَطلب بها إلاّ التَّرجمةَ عما يَختلِج فى نفوسنا، ويتّصل بإحساسنا، ونصوِّر بها ما نَجد مما يُلهِمه كلُّ ما يُحيط بنا، وما يَعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدَّمتُ لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جدًّا إلى مطالعة آداب الغَرْب وإطالة النظر فيها، واستظهار الكثير من روائعها. ونقلِ ما يَتهيَّأ نقلُه إلينا منها فى لسان العَرَب. وهذا أمرٌ لا شكّ فيه، ولا غَناء لنا عنه، فإن ذلك مما يهذِّب

من ثقافتنا ، ويَفسَح فى مَلَكاتنا ، ويُرهف من حِسّنا ، ويَهدينا إلى كثير من الأغراض التى تَشتَعبها آدابُ الغرب فى هذا العصر ، والواقع أننا تهدّينا من آداب الغرب إلى فُنون لم يكن لنا بها عهدٌ من قَبل ، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظُّهم منه جليلا . ومن أظهر هذه الفنون القصَص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث !

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبيّ لا يُجدى علينا ، ولا يؤدّى الغرضَ المقسومَ بمطالعته والإصابة منه إلا إذا هذّبناه وسوّينا من خَلْقه ولوّنّا من صورته حتى يتّسق لطباعنا ، ويُوائِمَ مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا ، كما ينبغى أن نجهد الجهد كله فى تَجليتَه فى نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد ، فلا نحسّ فيه شيئاً من نُبوّ ولا نشوز . وبهذا نَزيد فى ثروة الأدب العربىّ ، ونرفع من شأنه درجاتٍ على درجات

وليس هذا الذى نرجوه لأدبنا بِدْعا فى شريعة الآداب سواء فى جديد الزمن أو فى قديمه ، فلقد كان الأدباء وما بَرِحوا إلى اليوم يَعتمدون الفكرةَ البديعةَ ، والمعنى السامى ، والخَيالَ الطريفَ المنسجم ، يُصيبونه فى لُغًى أجنبية ، فلا يزالون به يُطامِنون منه لأذواقهم، ويروضونه لأساليب لُغاهم، حتى يجلوه فيها من غير عُسر ولا استكراه ، وإن تصرُّف المتقدمين من أقطاب البيان العربىّ فيما شكُّوا من ألوان المعانى فى اللغات الأجنبية لِمن أصدق الدليل على صحة هذا الكلام . وهل رأيت إلى ابن المقفّع لو لم يَجئك أنه تَرجم كتابَه (كليلة ودِمنة) عن إحدى اللغات الهندية ، أفكان يَتسرَّح بك الشّك فى أنه عربىّ الأصل والمَنجم ، عربىّ الحِلية والنسب ؟ اللهم إن تسوية المترجِم لما ينقُل إلى لغته ، وطبعه على ما يوافى أحلامَ معشره ، ويسوغ فى أذواقهم ، وينزع منازع بلاغاتهم ، لسر ،

مما يَقدَح فى كفايته ، بل إنه لما يرفع من قدره و يُغلي من تصرّفه . و كيف لا وهذا القرآنُ الحكيم لقد حدّثنا عن عشراتٍ من الأمم ، كانوا ينطِقون فى الأعجمية لغات متفرقة ، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، فما أدّاها إلا فى أعلى العربية الخالصة ، بل فى العربية البالغةِ حدّ الإعجاز ، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة ، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان ؟ !

وصَفْوةُ القول أنه لا يَعيبُ اللغةَ أو يَغُضّ من شأنها أن تُصيب من بلاغات غيرها على أن تُسيغَه وتَهضِمه وتسوّيه حتى ينتظمَ فى سِلْكها ، و يتّصل بخَلْقها ، و يُوسّع فى مادّتها ، و يُضاعف ثروتَها ، لا أن يُقسَرَ عليها قَسْراً ، ويُستكرَهَ لها استكراهاً ، فينكّر صورتَها و يشوّه من خَلْقها على ما نرى من صُنع كثيرٍ يُعربِدون فى الأدب العربىّ باسم (التجديد) فى هذه السنين !

كيف نعلم الأدب :

ولا شك في أن اليَنبوعَ الأولَ الذى يَردُهُ النَّشْء ليَنهَلوا من فنون العربية ويَتروَّوْا آدابَها و يَستشعِروا بلاغاتِها ، و ينبعثوا لترسُّمها إذا هم أَقبلوا على البيان ، هو معاهدُ التعليم على وجه عام . فإذا هى جدَّت فى مهمها وأخذت مَنْ بينَ يديها من التلاميذ بما يَنبغى أن يُؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين ، كان لنا فى هذا الباب كلُّ ما نريد .

و إذا كان الأدبُ كسائر الفنون إنما يَبرَع المرء فيه بالاستعداد الفِطرىّ مع الكَلَف به وشدّة الإقبال عليه وطول التمرين فيه، بأكثر مما يُحرَز بالتعليم والتّلقين، فإن مما لا يَعتريه الريبُ أن للأستاذ ، وخاصّةً فى ابتداء العهد بالطلب ، أثراً بعيداً فى تعليم أُصول الفنّ و بيان حدوده ، و إعلام طريقه بين يدى الطالب ، وتهذيبه

بطول التعهّد ، وتوسيع مَلَكاته بألوان الملاحظة ، و إسلاس الإجادة له بفنون التدريب والتمرين . ولعمرى لو قد أُخذ الأساتيدُ تلاميذَهم بهذا الأسلوب فى تعليم الأدب العربىّ لأحبّوه وكَلِفوا به ، وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعته فى أوقات فراغهم ، و إمتاع النفس بتسريح النَّظر فى بدائعه . وكذلك تُصبح مطالعة الأدب رياضةً يُطلَب بها الترّفيه والاستجمام إذا لحِق الكدّ ، وأجهدت المطاولةُ فى طلب العلم . وسَرعان ما تستقيمُ الطباع ، وتُدرِك المَلَكات ، ويَجرى صادقُ البيان فى الأعراق مَجرى الدماء !

أما إذا خُصِب التلاميذُ بالقواعد جافّةً لا يَترقرَق فيها ماء البيان صافياً ، وقَنِع الأساتِذة بأن يُلقُوا إليهم قطعاً من الشِّعر أو النثر ليحفظوها دون أن يُوصَل بين نفوسهم و بين ما تَحوى من ناصح البلاغة ، فقد استثقلوا الدرس وكرِهوه وبَرِموا به ، وتجرّعوه تجرّعا، إشفاقاً من العقوبة أو من التخلّف إذا كان الامتحان !

و إنى لأكره أن أقول إن اقبال كثرة التلاميذ على هذا الأدب الرخيص الذى يخرُج فى العاميّة حيناً ، وفى تلك العربية المنكّرة الشائهة أحياناً ، وتهافتهم عليه ، وافتتانهم به ، وأخذ الأقلام بمحاكاته وترسُّمه ، إنما هو أثرٌ من آثار ذلك البَرَم والاستثقال لدروس العربية وآدابها فى معاهدنا المصرية !

والآن ، فالرأى فى قيام أدبنا القومىّ ، وفى بَعث لغة الكتاب العزيز ، إلى أساتيذ المدارس ، و إلى وزارة المعارف ، فلننظر ما هم فاعلون !

عثرة ورجاء :

بقيت هنالك مسألةٌ لا يَجمُل بنا أن نَختِمَ هذا المقالَ دونَ أن نَعرِض لها بشىء من البيان : يقولون إن اللغة العربية فقيرة ، أو إنها أصبحت فقيرة بحث

لا تستطيع أن تؤدِّىَ بعضَ مطالب الحياة فى هذا العصر إلاَّ فى شدَّة عُسر وحَرَج ، ولا تستطيع أن تؤدىَ بعضَها أبداً . وهذا كلامٌ ، على أنه لا يخلو من الحقّ ، فإنه لا يخلو من الإسراف إلى حدٍّ بعيد . إذ الواقع أن اللغة العربيَّة غنيّة سخيّة بالكثير مما يُواتِى مطالبَ العاطفة ، ويُصوّر نَوازعَ الشعور أحسن تصوير . فلقد بلغ المتقدِّمون من شعراء العربيَّة فى هذا الباب ما لا أحسب أن قد بَرَعهم فيه كثيرٌ من أصحاب البيان فى اللغات الأخرى . ولو قد نَفَضَ متكلّفو الأدب دواوينَ أولئك الشعراء وفَرُّوا ما أَجنَّت من قصائدَ ومقطوعاتٍ ، لخَرَج لهم من ذلك ما يُبلِّغهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف ، والتعبير عن خفيّات الحسّ والشعور. وهذا ، لو علمت ، أجلُّ مطالب الأدب فى جميع اللغات . وحبّذا لو أكثر الأساتيذُ من عَرض هذه الأشعار على تلاميذهم ، وتقدَّموا إليهم الفَيْنَة بعد الفَيْنَة بالحديث ، فى الموضوعات الإنشائية ، عن الحسّ والعاطفة فى مختلف الأسباب ، واستدركوا عليهم ما عسى أن يكون أخطأهم فى ذلك من ناصح البيان .

على أن هناك عَقَبةً أخرى تحتاج إلى جهد فى التذليل ، وهى أنه فى ركود لغة العرب بانقباض حَضارتهم ، عُقِد ما لا يكاد يَحصُرهُ العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية ، واستُحْدِثت أشياء كثيرة جدًّا فى جميع وسائل الحياة ، سواء منها الضروريّات والكماليّات. ولا شك فى أن إصابةَ هذه الأشياء فى لغاتها إفسادٌ للعربية واستهلاكٌ لها . كما أنه لا معنى للالتفات عنها إلاّ الإعراض عن هــذه الحضارة العريضة ، بل الإعراض عن أكثر ما نَجدُه وما نعالجه فى هذه الحياة . وهذه العَقَبة تقوم الآن على تذليلها جهودُ أفاضل الأدباء من جهة ، والمجمع الملكى للغة العربية من جهة أخرى ، بالغَوْص عمَّا يدل على ذلك فى مجفوّ العربية ، سواء بأصل الوضع أو بالطرق الفنيّة الأخرى

ولقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن ننبِّهَ حضرات رجال هذا المجمع إلى أن الاكتفاء بإثبات ما يتّسق لهم من هذه المصطلَحات والألفاظ فى معجم جامع أو نشرها فى كراسات دورية ليس مما يجدى كثيراً فى إصابة الغرض المقسوم . فقد ثبت ، بحكم التَّجربة ، أن أبلغَ الوسائل فى شيوع الألفاظ والصيَغ المستحدَثة أو المبعوثة من جاثم اللغة ، وكثرة دَوَرانها على الأَلْسُن والأقلام ، هى استعمال كبار الشعراء والكتّاب لها ، وترديدها فيما تجلِّيه الصحف السائرة لهم من الآثار ، فحبَّذا لو سعى إلى هذا أولياء اللغة ، وخاصّة فيما يتصل ، مما يستظهرون ، بالفنون والآداب

نسأل الله تعالى أن يهدىَ الجميعَ سواء السبيل .

فى النقـــد الأدبى

لا أزعُم أننى استوَيتُ اليوم إلى مكتبى وهذا الموضوعُ الذى أتقدَّم للحديث فيه واضحُ المعارف فى رأسى ، مجتمعُ الأقطار ، بيِّنُ الحدود ؛ إنما هى خواطر تتطاير من هنا ومن هناك فى هذا الباب ، وسأحاول بجهدى نَظمَها ، فإذا اتَّسَق منها موضوعٌ واضحُ الشخص ، مستوِى المعارف ، و إلا فليأخذها القارئ على أنها خواطر نِثار

على أنه لم يبعثنى على إرسال القلم فيما لم يُدرِك[1] بعدُ فى نفسى ، ولم يتَّسق لى من أجزائه خَلْق سوىّ ، إلاَّ ما هالنى من حال النقد الأدبىّ فى هذه الأيام ؛ فهذا النقد ، مع الأسف العظيم ، لا يجرى أكثره الآنَ على حكم الغرض المقسوم له من استعراض الكلام ، وطول تصفّحه ، وامتحان الرأى والذّوق له ، لإمازة جيّده من رديئه . والدلالة على هذا والإشارة إلى هذا ، مع الإبانة عن وجوه التعليل . ولا أقول مع سَوق البرهان و إقامة الدليل ، فإن مَردّ هذا ، فى الأكثر ، إلى تقدير الذّوق ، شأن جميع الفنون الجميلة . وقضايا هذه الفنون ليس مما يثبُتُ ، فى الغالب ، على القياس المنطقىّ فى أىّ شكل من الأشكال

وأنت خبيرٌ بما يكون للنقد إذا وقع على جِهته من الأثر البعيد فى تصفيَة الآداب ، والاطّراد بها فى سبل التقدم إلى ما شاء الله ، وهذا يكون بتبصير المنشئين بمواطن الإجادة ومواطن الضعف فيما يُخْرِجُون من الآثار ، ليأخذوا أنفسهم بتحرّى ما ذهب النقد السليم إلى أنه الخير . كما يكون بتفتيح أذواق القارئين و إرهاف حسّهم حتى يَفطُنُوا إلى دقائق الصنعة ، ويَستجْلُوا مواضعَ الحسن فى الكلام

---

(١) أدرك هنـا : نضج

فتجتمع لهم بهذا خِلال : منها العلم بفنّ نقد الكلام ، والقدرة على تمييز جيّده من رديئه ، وطيّبه من خبيثه . ومنها جلاء الذوق و إرهاف الحسّ ، ولا شك أن استمتاع من يتهيأ له هذا والتذاذه بروائع الفن لا يمكن أن يُدرِك بعضَه من لا حظّ له فى شىء من ذلك إذا صح أن يكون لمثل هذا بالفنّ الجميل متاع !

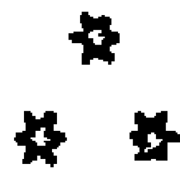
وللنقد فوق هـذا مزية أخرى لا ينبغى أن تسقط من الحساب : ذلك بأنّ قيام النقَدة وارتصادهم لما تَنتَضِح به قرائح المتأدبين ، من شأنه أن يُدخل الحذرَ على هؤلاء ، فلا يَتكئوا فى شأنهم على البَهرج يُزَيِّفونه للجَمهَرة تزييفاً ، بل إنهم ليجتمعون للتجويد ، و يُشمّرون فى تحرّى الإصابة والإحسان ما واتى جهدَهم الإحسان ، إن لم يكن للظّفَر بالثناء الرفيع يَذهب به الصيت والذكْر ، فللسلامة على التهْجين وسوء المقال

ولقد شهدنا فى عصرنا هذا من كبار الأدباء من لا يجلو على الجمهور شيئاً من أدبه إلا بعد أن يَعرضه على عُنُق من النَّقَدة ، فما أجازوه منه أمضاه ، وما استدركوه عليه استدركه بالتسوية والتغيير والإصلاح . وما يفعل أحدهم ذلك لأنه ضعيف الرأى فى نفسه ، ولا لأنه لم يذهب بأثره إلى غاية الإعجاب . و إنما هو الخوف من النقد ، والشهوة إلى استخراج الثناء ممن لهم فى إذكاء شهرة الأديب ورفع صيته أثر كبير أو صغير !

ولا شك أن هذه الخَلة فى بعض أصحاب الأدب مَعيبَة بمقدار ما هى ضارّة . أما وجه العيب فيهـا فيما تدل على تخاذل الطبع ، و إظهار الناس على عدم الثقة بالنفس . وأما وجه الضرر فلأن خير أدب الأديب ما يصدُر عن نفسه ويُترجِم عن حسّه ، بحيث يكون صورةً صادقةً له هو ، لا لِمزْجٍ منه ومن سواه من الأدباء !
ولا أُحبّ أن أُغفل فى هذا المقام شيئاً له خطره الشديد : ذلك أن الناقد مهما تبلغ دقته ونفوذ نظره ونزاهته عن كل هوى ، لا يُكفل له التوفيقُ على الدوام ،

فلقد يكون الرأى فى كثير من الأحوال فى جَنب المنشىء الأديب لا فى جانبه .
هذا إلى أن موهبة الشاعر أو الكاتب أو المفتنّ على العموم ، قد تنزع نزعة مستحدثة طريفة تنشُز على مستوى العُرف الفنىّ القائم ، فلا تلقى أولَ الأمر من الأذواق إلاَّ إنكاراً ؛ فردُّ المفتنّ على هذا إلى ما شاع به العُرف وانعقد عليه الذَّوق العام ، صدٌّ للعبقرية عن سبيلها الذى لو قد تهيأ لها أن تطّرد فيه لجاز أن تَستحدِث فى الفن أعظم الأَحداث ، شأن جميع الفورات التى هى فى الواقع شرعٌ جديدٌ لنظام جديد فى أى سبب من أسباب الحياة . على أن ذلك العيب وهذا الضرّ لا يرجعان إلى النقد ولا إلى النقَدة ، وإنما يرجعان إلى طبائع هؤلاء المفتنِّين .

وكيفما كان الأمر ، فإننى إنما أردت أن أبيّن خطر النقد على كل حال .



والنقد ، ولا شك ، قديم يقوم بقيام الفنون فى كل زمان وفى كل مكان ، فإن المفتنّ مهما يبلغ من صَغْوِه لفنّه ، وصدق هواه إليه ، ومهما يجد فى ذلك من اللذة والاستمتاع ، فإن لذته واستمتاعه إنما يكونان أتمّ وأوفى إذا ظَفر من الناس ، وخاصة من أصحاب البصائر ، بحسن الرأى وجلالة التقدير . وأحسب أن المفتنّ الذى لا يُدخل فى حسابه هذا وما زال معه عقله لم يُخلَق بعدُ فى الزمان . ومادام الحديثُ فى النقد الأدبىّ فلنقصِر الكلام على أهل الأدب ، وإن كان المفتنّون جميعاً فى ذلك أشباها .

وإذا قلت لك إن النقد قديم ، فاعلم أن احتفال الشعراء والكتاب للنقد ، وجهدهم فى استخراج رضا النقَدة ، واستدراج ألسنتهم بالثناء عليهم والهُتاف بآثارهم كذلك قديم . وإن من يتصفح تاريخ الشعر والشعراء من مطلع الدولة الأموية ، وتاريخ النثر والنثّار من يوم احتفل أهل البيان للنثر الفنىّ فى عصر الدولة العباسية ، لا يتداخله أىّ ريب فى هذا الكلام .

نعم لقد كان الأدباء ، والشعراء منهم خاصة ، يصانعون النُّقَّاد ، ويعملون جاهدين على الزُّلْفَى إليهم ابتغاء المنزلة عندهم ، وإيثارهم بألوان التبجيل والتكريم . وكثير منهم من كان يَعرض شعره عليهم لامتحانه واختباره قبل طرحه على سائر الناس . إن لم يكن لحسن الظن بإدراك ملكاتهم . وحدة إحساسهم ورهافة أذواقهم ، فلإطلاق ألسنتهم فيهم بحسن المقال ، وإلاّ فكيف للمفتنّ بانطلاق الذكر وذهاب الصيت عند الجمهور ، وليس له ، فى العادة ، وسيلةٌ إلى هذا إلا تقدير هؤلاء ؟

وإنى لأذهب فى تقدير النقد ، والإبانة عن خطر النَّقَدة إلى ما هو أبعد من هذا من جليل الآثار . فإن أثر هذا إذا اتصل بشهرة الشاعر أو الكاتب والذهاب بصيته ، فإن هذا الذى أرمى إليه هو جَدوَى النقد على الفن ، وإن شئت تعبيراً أدقّ وأدلّ على بُعد الأثر ، قلت فى بناء الفن نفسه وتأصيل أصوله ، وتقعيد قواعده ، وتفصيل فصوله . وحسبك فى هذا الباب أن تَعرِف أن علوم البلاغة ما كانت لتكون لولا نَقَدة الكلام ، إذ الواقع أن قواعد هذه العلوم ، فى الجملة ، وأعنى علوم البلاغة ، إنما انعقدت بتقصِّى ما أُثِر عن نَقَدة الكلام فى الأجيال المتعاقبة من الكشف عما يُضمر هذا البيت أو هذه الجملة من معنى كريم ، والدلالة على ما جُلى فيه من نسج متلاحم ومن لفظ نيّر شريف . ومن التَّفْطين كذلك إلى ما يقع من فسولة معنًى ، واستكراه لفظ ، وتزايل تركيب ، ونحو ذلك. فعلى هذا التقصّى قامت علومُ البلاغة ، على الجملة ؛ بل لا حرج علينا إذا زعمنا أنها مَدينة فى قيامها لنقد الناقدين . ولعلَّ بلوغنا هذا المعنى الذى استدرج إليه تداعى الكلام من غير سابق نيَّة من أسعد الفُرص التى تُهَيِّئُ لنا أن نصارح بأن هذه ، علوم البلاغة ، على شأنها الذى انعقدت عليه منذ الأجيال الطوال ، لم يصبح لها من الأثر ، سواء فى تحرى ألوان البلاغات أو فى إجراء مقاييس النقد ، كثير من الغَناء . فالبلاغة لم تكن قط

فى إصابة معنى مأثور ، ولا فى نظام لفظ موروث ، ولا فى استنان أُسلوب معيّن من أساليب البيان ، وإنها لم تكن كذلك فى يوم من الأيام ، وإنها لن تكون كذلك فى يوم من الأيام . على أن هذا شىء قد وقع على سبيل الاستطراد ، فلندعه إلى حديث خاصّ ، فإنه لقد يحتاج إلى كلام طويل

*
* *

وبعد ، فهذا موضع النقد من الأدب ، وهذا أثره فيه من قديم الزمان . ولا يذهب عنك أن هذا النقد ، إذا استثنيت ما يتصل منه باللغة أو بقوانين النحو والصرف ، إنما مرجعه فى الكثير الغالب إلى سعة الخبرة بالأمور على وجه عام ، وإلى شدة الفطنة ، وصفاء الذهن ، ورهافة الحس ، وكمال الذّوق ، بحيث يتهيأ للناقد من النفوذ فى باطن الكلام ، والتفطن إلى دقائقه واستظهار ما فيه من حسن أو من مكنون عيب ما يَعيَا عنه أكثر الناس . ذلك كان مُتَّكَأَ النقد ومصدر وحيه ، لا ضابط له وراء ذلك من قانون ، ولا من نظام مسنون

بل إنه لكثيراً ما كان النقد يجرى مجرى النكتة ويأخذ مأخذها فى الكلام، أعنى أنه قد يكون أثراً للّمحة الخاطفة من الذهن ، ما تعتمد على أصل ثابت من التعليل والتوجيه . وكثيراً ما كان يُتعسَّف فى هذه النكتة أيضاً رغبةً فى التشهير واحتيالاً على إسقاط الكلام ، وإن من يتتبع كتب الأدب العربي ليقع له من هذا الشىء الكثير

ولعل مما بعث على هذا وحمل النقَدَةَ عليه أن النقد إنما كان يوجَّه على كل بيت فى القصيدة استقلالا ، قلّ أن يُسلك فى عبارة نقدية بيتان أو أبيات ، وذلك راجعٌ إلى طبيعة الشعر العربىّ من عدم اعتبار القصيدة ، فى الغالب ، وحدة ماثلة الشخص ، واضحة الصورة ، مستوية الخَلق ، ينزل البيت فيها منزلةَ

الجزء من الكلّ ، والعضوِ من الكائن الحىّ ، لا يتشخّص إلا بمجموعة الأعضاء

بعد هذا الاستطراد اليسير نرجع إلى الحديث فى أثر النقد فى توجيه الآداب :
و إذا كان للنقد مع هذا ، ومع هذا كله ، هذا الأثرُ البعيد فى حياة الأدب العربىّ ، فكيف كان يكون شأنُه اليوم فى ذلك ، وقد أصبح للنقد مناهجُ واضحة ، وطرقٌ معبَّدة ، وحدودٌ مرسومة ، وأصبح يُتكأ فى كثير من وسائله على قضايا العلم ، و إن لم يزل للذّوق فيه أثرُه البعيد ؟ وعلى الجملة لقد أصبح النقد الأدبىّ فنا من أرفع الفنون فى هذا العصر الحديث

أقول كيف كان يكون شأنُ الأدب العربى اليومَ لو جرت الطرق على أزلالها ، وأخذ جَمهرَةُ نقّادنا أنفسَهم جاهدين بمذاهب النقد الحديث ، على أن يكونوا فى نقدهم نُزَهاء مخلصين ، وعلى ألاّ يُجروا أساليب النقد الغربية كما هى على كل ما يخرج لهم من آثار أدبنا العربىّ ، فذلك إلى ما فيه من عَسْف وعَنَت ، فيه أذًى للأدب كبير . فإن مما لا شك فيه أننا نفارق القوم فى كثير : نفارقهم فى العقليّات ، وفى الأخلاق والعادات ، وفى التاريخ والبيئة ، وفى النظام الأدبى ، كما نفارقهم فى الأذواق . ولا يذهب عنا أن الأذواق هى مستمَدّ الفنون على وجه عامّ

لقد لاح لك ما يكون للنقد ، إذا سار على هذا النهج ، من عظيم الجَدوَى على أدبنا العربىّ ، بانتخاله وتصفيته ، ودفعه فى طريق الكمال حتى يُوفى بجهد الناقدين على الغاية لو كان للكمال حدٌّ مقسوم ؛ فهل نحن الآن فاعلون ؟

فوضى النقد الأدبى :

الواقع أن الأمر ليس كذلك مع الأسف الشديد ؛ هذا هو الواقع الذى يَشرَكنى فى تقريره كثير ، ويَشرَكنى فى الإيمان به الجميع ، و إن جحَده من تميل بهم الأهواء عن قَصد السبيل !

الواقع أن النقد عندنا أصبح فوضى ما تفتأ تستفحل وتستحصد ، حتى بات يُخشى أن يُضلّ الناشئين عن كل أدب صحيح ، إذا لم يأتِ بالفعل على كل أدب صحيح .

وإننى لأتقدّم إلى تقرير هذا الواقع المرّ وتبيينه ، لأننى امرؤ لا أنتمى والحمد لله لشيعة ، ولا أتصل بحزب من هذه الأحزاب الأدبية القائمة فى البلاد الآن . ولا يستطيع زاعم أن يزعم أنى دَعوت لنفسى أو دَعوتُ لأحد من الأدباء فى يوم من الأيام .

وعِلة هذا ، فى تقديرى ، تعود إلى السُّعار الذى لحِق كثيراً من متأدبى هذا العصر إلى طلب الشهرة ونباهة الذكر من أخصر طريق . وليس فى هذه الطرق أخصر ولا أيسر من التهويش وصبّ المديح جزافاً ، وهَيْل الثناء وإضفاء النعُوت وإفراغ الألقاب بغير حساب !

والأديب لا يستطيع أن يضطلع لنفسه بهذا وحدَه ، مهما يجدّ ويسرف فى انتحال الأسماء والألقاب ، يضيف إليها ما تفضل به فى نعت نفسه من سابغ المقال ، بل لا بدّ له فى بلوغ الشأو وإدراك الغاية من الاستعانة بغيره على مُهمّة . وكلما كثر هؤلاء الأنصار والأعوان ، هان ، بالضرورة ، إحراز الشهرة فى أقرب آن . وهؤلاء الأعوان لا ينهضون لهذه الخدمة بغير ثمن عينىّ ، أى بدون أن يبادلهم صاحبنا المديح ويُقارِضهم الثناء . ومن هنا كان للأدب عندنا فى هذه الأيام أحزاب وشيَع هى أشبه ما تكون بالشركات المالية يساهم فيها الجميع ، فتعود جدواها على الجميع !

ولقد دعا هذا بالضرورة إلى التنافس والتبارى بين هذه الأحزاب والشيَع

الأدبية . وهذه الهيئات أو الشركات رأس مالها قائم على الكلام ، فهى إنما تتنافس وتتبارى بالكلام . وهذا الكلام عبارة عما شئت من غلو و إسراف فى إراقة الثناء من كل منها على كل أثر يصدُر عن أىٍّ كان من المنتمين إليها ، والارتصاد بلاذع النقد لما يَظهر من أثر كلٍّ خارج عليها ، وهكذا دِيست حرمة الأدب ، وعُفِر وجه النقد الكريم بالتراب !

ليس يَعنى الأدبَ كثيراً أن يُغمَط أديبٌ بعضَ حقه ، أو أن يُغمَط حقَّه كلَّه . ولا يَعنيه كثيراً أن يُفرَغ على متأدب من النعوت والألقاب ما لا يرتفع إلى بعضه كلُّ قدره . ليس هذا مما يَعنى الأدبَ فى ذاته كثيراً . و إنما الذى يَعنيه ويُجهده ويُعنّيه هو فِقدان المقاييس الأدبية التى هى المرجع الصحيح أو القريب من الصحيح فى تقويم حظوظ الآداب .

هذا شعر خالد ! وهذه شاعرية جبّارة ! وهذا المعنى من وحى السماء ! وهذا فلان يؤدى رسالة الأدب إلى العالم . . . . الخ . يالطيف ! يالطيف !

مهلاً رويداً أيها الناس ، فلقد والله ابتذلتم النعوت وأرخصتم الألقاب . ومالها لا تَرخُص ولا يلحقها أشد الوَكس ، وقد أصبحت لا تدل فى أكثر الأحيان إلا على كل تافه وكل هزيل !

نعم ، لقد خرجت هذه الألفاظ عن معانيها الموضوعة لها ، فالألفاظ تخرج عن معانيها بالاستعمال حتى تُصبح حقائق عُرفيّة ، بل حقائق لغوية بطول صرفها الى معانٍ جُدُد . كذلك سنة اللغة من قديم الزمان ! ولقد تبحثون غداً عن ألفاظ تؤدّى هذه المعانى على حقائقها وتجلو صورَها المتمثِّلة فى صدور الناس فلا تَخرجون من هذا بكثير ولا قليل !

*
* *

و بعد فلقد تجود بعض القرائح بالشعر الخالد ، ولقد تصل الشاعرية الى مرتبة الجبروت . ولقد يكون فينا اليوم ، ولقد ينجم فينا غداً من يستحق بنبوغه وارتفاع مواهبه شيئاً من هذه النعوت والألقاب ، فكيف ندعوه ؟ و بماذا ندل على موضعه ؟ وما الذى نميزه به من سائر المشتغلين بالآداب ؟

ثم إذا كانت هذه الألقاب والنعوت الضخمة التى لا ينضحها الزمان على الأفراد فى الأمم الأخرى إلاّ فى الحقب الطّوال — إذا كانت هذه النعوت والألقاب مما لا ينقطع عندنا وَبْله المِدْرَار ، لا فى الليل ولا فى النهار ، فتُرى ما الذى يبعث الهمم و يشحذ العزائم فى إنضاج الملكات ، وتربية ما عسى أن يكون مطوياً من المَوهبات فى بعض النفوس ، والمطلبُ يسير ، وأضخم الألقاب معروضة بأبخس الأثمان فى أكسد الأسواق ؟

لقد يُحتجّ علىّ بأن فى مصر عُنُقاً من مَشْيَخة الآداب ، وأن فيها كذلك فريقاً من شباب الأدباء ، وهؤلاء وأولئك يأخذون أنفسهم فى باب النقد الأدبىّ بما شئت من دقة ومن نفوذ ومن إنصاف . وهذا حق لا ريب فيه . ولكن لا تنس أن هؤلاء قد غَمرت آثارَهم الكثرةُ الكثيرة بما تتهافت به كل يوم من النقد الفَسْل المُغْرِض الشَّهْوان . و بهذا يفوت الأدبَ نقدُ الفاضلين الأكفاء النزهاء

و إذا اجتمع علينا إلى فِقدان موازين النقد الأدبى إهدارُ رأى كل ذى رأى ، وتَهاونُ قدر كل ذى قدر ، و إضلال الناشئين فى بيداء مَجهَل ، فذلك الخِذلان من الله ، والعياذ فالله !

أسأل الله تعالى أن يتولانا بهدايته ، إنه على كل شىء قدير

فى رثاء صبرى*

مَضى المغفورُ له إسماعيل باشا صبرى إلى جوار ربِّه كما مَضَى قَبلَه وكما يَمضى بَعدَه كلُّ مَن يَتكلَّفُ شِعراً أو يُعالج فناً أو يُشارك في عِلم . وعَقَدوا له يوماً للرِّثاء كما عَقَدوا وكما يَعقدون لأولئك كلِّهم ، ودَعَوا للقَريض شــوقى وحافظاً ومُطران والهرّاوى وعبدَ المطّلب كما يَدْعونهم للقَريض في كلِّ ذاهب . وشمّر شوقى وحافظٌ ومُطران وعبدُ المطلب والهرّاوى للشِّعر كما شمّروا لغير إسماعيل صبرى . ولقد قالوا فى صبرى كما قالوا في الناس كلهم : إن وجهه آلَقُ من البدر ، وإن راحتَه أَندَى من البَحر ، وإن شمائلَه أزكَى من الزَّهر ، وإن عَبقريَّته أبقَى على الدهر من الدهر !

ولقد قالوا مثلَ هذا كلِّه فيمن خَفُّوا لرثائهم ممَّن لا نُحبّ أن نَزْدرِيَ أقدارَهم ، أو نتهاونَ أخطارَهم ، أو نذمّ أشعارَهم . ولكنهم على كل حالٍ لم يَبلغُوا كثيراً ولا قليلاً ممَّا بَلَغ اسماعيل باشا صبرى جلالةَ نَفْس ، ولا عظَمةَ خُلُق ، ولا فصاحةَ شِعر ، ولا فتحاً فى الأدب هذا الفتح !

لقد أَخرَج الأَوَّلون « الموازين » ليقدروا خفيفَ الأجرام وثقيلَها ، وصَنَعوا « المكاييل » ليَعرفوا كثيرَ الحبوب وقليلَها ، وضَبطوا « المقاييس » ليُحدِّدوا قصيرَ الأَمدية وطويلَها . ونحن إلى الآن لم نوفَّق إلى ذلك « الميزان » الذى يضبط لنا المقال ، إذا تَصدَّينا يوماً لقَدْر أقدار الرجال !

سنُطوَى نحن وسيُطوَى مَن بَعدَنا ، وسيخلُفُ من بعــد أولئك خَلْفٌ

* نشرت فى « السياسة » سنة ١٩٢٣ فى ضمن (ليالى رمضان) .

لم يَتّصلوا بمجالسنا ، ولم يَتروّوا شيئاً مِمّا يَجرِى على ألسنتنا . فإذا أُحبّ هؤلاء أن يَعرِفوا مِقدارَ حُكمنا على كل رجُل من رجالنا ، صاروا ، ولا محالةَ ، الى ما نحن مُثبتوه فى صحائفنا . ولكأنى أنظر إلى هؤلاء الخلَفَ وقد شاع فيهم العجب ، ومَلك الدهَش عليهم كلّ مَذهب ، لأن وَصْفَنا لكل علمائنا واحد ، ونَعْتَنا لكل أدبائنا واحد ، وقدْرنا لكل شعرائنا واحد ؛ حتى لأحسبهم يحسبون أنه كانت لدينا مطبعةٌ لكبار الرجال ، فمهما تتكرّر نُسَخها فإن صورتَها كلها واحدة !

لقد يَطمَع الرجل الحُسَان فى ثواب التاريخ أكثَرَ مما يَطمع فى ثواب دُنياه. فياوَيحَ « العَبقرّية » ويأويحَ الإحسان من حكم التاريخ، إذا كان الناسُ جميعاً سيُجلوْن غداً فى صورة سواء ! ! !

الأدب الحادّ

من الواقع الذى لا يَتطاوَل إليه الشكُّ أن مصر تَنبعث الآنَ فى نهضة قوية فى كثير من أسباب الحياة ، وفى صدرها الثقافةُ بوجه عامّ ، والأدبُ على وجه خاصّ

لم يُصبح الأدبُ مجرّدَ فضل من الكلام لا يكاد يُطلَب به شىء . ولم يَبق للأدب مُضطرَبٌ فى تلك الأغراض الهزيلة التى كان يَضطرب فيها الأجيالَ التى تقدّمتنا من العصر التركى إلى خمسين سنةً خلَت . ولم يُمسِ جهدُ الأديب متجرّداً فى طلب المحسّنات البديعية واستكراهها على الكلام ، بَلْهَ تسويةَ الكلام لمجرّد إصابة تلك المحسّنات فحسب . لا ! لا ! لقد عَزّ الأدبُ فى هذا العصر ، واستَحصَد مُلكه ، وعظُم شأنُه ، بما ارتَصد لتجلية الفكر ، وأداء مطالب العقل ، والتسلية عن النفس وتلذيذها بكل جميل و بكل بديع

وفى الغاية ، لقد جعل الأدبُ يَتبسّط من يمينه ومن شماله حتى كاد يَستغرِق ، بجهد أعلام البيان ، جميعَ الأسباب الدائرة بين الناس . فإذا تقاصر الأدبُ العربىُّ اليومَ عن توفّى شىء من الأشياء ، فإنه لبالغُه فى القريب بعون من الله و بتظاهر جهود الأدباء

على أن ما من حقه أن يَلفت النظر فى هذه النهضة البيانية — ولا أحسب ذلك مما دقّ على أفهام الكثير من جمهرة المتأدّبين فى مصر — أن الأدب العربى ، فى جميع ألوانه وصوَره ، قد أُصيب فى هذه السنينَ بنَوبة عصبية قل أن تفارقه أو ترِقّ عليه ، و إن كانت هذه النوبة أثقلَ على أقلام الكتاب منها على أقلام الشعراء

و بعد ، فأنت خبيرٌ بأن لكل مقام من مقامات الكلام بياناً يَحسُن به ولا يَحسُن بغيره ولا يَحسُن هو فى غيره . فهذا الباب لا يَصلُح إلا بسَطْوة القول وحِدَّة القلم . وهذا الباب لا يجوز أداؤه إلا فى لِين لفظ ورِفق تعبير . وهذا الباب لا يحمَد الكلام فيه إلا بالاجتماع لتجويد الصياغة و إحكام النسج ، والإصابة من فنون البديع بما لا يَستهلِك الغرضَ أو يُسىء إلى المعانى . وهذا الباب لقد يَرذُل فيه مثلُ هذا و يُعاب كلَّ العيب . فإن من يَستنفِر قومه للجهاد ذِياداً عن شرفهم ودِفاعاً عن حريمهم ، لا كمَن يَصِف مجلس لهو فى روضة مِعطار ، قد لَعب النسيم بأغصانها ، وغرَّد الهَزارُ على أفنانها . و إن مثل ذلك اللعب باللفظ واعتماد نكات البديع لسَمِج كلَّ السمْج بالمرء يَرثى ولده و يَصف ما أَجدَّ له الأسى من ألوان البُرَح ، وما أحدث الثكل فى كَبِده من صُدوع ومن قُرَح

هذا إلى أنك فى الباب الواحد قد تقول فى هذا الموضع كلاماً لا يَجمُل بك أن تقوله فى موضع آخرَ منه . فإن من يزِلّ لسانُه بالكلمة العوراء فى صديقه ، ليس كمَنْ يسعَى فى إردائه أو الإصابة من شرفه مثلا . فهذا يقال فى عتابه أو هجائه كلام . وهذا يوجَّه عليه كلامٌ آخر

و بعد ، فليست بنا حاجةٌ إلى التقصِّى وطلب الصوَر المختلفة لمقامات الكلام ؛ فذلك من القضايا المفروغ منها . ولقد أجمل الأقدمون هذا المعنى فقالوا : « لكل مَقام مقال »

و نَرجع الحديثَ ، بعد هذا ، إلى ما سُقنا له الكلام :

أسلفنا أن الأدب العربي ، فى جميع ألوانه وصُوَره ، قد أُصيب فى هذه السنينَ بنَوبة عصبية قلّ أن تُفارقَه أو ترِقّ عليه . وحسبك أن تُقلِّبَ النظرَ فى الصحف السياسيَّة مثلا ، فلا ترى إلاّ عُنفاً ولا ترى إلا حَدًّا ، وخاصةً فى مقام الجدَل الحِزْبيّ . و إذا لم يكن فى كل هذا الباب ما يجوز أن يَجرى القلم فيه هيناً رفيقاً لأن

موضع النزاع هيّن رفيق . أفكلٌ مواضع الخلاف ، على كثرتها وتفرّق مذاهبها ، حقيقٌ بأن يصل العنفُ فيه إلى أقصى مَداه ، وينتهى إلى غاية مُنتهاه ؟

اللهم إن من البديه أن التهَمة ، إذا كانت هنالك تُهَم ، من المَقولات بالتشكيك ، على تعبير أصحاب المنطق . وهى فى باب السياسة تنتهى بخيانة الوطن (والعياذ بالله) ، وتبدأ بالتفريط اليسير فى اليسير من الحقوق العامّة . وبين هذين الحدَّيْن مراتبُ كثيرة . ولكننا تعوّدنا أن نَسِم كلّ هـذا بمِيسَم واحد ، ونطبعه بطابَع واحد ، ونُجرىَ القولَ فيه بدرجة سواء !

ومالى وللسياسة وكتّابها ، فذلك شىء قد نترْتُ منه يدى من زمان بعيد . ولا والله ما قصدتُ — وأنا أُصيبُ من هذا المعنى— صحفاً بأعيانها ، ولا تَمَثَّل لى كاتبٌ بشخصه ، فلقد أضحت هذه الخَلَّة من عموم البلوَى ، على تعبير جماعة الفقهاء .

ولقد تزعم أننا فى كِفاح سياسىٍّ عنيف ، ومن شأن هذا الكفاح أن يُرْهِفَ الأعصاب ، ويُحِدّ الأقلام ، ويُثير فى النفس أعنَف الشهوة إلى الخَصم والفَلْج — لقد تزعم هذا ، ولقد أستريح إلى هذا الزعم معك ؛ فلنترك السياسةَ ولنترك السّاسةَ يَمضون لِطيّاتهم راشدين . ولنتحوّل إلى غير هذا من مقامات البيان التى لا شأن لها بالسياسة ولا شأن للسياسة بهـا : سَرِّح نظركَ فى أىّ جدل دينى أو علمى أو فنى ، فإنك لا تُصيب إلا عُنفاً و إلا حدّةً فى منازع الجدل والحِوَار !

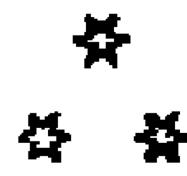
ثم تعالَ نطالع المسرحَ المصرى ، فإننا لا نكاد نسمع منه إلا هَدّة الهَدم ، ولا نشاهد فيه إلا مَسيلَ الدماء وتسعُّر النيران . هكذا يؤلِّف الكاتبُ المسرحىّ غالباً ، وهكذا يَختار المترجِمُ للمسرح المصرىّ من فنون (الروايات) !

وهنالك شبان ناشئون يُعالجون وضعَ (الروايات) القصصية . أفرأيت فيها ، فى الكثرة الكثيرة ، إلا المآسى ، و إلا أعنفَ المآسى وأحدّها، من ثُكل الولد ،

وموت الخطيب ، وفِرَار العروس ، وخراب الدور العامرة ؟ فإذا كان هناك هوًى وصَبابةٌ ، فخذ ما شئت من أقسى المعانى وأشدِّها ، ومن أعنف الصور وأحدِّها . وعلى الجملة ، فأنت لا تكاد تَرَى فى صُوَر أدبنا المختلفة إلاّ مظاهرَ تلك العصبية التى غَشِيتنا جميعاً فى هذه السنين !

وإنى لأذكر أننى دُعيت لتقدير الدرجات فى بعض الامتحانات الخاصّة فى مادّة الإنشاء . وكان الموضوع المطروح على الممتحَنين لا تَستدعِى طبيعته جدلاً ولا تَشميراً للقهر والغَلْج . فإذا كان ولا بد ففى ليِّن القول ورفيقه كفايةٌ وغَناء . ولكن لم يرُعنى إلاّ أن أرى الكاتبين جميعاً قد أشَبُّوا حرباً وتمثّلوا وِجَاهَهُم عدوًّا . وسَرعان ما ضَرِيَت نفوسُهم وثارت حفائظهم . فاستحالت الأقلامُ فى أيديهم قَنًا خَطِّيَّةً راحوا يشُقُّون الصفوفَ بها شقًّا ، ويدُقون بها أصْلاب الأقران دقًّا . وما برحوا فى كرّ وفرّ ، وَمَدّ وجَزر ، وهل جاءك حديثُ الطَّرف الأغرّ ؟ ثم تمّ لهم النصر والغَلَب ، ومضى هذا فى تعقب من فَرّ وطلبِ من هرب ، وتجرّد هذا فى استخلاص السَّبْى واستصفاء السلَب ! ! !

ولقد نَبَّهتُ إلى هذا تنبيهاً قويًّا فى تقريرى الذى رفعته إلى وزارة المعارف يومئذ . وعلمتُ بعدُ من كبير فى الوزارة أن الرأى قد اجتمع على لفت أساتيذ الإنشاء فى المدارس إلى ذلك .



ولست أكتُم القارىء أن هذه الحالَ لا بد عائدةٌ على الأدب العربىّ بأبلغ الأخطار . ومن هـذه الأخطار حرمانُ المتعلِّقين بالأدب الاستمتاعَ بكثير من الفنون التى لا تستريح إلاَّ إلى الدَّعَة والرِّفق واللِّين ، كالوصف ، والتحليل ، والكشف ، والتفكيه ، وألوان المداعبات . ولا تنس ، وراءَ ذلك ، تلك المغازىَ

البعيدةَ الرائعةَ التى يَشْكُها الكاتب اللبق النافذ القلم ، فى سَراحٍ ورَواح[1] ، حتى ليخيّل للقارئ أنه لم يَطلبها ولم يتعمدْها ، و إنما هى التى سقطت إلى الطِّرس من عَفو القدَر !

ومن هذه الأخطار الذهابُ بملَكة الوزن والتقدير ، ووضع كل شيء فى نِصَابه ، ومكافأته على قَدر ما يخرج من حسابه . فإن الثائر المهتاج لا يصلُح لتقدير شيء ، ولا يَصح حكمُه على شيء . ومن هنا يتبين كيف تُسيء هذه الحالُ إلى كثير من قضايا العلوم والآداب والفنون . كما تُسيء إلى غيرها من الأسباب الدائرة بين النـاس !

ومن هذه الأخطار أننا أصبحنا لا نَشرَع القلمَ إلا إذا كنا غِضابا . فإذا أعوزَنا الغضب زَرَرْنا على أعصابنا ، وتكلّفنا إرهافَها و إذكاءها لتَعتصر آخرَ ما فيها من جهد ، وتصول بكل ما تملك من سَطوة . وهذا إلى أنه مما يُخبِّث من نفس الكاتب والقارئ بطول التكرار والمعاوَدَة ، فإنه مما يَهدّ منهما ، ويُسرع بالاختلال إلى أعصابهما جميعاً !

وبعد ، فإنه إذا كانت الغايةُ من ذلك الإرهاف والإعناف شدةَ التأثير فى نفس القارئ والسَّطوة بكل مشاعره ، فإن ذلك قد يأخذ فيه أولَ الأمر هذا المَأخذ و يبلغ منه غاية المَدَى . على أنه بعد ذلك لايزال — بحكم التكرار وطول المراجعة — يعتاده ويتألفه ، حتى إذا تطاول الزمن تبلَّد على ذلك العُنف حسُّه ، فلا يُثير فيه كامناً ، ولا يحرك منه ساكناً . فيصبحَ مَثَله مَثَل من تُصْفى بعضُ المخدِّرات فى مبتدإ الأمر نَفسه ، وتُذْكى حِسَّهُ ، وتُحضر ذهنَه ، وتُطَيِّرُ فكره وخياله كل مُطَيَّر . ثم ما يزال يَتخاذل هذا الأثر عنه ويَتزَايل فيه حتى يتفقد

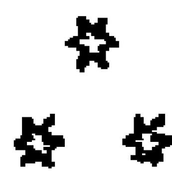
(١) يقال : فعل الشيء فى سراح ورواح ، أى فى سهولة

حالَه المعتادة وطبيعتَه المفطورة ، فلا يجد بعضها إلاّ فى هذا الذى تعوّد . ولقد يدركه العجزُ كله مع هذا فلا يعود يجد من أصل طبيعته ومفطور قوته شيئاً ألبتة !

أفرأيت كيف تجنى الحدّة حتى على نفسها وعلى الغاية التى تُحمَد هى فيها ؟

ثم إنك لقد تَظفَر بإسالة الشُّئون ، وتقريح الجفون ، وتكريش الجلود ، وتصديع الكبود ، حينَ تُشهِد الناسَ طفلاً فرّق الترامُ أجزاءه ، أو شاباً هَوَى فى النيل بعروسه ، أو عجوزاً فقدت ولدَها وحيدَها بعد مَصرَع زوجها . أو بَنيّةً حافلةً بالسكان تَستعِر فيها النار ولا يجد من فيها من الشِّيخَة والطِّفل الصغار مَهرَبا . وغير ذلك مما يقع كل يوم من ويلات الدنيا وأرزائها .

تستطيع أنت وأستطيع أنا ويستطيع كلُّ انسان أن يبلُغ هذا بهذا . ولكن أىّ فن فيه ؟ وأية كفاية لا يُبلَغ إلاّ بها ؟ . . اللهم إن كان مثلُ هذا الضّرب مما يحتاج إلى الموهبة والإصابة ، فكلُّ الناس فيهما بمنزلة سَوَاء ! وهيهات بعد ذلك التفريقُ بين الكاتبِين فى المقدار . ولا يذهب عنك فى هذا الباب أن أجود الطعام وأرداه يستويان ما أَهلْتَ الملح أو غَمرْتَ فى الخردل ونحوه من الحرّيفات !

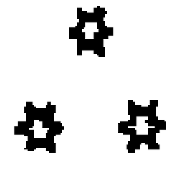


فإلى شباب المتأدبين أوجّه هذه الكلمة (العصبيّة) . وأرجو أن يُنْعِمُوا النظرَ فيها . فإذا صحّت عندهم راضوا النفوسَ على الوداعة والتطامن ، والرجوع إلى الطبع . ومن البلية أن يرتاض المرء ليعود إلى طبعه ويَرجِع إلى أصل فِطرته . فقد قالوا : إن العادة طبيعة ثانية . وإنما توجهت بهذا الخطاب إلى الشباب لأنهم عَتَاد الحاضر وهم ذخيرة المستقبَل ، وهم الأقدرون على منازعة العادة . واللهُ يهدينا ويهديهم إلى سواء السبيل .

رسـالة الأدب !

من الصِّيَغ التى يَكْثُر دَوَرانُها هذه الأيامَ على أقلام المتحدِّثين فى الفنون (رسالة الأدب أو الفن) و (رسالة الأديب أو الفنَّان) . تَشيع هذه الصيغة فى حديث المتحدِّثين فى أسباب الفنون ، ويكثر دورانها على أقلام المتعلِّقين بالآداب منهم خاصة ، شأن كثير من الصِّيَغ والكلمات التى يَعتمدها بعضُ الظاهرين من الكتَّاب لأداء بعض المعانى الطَّريفة يَستحدثونها فى العربية استحداثاً . وهذا فى القليل النادر ، أو يُترجمون بها عن تعبيرات إفرنجية ، وهذا فى الكثير الغالب . وسَرْعان ما تَنتضِح بها الأقلام ، حتى لقد تَنتظِمها أقلامُ نَشْء المتأدبين من غير حساب ، إلى أن تُمَلَّ بكثرة الابتذال ، وإلى أن تفقد معناها بطول تذريتها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ! وإنك ما تكاد اليومَ تشقُّ صحيفةً من الصحف حتى تأخذ عينيك من جميع أقطارِها كلمةٌ من هذه الكلمات الدائرة من نحو (القَدَر الساخر) . أو (يا لَسخرية الأقدار) . و (رسالة الأدب) أو (رسالة الأديب) وغير ذلك مما تراه فاشياً فى رسائل بعض المتأدبين فى هذه الأيام ، حتى يكاد يَشيع فيك الاعتقادُ بأن هذه الكلمات أو تلك الصِّيَغ المستطرَفة هى مادَّة المقال ومِلاكه ، والغرض المقسوم بنظمه والتّشمير فى وضعه وإنشائه . وإن طلبت تعبيراً أبلغ دقَّةً وصراحة ، قلت إنك لا تخرج من النظر فى بعض هذا إلا بالشعور بأن الكاتب لا يَعنى من حديثه شيئاً ، وأنه لم يجتمع لتأليف مقاله ليؤدِّىَ غرضاً ، لأنه لا يتراءى له غرض ، وأن كل ما يُريد من الأمر وما يملِك ، أن يُزجى طائفةً من الصيَغ والكلمات الطَّريفة التى أَثَرها عن بعض مشهورى الكتّاب !

هذا غرضٌ يدلُّك بنفسه على مَنجَمه ، ويَهديك ، فى غير عُسر ، إلى جوهر علّته . وهى لا تعدو ، فى الغاية ، إرخاصَ الأدب وتيسيرَ انتحاله لمن شاء من أهون سبيل . وليس أدَلّ على هذا ولا أبلغَ فى الاحتجاج له من شيوع هذه الكلمة التى اتخذناها موضوعاً لهذا المقال ، أعنى (رسالة الأدب) ، وكثرةَ دَورانها على الأقلام !



وبعـد ، فهل للأدب ، أو للفن على جهة العموم ، رسالة ؟ وما رسالته التى يُحمِّلها الأدباء أو المفتنّين ؟

هذه كلمة فيما أعلم جديدة ، أعنى أنها لم تَقَع لى فى كل ما قرأت للمتقدّمين . فإذا كانت مما سبقت به الأقلام ولكنها لم تواقفنى فى كل ما أرسلتُ فيه النظر ، فإن علمى بها على ذلك هو الجديد

وكيفما كانت الحال ، فإنه ما خَفَق معنى هـذه الكلمة فى ذهنى إلا راعنى وتعاظمنى ، فأسرعت إلى ردّه عنه وتوجيه القول فيه على لَغو الحديث ، وأحلته إلى ذلك الضَّرب الشائع من الألفاظ فى هـذه الأيام ، لا يَضبط معنى من المعانى ، ولكنه يُبذَر فيه على الطِّرس بذراً ، قصداً إلى محضِ التزَيُّد والإطراف

وقبل أن يَهولك منى هذا الكلام ويروعك ، أرجو أن تُطيل النظر والتدبير فى معنى (رسالة العلم أو الفن) ، وقولهم : (إن فلاناً أدّى رسالة الأدب أو الفن) ، فإنك إذا نزلت من فورك على الحقائق اللغوية ، استحال عندك أن يكون لشىء من الأدب أو الفن أو ما يجرى مجراهما رسالة يحمِّلها الناس أو غيرَ الناس ، إنما يُبرِد البُرُد ويبعث الرسل من له عقل وإرادة ورأىٌ فى تصريف الأمور ، وليس للأدب ولا لسائر الفنون حظٌّ من هذا ، بالضرورة ، كثيرٌ ولا قليل !

لم يبق إلا أن تعود بالتجوُّز باللفظ والانحراف به عن أصل موضوعه ، وتصير به إلى المعنى الأشكل بمراد البلغاء ، ما دامت علائق المعانى تأذن لك بهذا التجوُّز

والانحراف ، وهنا يتمثّل لك الفنُّ فى صورة العاقل المريد القادر على التدبير والتصريف . وتتمثّل له رسالةٌ يتقدّم إلى المفتَن بتبليغها إلى من يشاء أو إلى ما يشاء من العالَمين . وأنت خبيرٌ بأنه ليس للفنّ لسان يُترجِمُ به عما يُريغ من فنون الأغراض . فكيف الحيلة فى أن يتقدم إلى الرسل بتبليغ ما شاء من الرِّسالات ؟

اللهم إن له من أسباب البيان ، ما هو أفصحُ وأبينُ من تعبير اللِّسان . بل إن له على رُسله من السلطان ما لا يُقاس به سلطان ، إن له تلك السَّطوة الساطية التى تُـكرِه المفتنّ إكراهاً وترغمه إرغاماً على أن يؤدى رسالَته لا يستطيع لأمره معصية ولا يجد منه سبيلاً إلى الفِرار !

لقد تَعتلِج الصور الرائعة فى نفس الفنّان ، ولقـد تزدحم فى صدره وتَقوى وتشتدّ فى طلب المفيض والمتنفَّس ، ولا تزال كذلك حتى تتفصّد عنه ، ما يكاد يجد فى حقنها حيلةً أو يكون له فى تفصُّدها خيار ، فهو فى شأنها منفعل أشبه منه بفاعل ، إذا صح تعبير أصحاب الفلسفة فى مثل هذا المقام .

هذه رسالة الفنّ ، وكذلك يؤديها الفنّان !

ليست رسالةُ الفنون إذن شيئاً من تلك الأشياء التى تتعلق بها إرادة المرء حرًّا تامّ الاختيار ، يُورِدها إذا أراد ، ويُصدِرها حيثما شاء ، ولكنها كما زعمتُ لك قوةٌ قاهرةٌ لا يكاد يكون له بمورِدها ولا بمصدرِها يدان . بل إنه بمجرد أداة لتصرّفها لأشبه منه بفاعل متأنّق مختار . ولولا أنه إنسان يمشى ويُريد ويتصرّف فيما يَتصرّف فيه الأناسِىُّ لحق أن يضاف فى هـذا الباب إلى خَلْق من ذلك الخَلْق الذى يَصدُر عنه كثيرٌ من أسباب اللذة والمتاع ، لا إرادة له فى شىء منها ولا تدبير ! بل لقد يَصدُر عنه من ذلك ما يَصدُر ، ما له فطنةٌ إليه ولا شعور به ولا إحساس ! وليت شعرى هل يدرى الهَزَار بما يصنع ، ساعةَ يَشدو ...

ولَيت شِعْرى هل تجتمع له نية وأرَب ، فى أن يُشيع ترجيعُه فى نفوس الخالين اللذّةَ والطرب ، أم أراد بتغريده وشَدْوِه ، ما يُذكى من لوعة الصبّ ويَهيج من وجده وشَجوِه ؟ وهذه الزهرةُ أتحسبها قد أشرقت لتتبهّج لعين الناظر ، وتنفست بالشذَا لتنفثُ السّحر فى أنف العاطر[1] ؟ وقلْ مثلَ هذا فى البدر إذا تألق ، وفى الغَدير إذا ترَقرق . فإذا صَدَرت عنها روائع الآثار ، فما كان لشىء منها هوًى فيه ولا خيار

ومما يتصل بهـذا المعنى ما زعمتُه فى بعض مقامات الكلام[2] من أن من الشعراء ، وأعنى بهم بالضرورة من يستحقّون هذا الاسم ، من تتخطّى شاعريتُهم أُفْقَ مداركهم ؛ فتراهم يُصيبون من المعانى ما لا تَتعلق به ، فى العادة ، أذهانُهم ، حتى لو راجعتَهم فى بعضها ، وقد آبوا إلى أنفسهم ، لاحتاجوا فى تفهّمها إلى مطاوَلة وجهد فى الاستخبار !

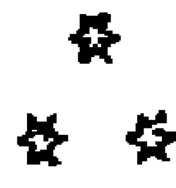
ذلك بأنهم لم يَصنعوا مثل ذلك الشعر صنعاً ، ولا جاءت روعتُه من التشمير فى التّجويد والافتنان ، ولكنه فَيضٌ يُفاض على الشاعر من عالم الغيب فيتحرّك به لسانُه ، أو تجرى به على الطِّرس بنانُه ، لا أقول نزل به جبريلُه ولكن وسوس به شيطانُه !

ولعلّ هذا المعنى يفسر لنا ما كان يزعم العرب من أن لكل شاعرٍ شيطاناً يُلهمه الشعرَ ويُفيض به عليه ، كأنه حين تَعاظَمهم أن يقع للشاعر من فُنونِ المعانى ما لا يتّسق ، فى العادة ، لفكره ، ولا يَتعلّق به ذهنه ، راحوا يلتمسون المصدَر من عالم الغيب ويَصلونه بما وراء آفاق الحس ، ففرضوا لكل شاعر شيطاناً يُسدِى

(١) العاطر : المحب للعطر

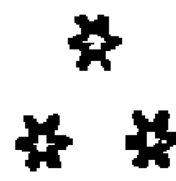
(٢) راجع ما كتبناه عن المرحوم شوقى بك فى كتاب « المرآة » وفى هذا الـكتاب

بدائعَ الكلم إليه ، ويُفيض بروائع الحكم عليــــه ! والله أعلم !



وبعد ، فليس هناك شك فى أن زعم العرب ذاك خُرافةٌ من الخُرافة . ثم لقد ترانا من ناحية أخرى قد غَلَونا فى توجيه كلمة (رسالة الفن) على المعنى الذى وجهنا ، وأن أمرها أرفق من ذلك وأهون . وليكنْ لك ، فى هذا ، من التقدير ما تحبّ ، على ألاّ تبالغَ فى إرهاق الأفهام ، ولا تغلو فى النشوزِ على ذَوق الكلام . فإنك مهما تجهدْ فى الأمر وتتلطف فى الاحتيال له لواجدٌ للفن رسالة يريد ، على أية صورةٍ من الصور ، وبأية كيفية من الكيفيات ، تبليغَها للناس ، أو على الأقل لمن يجرى منهم على عِرْق فى ذلك الفن . وأن هذا الفَن قد اصطفى من بين أهله فلاناً ليبلّغَ رسالتهُ ففعل

ليكن لك ما تريد من تصوير الكيفية التى يحمّل بها الفَنُّ أولئك المصطفَيْن رسالتَه ، ويَقتضيهم أداءها إلى من بُعثوا فيهم من العالمين — فإنك على أَنْيَنِ تقدير لتجد الخطب جليلاً كلَّ جليل !



رسالة الفن ! هذه لعمرى كلمةٌ إذا كان لها مدلول يتصل بالواقع ، فمدلولُها على كل حال غالٍ ثمين . تالله ما كانت رسالة الفنّ ، إذا حق أن يكون للفنّ رسالة ، بالشىء المرتخَص المبتذَلِ فى الأسواق يشتريه من شاء بأوكس الأثمان ، ولا هو باللَّقَى(١) على عِذارَى الطريق يتناوله من شاء ويطرحه فى حيثما أراد !

رسالة الفن ! كلمة كبيرةٌ سواء أُجرت على معنى استحداث الأحداث فيه ، أم على معنى إيتائه بجليل مطالبه ، أم تجليَته فى أبرع صورة وأروعها — ليس مدلولها الجِد على أىّ معنى من هذه المعانى وجّهته ، بالذى فى يد المتناوِل ولا بالذى

(١) اللقى بفتح اللام والقاف : الشىء الملقى المطروح

على طرف الثُّمام[1] كما يقولون ، إنما هو شىء شامِس[2] عصىّ لا يَذِل ولا يسلَس إلا لمن آثره الله تعالى بالمواهب العظام !

هنا يُخيَّل إلى القارئ الجادّ الذى لا يعرف أن الألفاظ قد تَعبَث وأن الصِّيَغ قد تُعربِد أن مصر قد استوى لها فى هذا العصر آلافٌ من العبقريين الذين اصطفتهم الفنونُ لأداء رسالتها فأدَّوها على خير الوجوه ، وما للقارئ الجادّ ، أو على الصحيح القارئ الذى يَقدِر الجِدّ فى جَمْهَرة الكاتبين ، لا يرى على هذا أن مصر كما تُخرج الحَبّ وتجودُ بالقطن ، أصبحت كذلك تخرِج ، ولكن عفواً بلا بَذْر ولا سَقْى ولا تعهُّد ، آلافَ العبقريين الذين يَحملون إلى العالم رسالاتِ الفنون ؟ وكيف لا يرى هذا وهو لا يبسُط بين يديه صحيفةً إلا زَحَم نظرَه أسماء الحشْد الحاشد من هؤلاء الموهوبين الذين يَشتعِبون أقطارَ البلاد حاملين بريدَ الفنون إلى أصحاب الفنون ؛ على أنك لو اطَّلعت على كثير من هذه الصحف المنزَّلة على أولئك الرسل ؛ بل لو قد اطَّلعت على أكثرها الكثير لما شككتَ فى أن الألفاظ قد انحرفت عن معانيها بقدر كبير ، حتى إننَّا لو اطَّردنا فى إجالة مثل هذه الصِّيَغ سَنُصْبِح بعد قليل من الزمن فى أشد الحاجة إلى نقض معجماتنا اللغوية لنقيم من جديدٍ كل لفظ بإزاء معناه الطَّريف ، وإلا اضطربت الأفهام ، واختلّ ميزان الكلام .

لقد قلتُ فى بعض هذا المقال إن العلةَ فى هذا لا تعدو فى الغاية إرخاصَ الأدب . ولقد تعلم أن هذا الأدب قد تيسَّر انتحالُه لمن شاء ، وحسبُ المرء فى تقلُّده أن يَتكثَّر فى المقال بطائفة من تلك الألفاظ والصِّيَغ الطَّريفة الدائرة ، وما دام هذا سبيلَ المرء إلى ادِّعاء الأدب وانتحاله ، فلا شك على هذا القياس فى أن الترقى

---

(١) الثمام بضم الثاء : نبت ضعيف لا يطول ، كلمة تقال للشىء اليسير الذى لا يتطلب الحصول عليه أى جهد .

(٢) الشامس : الممتنع الأبىّ .

إلى مقام العبقريةِ وحمل رسالة الأدبِ يُغنى فيه أن يَطبع كلاماً منثوراً أو منظوماً يَذهَب به إلى أىّ غرض أو لا يَذهَب به إلى غرض ألبتة . وله بعد هذا أن يُضفى عليه ما شاء من النعوت والألقاب ، وأن يستحيل فى طرفة عين من حَمَلة رسالات الفنون والآداب !

فاللهم إذا كان هذا هكذا ، وهو كذلك مع الأسف العظيم ، فويلٌ للآداب وويلٌ للفنون فى هذه البلاد*

---

* نشر هذا المقال ومقال (فى النقد الأدبى) فى مجلة الهلال .

خيـــال الشاعر

بين الطبع والصنعة*

لعلَّ من الفضول أن يقول قائل : إن الشاعر يَتكئُ أكثر ما يَتكئُ فى فنّه على الخيَال . أما العالِم فوجهُه كلُّه إلى الحقائق مادية كانت أو معنوية ، ذاتية كانت أو نسبية . نعم لقد يكون هذا من فضول الكلام إذا قُرِّر لذاته . ولكنه يَرتفع عن هذا الموضع إذا سِيق لتوجيه بعض القضايا التى قد تَدِقُّ على كثير أو على قليل من الأفهام . ولعل الموضوع الذى نعالجه اليومَ من هذا الطِّراز

و بعد ، فإذا كان شعر الشاعر إنما يَتكئُ أكثرَ ما يَتكئُ على الخيال ، فاعلم أن هذا الخيال مهما يَغْلُ ، ومهما يُحلِّق و يرتفع ، ومهما يَستحدِث و يَختَرِع ، ومهما يلوِّن من الألوان ، و يُشكِّل من الأشكال — فإنه مُستمدٌّ فى تصرّفه جميعه من الحقائق الواقعة . مبتدئٌ لا بد منها ، منتهٍ لا مَفرّ فى الغاية إليها . فمن الحقائق الواقعة مادّته ، وهى مُستعارُه فى كل ما سوّى وفى كل ما صوّر وشكَّل ولوّن

وذلك بأن الإنسان مهما يُرزَق من شدة العقل و يُؤتَ من قوة الخيَال ، لا يستطيع أن يتصوّر شيئاً لم يقَع عليه حِسُّه . وكيف له بهذا والحسُّ وحدَه هو السبيلُ لا سبيلَ غيره إلى إدراك الإنسان ، و إلى إدراك الحيوان . فدُنيا الحيوان هى ما يُحيط به و يَشهَدُه فى مُضطرَبه لا أكثر ؛ ودُنيا الإنسان فى الواقع ، هى ما يَرى وما يَسمَع ، وما يُدرِك من الحقائق بسائر الحواسّ الأخرى ، وليس يعدو العلمُ من طريق القراءة حاسّتى السمع والبصر ، بل إن هذا الإنسان نفسَه لو قد كُفَّ من أول مولده

* نشرت فى مجلة الرسالة فى يوم أول أكتوبر سنة ١٩٣٤

فى مَحبِس لما قدّر أن دنياه شىء غير ما هو فيه ، وما يَتّصل من الأسباب بما هو فيه ، ولقد يَعمِد ذهنُه إلى التقصّى ، ولقد يتبسّط فى القياس ، ولقد يَذهب فى إدراك ما لم يشهد إلى قريب أو إلى بعيد ، ولكنه فى النهاية لن يقع على جديد لا يتصل بمحيطه ، ولا يرتبط بأسبابه[1]

لك الحقُّ بعد هذا الكلام فى أن توجّه هذا السؤال : إذا كان الخيال لا يمكن أن يَعدو الواقعَ الذى يُدركه الحسّ فما الفرق بينه وبين الحقيقة ؟ أو ما الفرق بين أخيِلة الشعراء وبين حقائق العلماء ؟

لقد تُوجِّه بادىء الرأى هذا السؤال ، على أنك لو فكّرت وتدبّرت لبَان لك الفرقُ بينهما دون جُهد فى التفكير والتدبير : فالعالِم إنما يَطلب الحقيقةَ كما هى ، سواء أكان ذلك بأخذها كما قرّرها مقرّرُوها ، أم باستظهارها أم باستكشافها ، أم بنحو ذلك من وسائل إصابتها والتهدّى إليها . أما الخيال فإنه يَعمِد الى الحقائق الواقعة فيتناولها بالتأليف والتلفيق ، ويأخذها بالتشكيل والتلوين ، حتى تَستوِىَ له منها صورةٌ توائم فى قوتها وروعتها وتناسقها حظَّ مسوّيها من قوة التخييل ، وجَودة الصنعة ، ودقّة الذّوق ؛ والعكس فى العكس

فقد بان لك أن الصورة المتخيَّلة مهما يَغْلُ فيها صاحبها ويُطرِف ، ومهما يُبعِد بها عما طالعه الفكر ، فإنها مشكَّلة من حقيقة واقعة ، أو ملفّقة من حقائق واقعة . ولست أُصيب مثلا لتوضيح هذا الكلام أحسن مما أجراه أصحاب المنطق من التمثيل للممكن العقلى (المستحيل الوقوعى) بقيام جبل من الذهب ، وتموّج بحر من الزّئبق . فذلك وإن كان غير واقعٍ بالفعل ، مما يمكن إيقاعُه فى الذهن بالتلفيق والتشكيل : فالجَبَل موجودٌ والذهب موجود . والبحر كائن والزّئبق

(١) سبق للكاتب أن ألم بهذا المعنى إلماما يسيراً فى بعض ما كتب من الرسائل

كأن . وكل سَعْى الخيال فى تجلية مثل هذه الصورة هو استعارة هذا المعدن لذلك الجِرم ، فيكون جبَلُ الذهب ، ويكون بحرُ الزِّئبق

كذلك تستطيع أن تفرق بين الشاعر والعالم ، بأن الشاعر فى الجملة ، مُعطٍ ، أما العالم فى الجملة فآخذ : الشاعرُ يَبتكر ويَستحدِث بقلب الحقائق والتلفيق بينها وافراغها فى غير صوَرها وتلوينها بغير ألوانها . أما العالم فأبلغُ جهده فى تلقِّى الحقائق . فإذا كان له فيها استحداث أو ابتكار فبمجرد الانتفاع بما انكشف له فيها من الآثار ، وما جُلِىَ عليه من مَكنون الأسرار

ولقد علمتَ أن الشاعر إنما يتكىء فى فنه أكثرَ ما يتكىء على الخيال ، حتى لقد ذهب أكثرُ النقدة الى أنه ليس شعراً ذلك الكلامُ الذى يجرى فى الحقائق المجرَّدة وإن كان مقفًّى موزوناً . ولقد عرفتَ أثر الخيال فى تلفيق الحقائق وتزييفها وطبعها على غير صوَرها الواقعة . لهذا نَفَى الله تعالى أن يكون كتابُه الحكيمُ شِعراً ونَفى أن يكون رسوله الكريم شاعراً : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ) . (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ) يردُّ جلَّ مجدُه بهذا و بغيره دعوى الكفار أن القرآن شِعر ، على معنى أنه من تلفيق الخيال وتزييفه ، كما ردَّ دعواهم أنه سِحر ، والسحر ما يوارِى حقائق الأشياء ، ويجلوها على صور تتمثل للأوهام بخداع الأسماع والأبصار : (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) إنما الكتابُ كله حق وصدق ومنطِق صحيح (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ) . وهذا هو الأليق بحجة الرسالة ، وآيات الله المَعْلِمة على طريق الهدى وعلى طريق الضلالة

ومن البديه أن الشعراء لا يُطلِقون أخيلتهم فى فنون المعانى لمجرد العبَث بقلب الأوضاع ، ومسخ الأشكال ، والتلفيق بين الحقائق . إنما الغايةُ كلُّ الغاية أن

تجلو عليك هذه الأَخْيِلةُ صوراً طريفةً بديعةً لهذا الذى أدركته من الواقع ، أو تُترجِم لك عما يَدِقّ عن فهمك من معانيه ومغازيه ، أو تكمل لك وتبسُط بين يديك ما ترى أن الطبيعة قد قصّرت فيه واقبضت دون حَبكه وتسويته ، ونحو هذا مما يُرهف الحسّ ، ويُمتع النفس بمطالعة صورة من صُوَر الجمال الفنىّ فى أىّ وضع من أوضاعه ، وعلى أىّ شكل من أشكاله .

ولا شك فى أن أبدعَ هذه الصور وأروعها ، وأذكاها للحسّ ، وأجملها موقعاً من النفس ، هى أدقها حَبكاً ، وأحكمها سبكاً ، حتى إذا طالعتَها التبست عليك بالحقيقة أو إنها لتكاد . وهنا تتفاوت منازل الشعر بتفاوت الشعراء فى قوة التخيل ، ورَهافة الحسّ ، ودقّة الصّياغة ، وبراعة الأداء .

وفى هذا المقام يجمل أن نوضح معنى لعله يَحتاج عند الكثير إلى التوضيح . قال المتقدمون : إن أعذبَ الشعر أكذبُه . وهذا كلام صحيح إذا اتجه على أن أعذب الشعر ما كان من نَسج الأخيلة لا ما وقع على مجرّد تقرير الحقائق الثابتة . ولكننا إذا تحوّلنا بالنظر إلى ناحية أخرى من نواحى هذا الموضوع رأينا كذلك أن أعذب الشعر أصدقه : ولسنا نَعنى بالصدق هنا المطابقةَ للواقع ، على تعريف أصحاب المنطق ، وإنما نريد به الصدقَ فى الترجمة عن شعور الشاعر . فأعذب الشعر فى الواقع هو الذى ينفُض عليك ما يَعتلج فى نفس الشاعر ، وما يتمثل لحسه فى إدراكه للأشياء

ولا يذهب عنك أننا نحن سوادَ الناس تَعرِض لنا الأشياء فندركها ، فى الغالب ، كما هى ماثلة لأعيننا أو لأذهاننا . وهذا الإدراك لا يتعدّى ظاهرَ الصُّوَر . أما الشاعر ، وأعنى به من يستحق هذا الاسم ، فله نظرةٌ نافذةٌ فى مَطاوى كثير من الأشياء تُسلِكها دقةُ حسّه ، وهنا يتقدّم خياله السَّرِىّ فيسوّى منها صورةً جميلةً

بارعة . فإذا وَاتَتْهُ قدرةُ النظم ، فأدّاها كما أدركها ، وجَلاَها كما تَمثّلت له ، خرجت على حظ من الإحسان والإجمال يوائم حظّه من قوة الخيـال ، ودِقّة الذوق ، وحسن الأداء

والشعر الذى تتوافر له هذه الخلال هو الشعر الذى يروعك ، و يَصقُل حسّك ، وقد يَغمِز على كبدك ، لأن الشاعر قد رفعك به إلى نفسه ، فأشهدك ما لم تكن تَشهد . وكشف لك من دقائق الأشياء عما لم تكن ترى ، و بعث عاطفتك فحلّقت فى عالم الرُّوح كلَّ مُحلِّق ، وتَرقرقت فى سَرحات الجمال كل مترقرق

وأعود فأقول لك : إن الصورة الشعرية ، فى هذه الحالة ، و إن كانت خيالاً فى خيال ، إلا أنها لقوة موقعها ، ودِقة صُنعها تشبه عندك الصور الواقعة ؛ بل لقد تلتبس عليك بالحقائق الثابتة . وكيف لا يكون لك فى نفسك هذا الأثر ، وهى نفسُها قد تمثلت لإدراك الشاعر واضحةً سويّة ، فى غير تعسر ولا تعمُّل ، فَنَفَضَهاَ فى الشعر عليك كما تراءت لذهنه ، وتمثَّلت لحسه .

أرجو أن يكون قد صح عندك الآن أن أعذب الشعر ، من هذه الناحية ، أصدقه لا أكذبه .

الصناعة الشعرية :

ولست أعنى بالصناعة هنـا إلا صناعة الخيال . فإنه إذا كانت الصناعات البديعية ، لفظية وغير لفظية ، قد أساءت إلى الشعر العربىّ إساءة بالغة ، فإن الصنعة الخيالية لقد كانت فى الإساءة أشد وأبلغ . وتلك أن الشاعر أو من يتصدّى لقرض الشعر ، على العموم ، لا يشعر شيئاً ولا ينفُذ حسه إلى شىء . فيبعَث خياله من مَجثَمه ، ويَستكرِهه استكراهاً على أن يَصنَع له صورةً شعرية ، فيمشى متعثراً ههنا وههنا فى الارتصاد لما عسى أن يَسنَح له من المعانى واقعة حيث وقعت . حتى إذا لاح له شبَحُها ، شكّها ولو لم يَتبيّن شخصَها . ثم جعل يعالجها بالترويض

والتذليل، ويُضيف إليها ما ظنه من جنسها، أو ما حَسِبه مما يلابسها. ويَطبَع من هذه الأَمشاج صورةً شعرية (والسلام)، صورةً لا الشاعر أحسها من أول الأمر أو تذوّقها، ولا من يقرؤه شعَر بالإلف لها، أو ذكا حسُّه بها!

وهذا الخيال المصنوع المتعمَّل المجهود به ليس من الشعر فى كثير، وهذا على أرفق تعبير. بل إنه لأشبه بصنعة النجار أو الحداد فى بسائط المصنوعات. بل إنه كثيراً ما تخرج الصورة الشعرية ملتوية شائهة، تخفَى مَعارفُ وجهها على ناظمها، فكيف بقارئيه؟ وعلى عينى أن أقول إن شيئاً من هذا يقع فى بعض ما نقرؤه من شعر هذه الأيام!

ودعنا من الحديث الآن حتى نفرُغ من شأن القديم. وخبرني بعيشك: أى شىء هذا الذى ساقه علماء البلاغة شاهداً على حسن التعليل؟

لو لم تكن نيةُ الجَوْزَاء خدمتَه لمَا رأيتَ عليها عِقدَ مُنتطِق

وقول الآخر فى هذا الباب أيضاً:

لم تَحْكِ نائِلَكَ السحابُ وإنما حُمَّت بهِ فَصبيبُها الرُّحَضاء[1]

اللهم أفكان من السائغ فى العقل أو فى الذَّوق أو فى الخيال أن نظرة الشاعر للجَوزاء تحيط بها دِقاق النجوم لم تلهمه إلا أنها إنما تَمنطَقتْ لتقوم على خدمة ممدوحه؟

وهل كان من السائغ أن نظرة ثانى الشاعرين فى السحاب وهى تَهمِى، لم تُشعِره إلا أنها غارت من كرم ممدوحه لقصورها عن مجاراته، فأخذتها الحُمَّى، فلم يكن ما تسُح به إلاَّ من عرَقها!

اللهم اشهد أن هذا وهذا كلام بارد مليخ[2]، وهذا وهذا من الخيال الفَسْل[3] السخيف!

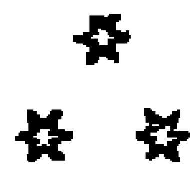
(١) يقال رُحض المحموم: أخذته رُحَضاء الحُمَّى، وهى عرَقها (٢) أى فاسد وضعيف
(٣) الفسْل: بفتح الفاء وسكون السين: الضعيف الذى لا خير فيه

وبعد ، فهذه فسولة الكلام وسخفه إنما ترجع فى قرض الشعر ، فى الجملة ، إلى أحد شيئين : إما لأن الناظم لا طبع له ولا شاعرية فيه ، فهو يتصيّد الخيال تصيّداً ويَصنعَه صنعاً ، ليجيء بنحو ما يجيء به الشعراء . وإما للرّغبة فى شدة المبالغة ، والإيفاء على الغاية من المديح ونحوه ، فيُسِفّ الشاعر ويَسْخُف ، ويأتى بمثل هذا الهذيَان الذى أتى به ذانك الشاعران . إلى أن طبيعة هذه الموضوعات ليس فيها مجال عريض لشعور صحيح ، ولا لخيال واضح صريح . والحمد لله الذى عَفَّى على كثير من هذا الأدب فى العصر الذى نعيش فيه .

وانظر ، بعد هذا ، كيف يقول زُهَير بن أبى سُلمَى فى مدح هَرِم بن سِنان ووصف كرمه ، وكيف ، على أنه غلا فى ذلك أشد الغلوّ ، أتى لهذا الكرم بصورة قوية مسبوكة سائغة :

قد أحدث المبتغون الخيرَ من هَرِمٍ والسالكون إلى أبوابه طُرُقا
من يَلقَ يوماً على عِلاَّته هَرِماً يَلقَ السماحةَ منه والنّدَى خُلُقا

وذلك لأن ممدوحه كان جواداً حقًّا ، وأنه هو تأثر بشدة جوده حقًّا ، وهو إلى هذا شاعر فحل ، خِصْب الذهن سرىّ الخيال ، فلم يَتعمَّل ولم يَتعسّف . بل لقد انتَضَح شعرُه بالصورة التى جادت بها شاعريته ؛ فجاءت ، على إمعانها فى الغُلوّ ، سائغةً مسبوكةً لا نشوز فيها على الأذواق . وهذا هو الفرق بين الخيال المطبوع ، وبين الخيال المصنوع .



ولقد عَرَض ذكر الذّوق فى بعض هذا الحديث . وللذوق محلُّه غير المنكور فى الشعر وفى غير الشعر . ولقد كان ينبغى أن نفصّل القولَ فيه بعضَ التفصيل لولا أن طال بنا الكلام . فلنرجئ هذا إلى مقال آخر .



أمير الشعراء المرحوم احمد شوقى بك

شـــوقى . . . !

بمناسبة ذكراه الثانية*

لقد خَرج فى هذه الدنيا شعراء ما أحسب أحداً منهم كان يستطيع ألاّ يكون شاعراً . لقد تتّصل الشاعريةُ بالطبع والجِبلّة ، وليس بمَلْك المرء أن يخرج عن جبلّته وطبعه . ولست أجد مثلاً أضرب به لهذا الطراز من الشعراء أبلغ من أبى نُواس فى الغابرين ، وأحمد شوقى فى المحدَثين . وأغلبُ اعتقادى أن الشاعر من هؤلاء حين ينزل عليه الشعر لا يَقدِرُ على صرْفه عنه ، أو حبس لسانه أو قلمه عن الجَرَيان به ، إلا برياضة ومطاولة وجهد

هؤلاء يَطلبهم الشعرُ أكثرَ مما يَطلبونه ، ويَتغشّاهم البيانُ أكثرَ مما يَرتصِدون له ، ويَتجرّدون فى إصابته

وبحسبك أن تطالع دواوين شوقى — والحديثُ فيه اليوم — لتعلم أنه لو كان رُزِق أعظمَ حظٍّ من العزم والقوة والجَبَروت ، ما كان لِيقوَى على كتم شاعريته الفائضة الجيّاشة . وهيهات للسدّ بالغاً ما بلغ من المتانة والمناعة أن يَكُفّ النيلَ عن جَرَيانه ، وأن يَكبح ، إذا طَغَى ، من طُغْيانه !

تقرأ شعر شوقى ، فتتعاظمُك هذه الكثرةُ الكثيرةُ من فاخر الشعر وبارع الصنعة وروائع البيان . ويذهب العَجبُ بك كل مَذهب ، وتروح تتساءل : أية قوة بدنية هذه التى احتملَت كلّ هذا المجهودِ الفكرىّ ؟ وكيف تهيأ لهذا الرجل أن يعيش ما عاش ؟ ! . . .

* نشرت فى مجلة (الرسالة) فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤

والواقع الذى لا يتداخله الشك أن شوقى لم يكن على حظٍّ كبيرٍ من صحة البدن ، بل لقد تستطيع أن تقول إنه كان رجلاً مضعوفاً مختلَّ الأعصاب من أول نشأته . فإذا طلبتَ السرَّ فى شأنه ، فالسرُّ كله فى أنه لم يكن يجهَد فى قَرْض الشعر ، لأنه لا يَكلَفه[1] ولا يتعمّل كما قلت لك ، فى طلبه ، ولا يُرهِف فى ذاك حسًّا ولا يحدُّ عصباً ، إنما هو الينبوع يَنبثِق فيجرى الماء دَفقاً ما يحتاج إلى مَتْح ماتح

نعم ، لقد كانت تكاليف الحياة تقتضى شوقى كما تقتضى غيرَه أن يستفتح الشعر ويبعثه فى مديح ، أو رثاء ، أو تهنئة ، أو فى غير ذلك من الأسبابِ الخاصةِ أو العامة التى لا يرى بُدًّا من القول فيها . على أنه لا يكاد يُقبِل على صناعة الشعر فيما طلبه ، حتى تتحرك شاعريتُه ، فتجرّه عما هو بسبيله جرًّا ، وتملِى عليه هى ما تشاء أكثرَ مما يُملى عليها هو ما يريد . ولست أطلب فى هذا دليلاً أبلغ من أن شوقى لم يَمدح أحداً قَدرَ ما مدح سمو الخديو السابق . على أنه حين جرّد تلك القصائدَ من ذلك المديح ليُدخلها فى ديوانه ، ظلّت سَويّة قوية رائعةً بما فيها من رقيق غزل ، ومن بارع وصف ، ومن بالغ حكمة وجليل مَثل ، كأن لم تَفقِد شيئاً ، ولم يُعوِزها شىء ! . .

إذن كان شوقى شاعراً مطبوعاً أتمَّ طبع ، سريًّا أجزلَ السَّراء ، موفّقاً إلى أبعد غايات التوفيق

تصرَّفَ فى فنون الشعر كلها فما ضعف قط فى واحد منها ، بل قلَّ أن يَتعلّق بغباره فى أى باب من أبواب القصيد شاعر . اللهم خَلاَ الهجاء ، فلم يُؤثَر عنه فيه بيتٌ واحد . ولعل ذلك يعود ، كما قلت فى (مرآته) ، إلى لطف نفسه ، وأنَفته من أن يُشهِّر الناسَ ويطلب معايبهم ، أو لعله يعود إلى الخوف والوَرَع من أن يَزيد فى ثورة خصومه به ، أو لعله فَطَن إلى أن الزمان سيعفِّى على هذا الضَّرب

---

(١) يقال كلف الأمر : حمله على مشقة

الحقير من الشعر . وما أحسبه لو عالجه إلا مُوفياً فيه على الغاية والإحسان . على أن الله تعالى كان ألطفَ به من أن يدلّيه فى هذا الهوان

وإذا كان عجباً من كثير من الشعراء أن يكون حظهم من البراعة فى فنون الشعر بدرجةٍ سواء — فإن هذا من شوقى وأمثال شوقى غيرُ عجيب . فالرجل ، كما زعمت لك ، لا يَملِك من شاعريتهِ أكثر مما تملِكه شاعريتُه . وما إن اجتمع لقول الشعر ، ومضى يُجيل الفكر ويُطير الخيال ، إلا ملكتْه تلك الشاعرية عن نفسه ، وراحت تجوده بالهاتن الحنَّان من وحْى القريض . فإن أصابت ما احتفل له ، وإلا ففى فنون المعانى الآفاقُ العِراض . وأرجو منك أن تراجع شعرَ شوقى فى كل ما يتورَّط فيه الشاعر ، ولا ينبعثُ له من نفسه لو كان أمرُه كله إليه ، لتزداد إيماناً بما أقول

وأرجو منك ألا تحسبنى غالياً ولا متزيّداً إذا زعمتُ لك أن شعر شوقى كان فى بعض الأحيان ، بل فى كثير من الأحيان ، يَتخطَّى إدراكَه العادىّ . أعنى أنه كان يُصيب ألواناً من المعانى لو أنك راجعتَه فيها غَداةَ نظمها لاحتاج فى فهمها إلى فكر وتدبير ! . ولقد وقع لى أكثر من مرة أن راجعتُه فى بعض شعره أرى أنه قد مسّ فيه معنى رفيعاً جدًّا ، ولكن اللفظ أقصر من أن يَطُوله بواضح البيان ، وإنى لأُضمر ما أَلمَح ، وأحياناً ما كان يَلمَح غيرى ، فإذا هو بادئَ الرأى كقارئه متحيرٌ مترددٌ ، وإذا هو فى فهم مرامى الكلام فى حاجة إلى جَسّ وإلى استخبار ![1]

وأريد أن أقول لك إن هذا الرجل قد كان يُفاض عليه ساعة وحْى الشعر ما لم

(١) أشار الكاتب إلى هذه الحلة من شوقى فى (المرآة) التى جلاها له فى « السياسة الأسبوعية »

يكن لفكره فى الحساب . ولقد ذكرت هذا من بضعة أيام لنفر من الأدباء ممن كانت لهم صِلةٌ بشوقى ، فأكد لى بعضهم أنه وقع له مثله مع هذا أمير الشعراء

صنعة شوقى :

وإذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يُعَدّ من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولاً ، فإن وَاتَى اللفظ ولَانَ ونَصَع وأَشْرق ، وإلا فلِأُمّ هذا اللفظ الهَبَل ![1]

لم يكن شوقى إذن يَكلَف بالديباجة ، ولا يجهد فى تَسوِية اللفظ وصَقْله ، ولكنه مع هذا قد يَجىء بالعَجَب العاجب ! بل لقد استحدَثَ شوقى فى العربية صِيَغاً أوفَت على الغاية من حلاوة اللفظ ، ومتانة النسج ، وقوة الإشراق . وأحسب أن قوة المعانى هى التى أرادته على هذا ودفعته إليه دفعاً .

ولقد كان مما يُعَدّ على شوقى أنه يُكثِر من الغريب فى شعره ، حتى لقد كان يُضطر هو إلى تذييل ما يُفشِى من قصائده فى الصحف بالشَّرح والتفسير . ولا أحسب هذا سائغاً فى العصر الذى نعيش فيه ، بل إنى لأزعم أن محصول شوقى من مَتْن اللغة لم يكن يُواتِى هذا القدْر الذى يُشعره استكثارُه من الغريب فى قصيده ، فلقد كنتَ تسأله معنى الكلمة المفردةِ تكون قد خَلت فى بعض شعره ، فإذا هو لا يدريه فى بعض الأحايين . وإننى لأرجِّح أن الرجل لم يكن يَعمِد بهذا إلى التكثّر بسعة العلم ، ووفرة المحصول من اللغة ، ولكن لأنه كان يصيب من دقائق المعانى ما لا يَتيسَّر له أداؤه باللفظ الشائع ، كما كان يطيل أحياناً كثيرةً فى القصائد إطالة يحتاج معها إلى الكدّ فى التماس القوافى ، فكان يُضطَرّ فى هذا وفى هذا إلى التماس الألفاظ من المعجمات يَنتزِعها انتزاعا .

---

(١) الهبل بفتحتين : الثكل

• **التجديد والمجددون :**

وهنا أحب أن أقول شيئاً يسيراً فى التّجديد والمجدِّدين ، و إننى أوجه هذا الـكلام بنوع خاص إلى الناشئين من المتأدِّبين .

إذا كان من آيات الحياة فى الـكائنات تطوُّرُها ونموُّها وتجدُّدها . فالأدب ولا شك من هذه الـكائنات التى لا تُـكتَب لها الحياة إلاَّ على التطوُّر والنمو والتجديد ، و إلا كان ميتاً أو أشلّ على أيسر الحالين .

ولـكننى أحب أن أُلفت فى هذا المقام إلى مسألة قد تَدِقّ عن أفهام الـكثير أو القليل . وتلك أن هناك فرقاً بين التربية والتجديد ، و بين المسخ والتغيير . ولست أجد مثلاً أسوقُه فى هذا الباب خيراً من حياة الطفل وحياة النبات . كلاهما يَنمو ويَربو ، وكلاهما يَطول ويَزكو ، حتى يبلغ الحدَّ المقسوم لـكماله ؛ وقد تتغيرُ بعضُ معارفه ، وقد تَحُول بعضُ أعراضه ، ولـكنه فى الغاية هو هو لا شىء آخر . فحَسَنٌ الوليد ، هو حسنٌ الطفل ، هو حسنٌ الفتى ، وهو حسنٌ الشاب ، هو حسنٌ الـكهل ، وهو حسنٌ الشيخ . وتلك الفَسِيلة[1] الصغيرةُ ، هى هذه النخلة الباسقة[2] ؛ كلٌّ نما وَرَبا بما دخل عليه من الغِذاء ، وما اختلف عليه من الشمس والهواء .

لقد أصاب كلٌّ منهما ما أصاب من أسباب التربية والإزكاء ، فاحتجز منها ما واءمه وما تَعلَّقت به حاجتُه ، و نفى عنه ما لا خير له فيه وما لا حاجة به إليه ، ثم أساغ ما أمسك وهضَمه ، فاستحال دماً يَجرى فى عِرقِه ، ويَزيد فى خَلقِه .

ولاشك فى أن لأدبنا العربىّ عناصر ، وله مقوِّمات ، وله شخصية بارزة

---

(١) الفسيلة : النخلة الصغيرة .

(٢) الباسقة : الطويلة المرتفعة الأغصان .

معيّنة ، ، فمن شاء فيه تجديداً — ومن الواجب الحتم على القادرين أن يُجدّدوا — فليتقدّم ، ولـكن من هذه السبيل .

ولا تنسَوا أن من أهم هذه المقوّمات ، إن لم يكن أهمها جميعاً ، هو صحة العربية وتَحرّى فُصَحِها ، فمن تهاوَن هذا وتجاوزه ، فليس ما يَصنَع من الأدب فى شىء أبداً . ومما يتصل بهذا المعنى ما لعلّى لا أخطئ إذا دعوته تقاليد العربية ؛ فالعربية كسائر اللغات القوية تقاليدها المأثورة على الزمان .

وهنالك مقومان آخران لهما خطرها العظيم ، ألا وهما التّخييل والذّوق العامّ . ولا أحسبك تُنكر أن لكل أمة ذوقَها الخاصّ بها فى كثير من أسباب الحياة ، ولقد تشارك غيرَها من الأمم فى بعض هذا ، ولقد تفارقها فى بعض فراقاً شديداً أو يسيراً

أما التّخييل فقـد قلت لك فى مقال مَضَى إن خيال المرء مهما حلّق وعَلاَ ، ومهما أسرف وغلاَ ، فهو لا يمكن أن يخرج عن كونه مجرد تلفيق من الحقائق المُحَسَّة الواقعة ، وأنت بعدُ خبيرٌ بأن أصدق خيال وأروَعَه ، وأن أحكم تشبيه وأطبَعَه ، هو ما اشتقّه الشاعرُ مما يحيط به و بقارئه ، و يقع لأسماعهما ولأبصارهما جميعاً ، و إلاَّ نَبَا عن السمع ، ونَشَز على الطبع ، ولو كان بالغاً غاية الغاية فى بيئة أخرى

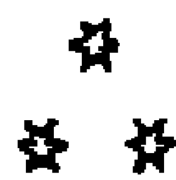
نعم ، لقد يَشهَد الشاعرُ من مجالى الطبيعة ما لم يَشهَد عامّةُ قومه . ولقد يَظهَر على كثير مما انتَضَحَت به بلاغاتُ أئمة البيان فى الأمم الأخرى . ولقد يَتذوّق هذا فى لغاتهم ، ويتأثر به إلى حد بعيد ، ولقـد يرى أن يَنقُل ما يطول من ذلك إلى معشره بإخراجه فى لغتهم لينعّمهم و يلذّذهم و يُرهِف حسّهم ، ويَفتق فى أذهانهم ، ويَفسَح فى أدبهم، بإدخال جديد عليه ، و إضافة بديع من الآداب الأخرى إليه ، فإن له من ذلك ما يحب ، على أن يصوغه فى صحيح لغته ، و يطبَعه على غرار أدبه ،

ويحتال على تسوية خَلقه ، حتى يُصبح تامّ المَشابه بما ألِفَ قومُه ، حتى لا يُحسوا فيه غرْبة ، ولا يشعروا منه بوَحْشة ، فإذا وُفِّق الأديبُ إلى هذا وأجاده وأحكمه فهو المجدِّد التامّ

شوقى امام المجددين :

ولقد ضرب شوقى فى الأرض كثيراً ، ورأى من صور الطبيعة ومن بدائعها ما لم تَتهيأ رؤيتُه لكثير . وقرأ فى الفرَنسية لأئمة البيان فى الغرب ما لا يكاد يَملِكه الإحصاء . ولقد أساغ ما استعار ، وجرى فى أعراقه طَلَقاً ، واستطاعت شاعريتُه الفَخْمة أن تَجلوَ منه ما شاء أن يجلو عربيًّا خالصاً لا شك فيه ؛ وهذه دواوينه تزخَر بهذا البدع زخراً

فاللهم إن كان التجديد ما ذكرنا ، فشوقى إمامُ المجددين فى هذا العصر غيرَ مُدافَع . أما إن كان التجديد هو المسخ ، واستحداثُ صور شائهة ، واستكراهُ ألوان من المعانى لا تَمُتّ إلينا بسبب ، على صِيَغ لا هى بالعربية ولا هى بالأعجمية ، فاللهم اشهد أن شوقى ليس مجدداً بل ليس شاعراً أبداً



ولقد جال شوقى بشعره فى كل غَرَض ، وقصد كل قَصْد ، وأصاب من كل معنى ، وطال نَفَسُه فى أكثر قصيده إلى ما لم يَطلْه كثيرٌ من أنفاس الشعراء ، فما ضَعُف ولا تخَلخَل ولا أسَفّ ، ولا فَسُلَت أخيلتُه ، ولا شاهت معانيه ، بل لقد يأتى أكثر ما يأتى بالجوهرىّ الرائع من حُرّ الكلام

وليس شوقى بالذى يُستدَل على مكانه بالبيت أو البيتين فى القصيدة ، أو بالقصيدة والقصيدتين فى الديوان ، بل إذا طلبتَ عليه دليلاً فهذه دواوينه

شُقّ منها ما تشاء ، وقَعْ منها على ما تريد لك المصادفة ، فلن تُصيب إلا أرفع الشعر وأنخر الكلام

* * *

وبعــد ، فلقد مات شوقى ، وانحسَمت جميعُ أسبابه من الدنيا ، وفرَغ من مَوَدّات الناس ومن عداواتهم ، وأصبح شعره حَبْساً على التاريخ ؛ فمن كان يَرَى حقًّا أن شوقى لم يبلغ هذه المنزلة ، أو أنه لم يبلغ بعضها ، أو أنه لم يكن شاعراً ألبتة ، فهذا له رأيه ، وعليه تبِعَته . ولا حيلة لنا ولا لغيرنا فيه . وأما من يقدِر شوقى حق قدره ، فينزله هذه المنزلة أو ما هو أقرب إليها ، فمن واجب الذمة أن يَشِيد بقدره ، ويَدُلّ على جلالة محله ، لا قضاء لحق الإنصاف وحدَه ، ولا أداء لشكر النعمة فحسب ، فلقد كان شوقى نعمة عظمى أسبغها الله على أبناء العربيــة جميعاً ؛ بل لاستدراج نَشْء المتأدبين إلى استظهار شعره ، وإنهالِهم من أدبه ، واتخاذه النَّمُوذَج المحتذَى إذا اجتمع أحدهم للبيان

هذا واجبُ الذمّة للحق وللبيان جميعاً ، وخاصّةً بعد هذا التبلبل الذى لا أحسب أن البيان العربي شَهِد مثلَه فى أى عصر من عصور التاريخ . وحسبي هذا ، فما أُحبّ أن أقذِف بنفسى فى هـذه الحرب الناشبة من أنصار قديم وأصحاب جديد !

الباب الثاني

في الوصف

الزفاف الملكي*

هذه عاصمةُ البلاد ، بل هذه مُدنُ القطر كافَّة وقُرَاه عامَّة . لقد افتنَّت في تبهُّجِها ، وَتَأَنَّقت في تزينِها وتبرُّجِها : فمن أعلامٍ خافقة ، إلى ثُريَّاتٍ آلقة . إلى أثْواجٍ قد رُصِّعَت بالنجوم ترصيعاً ، إلى أزهارٍ قد أحالتْ هذا الشتاء ربيعاً . بل لقد أمسَينا وكأنَّ هذا الوادي عِقدٌ قد افتنَّ جَوهريٌّ في نظم دُرِّه وجُمانه ، وتأنَّق في تَنضيدِ لؤلؤِهِ وتنسيقِ عِقْيانهِ . بل كأنَّ نهرَ المجرَّة قد سال في وادي النيل فانشقَّ فيه أنهاراً ، تَبهرَ العيونَ أضواءً وأنواراً . وهذه تَرانيمُ وتَناغيمُ وأغاريد ، حتى كأنَّ الجوَّ كلَّه بات يَتنفَّس في مزامير داوود .

وهذي وجوهُ الخلق صافيةَ الأديم ، تعرف فيها نَضْرة النَّعيم . كلُّ الناس في غِبطةٍ وارتياح ، وكلهم في مَراحٍ أيِّ مَراح . كأنَّما آذنَتهم الأقدار ، بخُلود الأعمار ، ودوام العافية على تطاول الأدهار ، والتقلب في النَّعماء ما عاقب الليلَ النهار (١)

ولَعَمْري ، ما هذا كلُّه من صُنع بشر ، إنما هي نَفْحةٌ إلٰهيَّةٌ تَطوف بأرض الكنانة في هذه الأيام ، لتُشْعِر أهلَها ما لم يَستَشعِروا من نعمة الله وفضله ، وتريهم ثواب الأبرار كيف يكون !

---

* ألقيت بدار (الأوبرا) في حفلات الزفاف الملكي السعيد

(١) عاقبه هنا : أعقبه . والمراد ما توالت الأيام والسنون

الله أكبر . رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هٰذا بَاطِلاً سُبْحَانك .

أرأيتم إلى هذه الزينة ، وكيف أن لها بين سائر الزينات شأناً عَجَباً ؟

اللّهم إن المصرى ليَشهَدُها ، على اختلاف مظاهرها ، فلا يَشْعُر بأنها واردةٌ من الخارج على حِسِّه . بل يَشعُر بأنها صادرةٌ عن مَدَاخل نَفْسِه ، وأن هذا الذى فيما مَضَى كانت تَصنَعه اليدان ، لقد أُصبح اليوم من صُنع الحِسِّ والوجدان . ألسنا نُحسّ جميعاً أن كلّ مَجْلًى من مَجَالى هذه الزينات إنما يُصوِّر شيئاً مما يَفيض به الشُّعور ، وأن كلّ لَحْنٍ مما نَسمَع إنما يُترجِم عن معنًى مما يَختلج فى الصُّدور ؟

ولعمرى ، ما كانت هذه المَظَاهرُ البديعةُ الرائعة ، إلاّ صورةً شَمْسيّةً لِمَا يَختلِج من الفرح فى نفوسنا . ولعلَّها لم تُعبِّر كلَّ التَّعبير ، ولعلّها على رَوْعتها تَقصُر عن دقّة النقل والتَّصوير . فإن ما يجول فى نفوسنا لَأَبلغُ وأَعظم ، وإن ما تنطوى عليه صدورُنا لَأَجلُّ وأكرم .

نحن فرِحون إلى أقصى حُدود الفرح ، مبتهجون إلى غاية الغاية من الابتهاج ؛ وما لنا لا نَبتهِج كذلك ولا نفرح ، ومليكُنا الفاروق المحبَّب يَبنِى ؟ أَدامَ اللهُ مرفوعاً هذا البناء ، وزيَّنه بفضله بأكرم المُنجَبين من الأَبناء ، وأبقى هذه الدوحةَ العَلَويَّةَ طيبةً أَصلُها ثَابتٌ وفَرْعُها فى السَّماء .

هنالك شيء آخر . ذلك بأننا نجد أن هذا الفرح ليس فرح المجموع فحَسْب ، بل إنه لَفرحُ الجميع كذلك ، أَعنِى أنّ فى كلّ بيت فرحاً ذاتيًّا خاصًّا ، كأَنّ كلّ رجلٍ فى مصر إنما يحتفى بقران ابنه البارّ ، وكلّ سيدةٍ إنما تحتفل بزفاف ولدها المحبَّب ، وكلّ فتًى بمِهْرَجان أخيه الرؤوف الكريم ، وكلّ فتاة بعُرس أَخيها العَطوف الرحيم .

وما كان هذا لعمرى مُحيلاً من غريزة الأَثَرة الإنسانيَّة . فلقد سَلَكَ حبُّ الفاروق كلَّ صدر ، وشاع فى كلِّ نفس ، وجَرَى فى كلِّ عِرْق ، حتى أصبح من هذا الشَّعب بمنزلة الحَبَّة من العين والمهجة من القلب .

فإذا فَرِح الناسُ يا مولاى لهنائك ، فهل كان عجباً أن يفرح بنعمة الله على نفسه إنسان ؟

يا مولاى الفاروق العظيم :

يحبك المِصريون هذا الحب ، لأنك ملكهُم . فأنتَ جامعُ شَمْلِهم ، وأنت مَظهَرُ عِزَّتِهم وحَوْلهم ، وأنت آيةُ شرفهم وعُنوانُ استقلالِهم ، وأنت مَثَابةُ أمانيهم فى الحياة وَمَنَاط آمالِهم .

يُحبّك المِصريون هذا الحبَّ ، لأنك متَشَبِّثٌ بأهداب الدين ، مُستمسِكٌ منه بأوثق عُروَة ، فأنت نعمَ الإمامُ للمسلمين وأنت نعم القُدْوَة .

يُحبك المصريون هذا الحبّ ، لأنَّك على ما آتاكَ اللهُ من جَلالة المَقام ، وما رَفَع به قدرَكَ على الأَنام ، تأْبى إلاَّ أن تَتنزَّل إلى مُواتاة رعاياكَ ، جاهداً فى مؤانسة صغيرِهم ، والتبسُّطِ مع فقيرِهم ، وتفقد عانيهم ، ومُواساة المحتاج إلى المواساة منهم . تَشرَكهم فى السرَّاء والضراء ، وتجعلهم جميعاً إزاءَ حبِّك وعطفك بمنزلةٍ سَوَاء ، وتلك لعمرى من إحدى خِلالِ الأنبياء .

يُحبُّك المِصريون هذا الحبّ ، لأنك قائدُ نَهضَتهم ، ومُذْكى عزمِتهم ، والسائرُ بهم قُدُماً فى سبيل المَجد والعَلاء .

فإذا دَعَا المصريون لك ، يا مولاى ، بدوام العزّ والهناء ، فقد وَجّهوا إلى الوطن معَك هذا الدعاء .

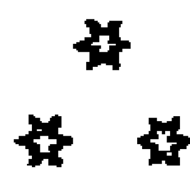
والآن ، إنما يَتجه إليك أنت دعاء الشَّاعر إن شاء الله :

بَقِيتَ بَقاءَ الدَّهر يا كَهْفَ أَهْلِهِ وهــذا دُعاءٌ لِلبَرِيَّة شَامِلُ

فؤاد الأول*

فى هذا اليوم الأغرّ تحتفِل البــلادُ بذكرى ميلاد مولانا المعظم ، الملك فؤاد الأول أدامه الله . وإن ذكرى ميلاد مولانا المليك لحقيقةٌ من كل وطنى ووطنية بالاحتفال ، لا بالاقتصار على تزيين الدور ، وإعلان مظاهر السرور ، وبَعث أسباب الجزل فى الأهل والولد فحسب ، بل بالاحتفال أيضاً فى قرارة كل ضمير ومَطوىّ كل قلب .

وبهذا نؤدى لله تعالى حقَّ الشكر على ما أولانا من جلائل النعم ، وما حبانا من فضل وكرم . وبهذا نضرب للأملاء جميعاً أَعلَى مُثُل الوطنية الفخمة التى تُلهمنا كلَّنــا نحن المصريين — على اختلاف منازعنا وتفرُّق أهوائنا — تُلهم قلوبَنا أخلصَ الوَلاء وأصدقَ الحب لقائدنا الأعظم ، رمزْ آمالنا جميعاً ، وملتقَى أمانينا جميعاً .

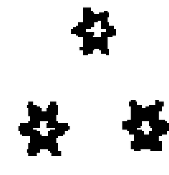


إن من الغرور وشدة الذهاب بالنفس أن أزعم أو يزعم غيرى أنه مستطيعٌ فى كلمات أو فى خطبة ، مهما أسبَغها وأضفاها ، أن يُلِمّ بمناقب صاحب الجلالة وآثاره الضخام فى نَهَضاتنا الضخام . فذلك ما ينبغى أن تحتفِل به الكتب ، ويَرتِصد لنظْمه التاريخ الطويل . على أن المقام مقام اغتباط وسرور ومراح ، ومثل هذا المقام لا تُحمَد فيه إطالة الكلام .

وبحسبى أن أذكِّر حضراتكم بأن عرش مصر شَغَر فى أعقاب سنة ١٩١٧ ، والسيوف ما زالت تنطُف بالدماء ، والمنايا تطلُع على الناس من جوف المــاء ،

(١) أذيعت من محطة رديو الأمير فاروق مساء ٢٦ مارس سنة ١٩٣٣ بمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك المعظم (المغفور له فؤاد الأول)

وتَسقُط عليهم من جوّ السماء . ولموبقات الحرب إرعادٌ و إبراق ، وبلاء يَحيق بالعالَم من جميع الآفاق . وللمدافع عزيف يصم الآذان ، وهَزِيم يُؤذِّن فى الأرض بألا سلامَ اليومَ ولا أمان . والسفينة هنا فى معترَك اللُّجِّ حَيْرَى مُولَّهة ، تنظر إلى هذا العالَم بعينَىْ مَهاة مذعورة ، تُصلصِل بها الريحُ فتلوذ بكنَف الموجة ، وسرعان ما تنفضُها هذه عن كتِفها فتكاد تهوِى إلى القرار السحيق . وما تبرح فى ترجُّحها المخيف ، بين نوازى اللُّجِّ العنيف ؛ والريح من حولها فى جذب وشدّ ، والماء من دونها بين جَزْر ومدّ ، إذ قَلبُها فى الصعود والهُبوط ، هواء من الرجاء ملىءٌ باليأس والقُنوط !

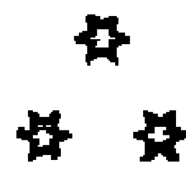


وهنا تَستَشرِف إلى الأمير أحمد فؤاد أرواحُ محمد على و إبراهيمُ و إسماعيل ، وتُهيب به أن قُم إلى السفينة فَقُدها إلى شاطئ السلام ، فليس لها اليومَ سواكَ . ويأبى على الأمير حِفاظه لمجد آبائه العظام ، وما خَلَّفوا فى هذه البلاد من آثار جِسام ، إلاّ أن يَثب إلى السفينة ، ما خانه بأسُه وعزمُه ، ولا تخاذل عنه رُشده وحَزمه . ويقودها ، وَسط هذه الزعازع ، قيادة الرُّبان القوىّ العظيم . ويظل وبين يديه ملّاحوهُ الشجعانُ الأكْفاء ، يدافع الأنْواء والأنواء تُدافعه ، ويُصارِع الأمواجَ والأَمواجُ تصارعه ، حتى تِكلّ مَناكب البحر فيستحيل فى لينه غَديراً ، وتنخذل سواعدُ الريح فتصبح فى لطفها نسيماً وقد كانت صَرْصَراً وكانت دَبورا . فما يزال بالسفينة ، وباسم الله مجريها ، حتى يستوى بها الرُّبان الهُمام ، على شاطئ الأَمن والسلام .

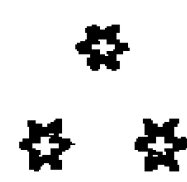
وما يكاد ينبثق فجر سنة ١٩٢٢ حتى تعلن إنجلترا الظافرةُ المنتصرةُ فى الحرب العالَمية انتهاء حمايتها على مصر ، والتخليةَ بينها و بين حُكم نَفْسِها . وحتى يُعلن

جلالة الملك فؤاد الأول ، فى العالم كلّه ، أن مصر أصبحت دَولةً مستقلّةً ذاتَ سيادة .

وإذا كانت هناك مسائلُ ما برحت مُعلّقةً بين مصر وبين إنجلترا ، فالآمالُ مَعقودةٌ ، بعد الله ، بحكمة مولانا المليك ، وبُعد ِهمته ، وصدق عَزمته ، فى تحقيق ما تَصبو إليه البلادُ من السيادة الكاملة والاستقلال التامّ .



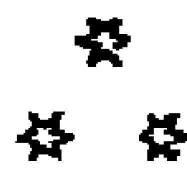
أمّا فيما يَتّصل بفنون الإصلاح الداخلية ، فبحَسْب المرء أن يُجيل طَرفه فى أرجاء البلاد، ليرى ، أنّى وَقَع النظر ، موضِعَ نهضة ومكانَ إصلاح : هذه نهضةٌ قويةٌ فى العلم ، وهذه أُخرى فى الأدب ، وثالثة فى الفنون ، وسواها لا تَقصُر عنها فى الزراعة ، وفى الصناعة ، وفى التجارة ، وفى سائر أسباب الحياة . أنَّى جال طَرْفُك فلن يَرتَدَّ إليك إلاّ بوثبات متداركه متلاحِقة ، ونهضات متبارية متسابقة : ذلك بأن الملك فؤاداً ليأْبى عزمُه إلاّ أن يُتمّ ما أَسَّسه جده محمد على ، وما شيَّده أبوه إسماعيل ، حتى تُصبح مصرُ جديرةً بتاريخها القديم ، وبمطمحها الحديث .



ليس من العدل ولا من الصدق أن يُضيف التاريخُ كل هذا الفضل إلى عصر الملك فؤاد فحسب ؛ بل إن الصدق والعدل ليَقضيان بأن يضاف هذا كذلك إلى شخصه العظيم . فهو — أدامهُ الله — لم يتّخذ الصَّولجان حِليةً ولهواً وزينة ؛ بل لقد اتخذه كما يَلبَس الكميُّ فى يوم الرَّوْع سلاحه ، وإنه ما يزال عامّة يومه جاهداً فى التفكير فى الجليل والدقيق من أسباب الحياة فى هذه البلاد . وكلّما استوى لفكره الخِصب القوىّ رأىٌ فى المنفعة العامّة، أشار به ، ودفع إليه ، وأذكى الهممَ للاضطلاع به . وما يبرح يَتفقّده بشخصه ، ويَتعهّده بحكمته ، حتى يَنضَج

ويُؤتى أشهى الثمار . فما من فضل فى هذا الخير العظيم إلاَّ له أوائله وأواخره ، وإليه موارده وعنه مصادره .

ولست الآن بسبيل تسجيل آثار المليك ، فهى ماثلةٌ للأعيان ، قائمةٌ فى كل مكان ، ثابتةٌ على وجه الزمان .



ليس يذهب عنكم أن هنالكم عناصرَ كثيرةً تظاهرت كلُّها على تشويه سُمعة مصر فى الخارج ، حتى تمثلت منا ومن بلادنا لكثير من الأمم أقبحُ الصور ، وحتى أضافوا إلينا من الخَلْق ومن الأخلاق ومن العادات ما يُضحك وما يُبكى .

وها هو ذا جلالة مولانا المليك المعظم يَشُدُّ الرِّحال ، الحينَ بعد الحين ، إلى بلاد الغرب ، ومعه صَدْرٌ من بِطانتهِ وظِهارته ، فيَرى القوم أىّ رجل هو المصرى ، وأىّ ملك هو فؤاد الأول !

يَرى ملوكُ الغرب وأمراؤه ، وساسته وعلماؤه ، مَلِكاً قد اجتمع له إلى شدة العقل ، ووثاقة الحلم ، ذكاء الجنان ، وحدَّةُ الرأى ، وسَعَةُ العلم .

يَشْهَد آثارَ القوم ، ومصانِعَهم ، ومعاهدَهم ، ومعاقد تاريخهم ، فيتحدَّث عن كل ما يشهد حديثَ اللَّوذَعىِّ العالم ، المحيط بالدقيق وبالجليل .

لاَ مُعَنًّى بكل شَىْءٍ ولا كُلُّ عَجِيبٍ فى عَينه بعجيب !

يَرون ملكاً جمع إلى أعلى الثقافات العالَمية جلالَ الشرق ووقارَ الإسلام .

وإنه لَيستزير الملوك والأمراء ، ويَغشَى بلادَه أقطابُ العلماء وكبار الرجالات من آفاق الأرض ، فيَشْهَدون فيها آثارَ العظَمة والمجد ، ويُطالعون فى جميع مرافق الحياة نهضة أُمَّة يأبَى عليها تاريخُها وتأبَى عليها عِزّتُها إلاَّ أن تحتل مكانها اللائق بها تحت الشمس .

وهذه بعضُ آثار شِبل إسماعيل ، وحفيد محمد على العظيم .

* * *

وأختم هذه الكلمةَ بالابتهال إلى الله ، جلّ مجدُه ، أن يحفظ لمصر مناطَ أملها وذخرها ، ومَثَابة عزّها وفخرها ، وحارس ثغرها ، وجماع أمرها . مولانا المليك المعظم فؤاد الأول حفظه الله ، وحرَس بعنايته سموّ مولانا الأمير فاروق ، وأبقاه قرّة عين له ولشَعبه .

و إنى لأتمَثّل فى الدعاء لجلالة مولانا بقول الشاعر :

بَقِيتَ بَقَاءَ الدَّهر يا كَهْفَ (شَعبِهِ) وهـذا دُعاءٌ للبَرِيَّـةِ شامِـلُ

لتحىَ مصر . يعيش جلالة الملك . يحيا سمو الأمير فاروق .

هــو . . . *

لا يَشْغَل من هذا الفَضاء حَيِّزاً كبيراً ، فإنه دَقيقُ الجِرْم ، لطيفُ الحجْم ، يُخيِّل إليك أنه لا يُثبته لمهَبّ الهواء إلاّ رُجحانُ عقلِه ورسوخُ عزمِه ، و إلاّ فلو قد خُلِّيَ ، على هذا ، بينَه و بين خِفّة رُوحه ورِقّة شمائله ، لاستحال معه نَسَمَةً من النسم !

مهما يَكرُثه[1] من الأمر وتَشطّ به صائلاتُ الفِكْر ، فإنه لا يُطالعك إلاّ بوجهٍ مَبسوطٍ لا أثر لعُقدةٍ فيه ، بل لقد يُقبِل عليك فوقَ ذلك بالحديث الفَكِه ليُؤنسك ويُذهب وحشتَك ، ويُفرخ رَوعك إذا كنتَ غيرَ كُفءٍ لمجلسه . بل لقد يَستدرجك إلى الحديث ويُملِي لك فيه[2] ، ويُحسن الإصغاء إليه ، ويُظهر الاحتفالَ له ، مهما يكن سخيفاً يجرى فى تافه الموضوعات ، بحيث يُشعرك أنك تَنضَح على سمعه جديداً عليه ، يُفيده علمه به ؛ حتى لتغلُونَّ فى هذا الشعور ، فما تفارق مجلسَه إلاّ وقد خِلتَ أنك أَسلفتَ إليه بحديثك يداً !

متواضعٌ شديدُ التَّواضع لا يُضيف فضلاً لنفسه ، ولا يَدُلّ على أثرٍ لفضل . بل إنه لشديد الاجتهاد فى أن يتمثّل لك فى صورة آحاد الناس . ولقد يُجيد سَبك هذا حتى يَجوز أمرُه عليك ، فتحسب حقّاً أنه مثلُ سائر الناس . فإذا كان الحديثُ فى علمٍ أو فى أدبٍ أو فى فنٍّ ، أو فى استجلاء وجه الرأى فى العظيمات ، فهنا لا يَستطيع

---

* هذه القطعة من مذكرات الكاتب فى سنة ١٩٢٦

(١) يقال كرث الغم فلاناً وأكرثه : اشتد عليه وبلغ منه المشقة

(٢) يقال أملى البعير وأملى له : أرخى له ووسع فى قيده . والمراد هنا تيسير الحديث للمتحدث

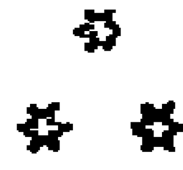
أن يكتُمك نَفْسَه . فهيهاتَ لامرىء أن يكفّ ما تجرى به الأقدار . على أن عَبقريّته إذا فَضَحته برغمه وكَشَفَت عن حقيقة شأنه ، فإنه لا يَبرح يُواريها بشدّة التّواضع والرّفق فى مضارب الحجة لكيلا يروعَك عُظم خَطَئك ، ولا يهولنك مَدَى ما بينك و بين الصواب . وما إن تراه يقول لمحدّثه أخطأتَ أو عدوتَ الرأْى ، بل لقد يُدارجه فى بعض القضيّة ، ثم يُلوّح له بالرأْى فى حواشى القول تلويحاً ، حتى إذا شامه عدَل إلى طريقه وكأنه تَهدّى إليه من تلقاء نفسه ، ما قاده إليه أحد . ووالله لكأن أبا تمّام كان يَعنيه هو بظَهر الغَيب حين قال :

جَمٌّ التّواضُعِ والدُّنيا بُسؤدَده   تَكادُ تَهتزُّ من أَطرافِها صَلَفَا

أخذ نفسَه بأعلى قواعد الأخلاق ، فلا يَصدُر إلاّ عنها فى كلّ سَعيه ، يستوى فى ذلك الدقيقُ والجليلُ من عامّة شأنه . و إنك لتراه إلى هـذا شديدَ التجمل للناس ، عظيمَ التصبُّر على مكروههم . فلا يَجبَه إنساناً بكلمة السُّوء ، ولا يُعيّره عيبَه ، ولا يَعنُف فى العتاب ، إن هو عاتَب ، على مَساءةٍ لحِقَته ؛ بل لقد يَصوغ هذا فى الكلمات الخِفاف اللّطاف تَمضى هيّنةً رفيقةً ما تُثير أَذًى ولا تسيل جُرحا . و إنه حتى لَيفعل هذا وهو مُستَحْيٍ غاضُّ البصر ، كأنه هو الذى أساء ، وأنه هو الذى يَعتذر !

رَزقه اللهُ عِفّةَ النفْس وعفّةَ اللسان وعفةَ الرأْى معاً . فلا يَحدِر طرْفَه إلى ما ليس له ، ولا يَستكثِر نعمةً دخَلت على إنسان مهما يَجل قَدرها و يَدِقّ قَدره ، ولم تُحصَ عليه قطّ كلمةُ سوء رَمَى بها غائباً . ولقد يَجيئه أن فلاناً هتَف به بما لا يُحبّ ، فلا يَزيد على أن يتقبّض وجهُه ، وتَتقلص شَفتُه ، ويُومىء بالأسف إيماءةً خفيفةً دقيقة ، ويَعود سريعاً إلى طمأنينةِ نفسِه واستراحةِ عَصَبه ؛ وهذا إذا كان من يَلمِزه ممن يَعنى شأنُهم ، و إلا فلا يكون منه شىء أبداً !

وأمَّا عفةُ رأيه وتفكيره ، فإن هوًى أو شهوة ، أو طمعاً فى نفع ، أو مصانعةً لذى سلطان ، أو تعلقاً بالفَلْج(١) ، وقهر الخصم إذا استُكره على الجدَل ولم يكن له منه بُدّ — اللّهم إنه لا يمكن لشىء من هذا ولا لغيره أن يَغُضّ من عِفة تفكيره ونزاهة رأيه ، كأنما يتعاظمُه أن يَسطو بهذه الحجة القارحة ، التى آثره الله بها ، على الحقّ . على حين أن الأكرمَ لها والأجدرَ بها أن يُسلّطها على الباطل فتكسّرَه تكسيرا ، وكأنى به يَأبَى إلاّ أن يحصّن هذه النعمةَ الجليلةَ على الزّوال إذا هو نَظِرها فأنفق منها فى غير إظهار الحق ، وفى غير ما يُرضى الله !



ضَخمُ العقل والذّكاء ، ضَخمُ العلم والتفكير . يَنال بالنَّظرة الأولى ما لا يَنال غيرُه إلاّ بشدّة الجهد والمُطاولة ، وطول التفكر والتدبير . بل لقد يُدرِك بهذه النظرة ما لا يُدرِكه غيرُه إلا بقائد ودليل . فهو رجلٌ كأنه قد سَفَرت له وجوهُ الحقائق ، وبَذَلت لعينيه ذات السرائر ، ونَفضَت بين يديه ما أَجنّت فى أَطواء الضمائر . فما يَغيب عن لحظه خافيها ، بل لقد أَضحى أدقُّ نَظَريّها(٢) لعلمه بَديهيا . وكأن المتنبى قد عَناه بلحْظ الغيب حين قال :

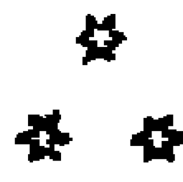
ومَن خُلقَت عينــاك بين جُفونهِ   أَصاب الحدُورَ السّهلَ فى المرتَقى الصّعب

فإذا جاءك ، بعد هذا ، أنه أدقُّ النَّاس تفكيراً ، وأعمقُهم بحثاً ، وأكثرُهم إصابة ، فلا يَروعنّك مع هذا أنه أكثرُهم إنتاجاً ، وأوفرُهم آثاراً . فقد رأيتَ أن عبقريته لا تَعيا بشىء ، ولا تجهَد فى الطلب بطول الاستقراء والاستخبار . وما

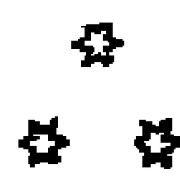
(١) الفلج : الغلبة على الخصم

(٢) النظرى فى عرف علماء المنطق ما يحتاج إلى نظر واستدلال ، أما البديهى فهو الذى لا يحتاج فى إدراكه إلى ذلك

حاجتهُ إلى هذا وقد راض الله تعالى لذهنه الحقائق و يسّرها له ، حتى لكأنها هي التي تتزاحم لديه ، وتتهافت عليه ؟



كريمُ الطّبع ، سَمْحُ النفس ، عالى الهمّة . ما عاذ إنسانٌ بجاهه إلا أعاذه ما دام أهلا للبرّ والعَطف ، و إنه ليُسأَلُ المعروفَ فيَعِد وعداً فاتراً متحيّراً بين الأسباب والعلل ، فتنصرف عنه وقد يئست اليأسَ كلَّه من برّه بك وسعيه لك ، ثم لا يروعك إلاّ أن تعلم من غيره أنه لم يُبقِ فى قوس الهمّـة والجِد فى السعى منزَعاً ، حتى يصل شأنَك أو يقطع بِردّه القَدَر . يفعل هذا وهو حريصٌ أشدّ الحرص على كتمانه عنك ، حتى لا يُثقِل عليك بالشّعور بالمِنّة لطول ما جَهد لك وأبلَى فى شأنك . ولقد تتقدم إليه لتشكره ، وقد تَعتِب عليه إسرافَه فى بذل جهده ، فيعاجلك بصرف الحديث إلى شىء آخر . فإذا ألححتَ فيما كنتَ فيه وأبيت إلاّ ترديداً له ، هوّن الخَطب عليك وأكّد لك أن أمرك لم يُجشّمه من الجهد كثيراً ولا قليلاً ! يقول هـذا مقالَ الواثق المطمئنّ الذى لا يتكلّف شيئاً فى إخفاء يده و إنكار فضله !



هذا (هو) وتالله ما يمنعنى من التصريح عن اسمه إلا اتقاء غضبه ؛ فتلك لعمرى التى لا هَوَادة لغَضْبته فيها ولا إسجاح[1] . على أننى غنىٌّ عن أن أُسمى الشمسَ ليعرِف الناسُ أنها الشمس !

أَلاَ ذلك فَضْلُ الله يُؤتيهِ مَنْ يَشَاء ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم .

---

(١) أسجح : أحسن العفو



شاعر الجمال المرحوم اسماعيل باشا صبرى

اسماعيل صبرى*

رَحم اللهُ إسماعيل ، وعوّضنا من أدبه الحُلو حسنَ العِوض .

لقد كان مودِّعُ الأمس قطعةً شعريةً نَظَمتْها الطبيعة ، فأَجادَت فيها أَيَّمَا إجادة ، وأبدَعت أَيَّمَا إبداع !

جادت به الطبيعةُ كما تجود بالزَّهرة المُونِقة ، والنَّسمَة الليِّنة ، والجَدول العَذْب النَّمير !

ما حسبتُ قطّ أن صَبْرى تَكلَّفَ الشِّعرَ يوماً أو شمَّر له ، أو جلَس يَتَصيَّد للقريض فنونَ المعانى ، ويتخيَّر لها مُشْرِقات الألفاظ .

هذه الوردةُ تنفثُ العِطْر ، وهذا الغَمامُ يجود بالقَطْر ، وهذا صَبرى ينطق بالشعر !

هذه القمَارِىُّ يُطرِبُك تَنغيمُها وتغريدُها ، وهذه بناتُ الهديل[1] يَشجيك سَجعُها وتَرديدها . أفرأيتَ واحدةً منها تكلّفت الغناء ، أو أَراغَت[2] به التطريبَ والإشجاء . أو عَمَدت إلى تقليب حَلْقها فى ضُروب اللحن وأَشكاله ، من خفيف أَهزاجِه وثقيل أرمالِه ؟



كنتُ أَصحبُه ، رحمةُ الله عليه ، نَتمَشّى فى أقطار الجزيرة ، نَنعَم برياضها وجداولِها ، ونَتفرّج بين أَدواحِها وخمائِلها . حتى إذا امتلأت عينُه من نَضير أنوارِها ، وأنفه من عَبير أَزهارِها ، وأُذنُه من هَدير أطيارِها . انطلق هو الآخر

---

* نشرت فى جريدة السياسة بعنوان (ليالى رمضان) فى مايو سنة ١٩٢٣ عقب وفاة المرحوم اسماعيل باشا صبرى . وقد زاد فيها الكاتب فى مجموعته بعد ذلك

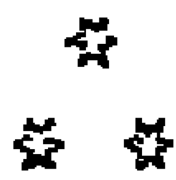
(١) بنات الهديل : الحمام (٢) أراغ الشىء : أراده وطلبه

يَتغنَّى بالبَيتينِ أو الثَّلاثةِ من الشِّعر ، وهنالك تَتَشابه علىَّ صنعةُ الطبيعة وصنعةُ الشَّاعر . فما أدرِى أأرى زَهراً من الشِّعر ، أم أسمَع شِعراً من الزَّهر ؟ وكذلك كان يَنظم الشِّعرَ إسماعيل !

يَنفُض عليك إسماعيلُ هذا الشِّعر فلا ترى أنه جاءك بجديدٍ عليك ، وإنما جاءك بشيء متَّصِلٍ بحسِّك ، قائمٍ فى قَرارة نفسِك . وهو لا يَعتريك به من مَخارج سَمعِك ، وإنَّما يعتَريك بهِ من مَداخِل طَبعِك . حتى ليخيَّل إليك أنك أنت صاحبُ هذا القول دونَه . فإذا كان له فى الأَمر فَضلٌ ففى أنه عَرَف كيف يَتدسَّس إلى أطواء قلبك ، فيجلو عليك ما أعْيا تَصويرُه على بيانك .

اللهم إن جُهْد شعر الشَّاعر أن يُحرِّك فى النَّاس ألوانَ العواطف ، أمّا شِعرُ هذا الرجل فإنه فى ذاته عواطفُ تَعتلِج فى السُّطور ، كما تَعتلِج العواطفُ فى الصدور . وإنه ليُشعِرُك بما يجول فيه من رِقّة ورحمة ، وبُرحةِ هَوى ، وحُرقة جَوى ، حتى ليكاد يُريك دَمعةَ الثَّاكل ، ويُسمعك أنَّة المجروح !

فيالله ! ما أروعَ هذا الذى يَقبِض بيده على العواطف المترقرِقة فى الصدور ، ثم يَصوغها شِعراً يَقرؤه الناس !



وبعد ، فإذا تسلَّل شعرُ صبرى إلى حَبَّة قلبِك ، وملك عليك مَنازعَ نفسِك ، وأشعرَك من صُوَرِ الجمالِ ما لا يُشعِرك كلامُ الناس ، فلا تقل : أجاد صبرى ، ولكن قل : تباركَ اللهُ أحسنُ الخالِقين !

شــــوقى*

سيداتى سادتى :

فى مثل هذا اليَوم من عامَين مَضَيا أَذَّن مُؤَذِّنٌ أن البُلبُل قد سكَت بعدَ طول سجعِه وتَغريدِه ، وأن الزَّهر قد ذَبُلَ بعد إشراقه وتَوريدِه . وأن النجمَ قد هَوَى فلم يَعُد يَتأَلَّق ، وأن الغَدير قد غاض وهَيهاتَ له بعدَ الآنَ أن يَترَقرق !

مات شوقى ، ولو كان شوقى كسائر الناس ما كان لموته جليلُ خَطر . ولرُبَّ رجلٍ يموت فلا يُفرِّق المجموعُ بين موته وحياته ، ولكن موت شوقى شيء آخر : أرأيت إلى النهر إذا يَبِس ، وإلى المطَرِ حينَ يَحتبس ، ووارَحمتا للسّارِينَ إذَا لِحَق النجمَ الغُروب ، وقد تشعَّبت الطرقُ واختلفَت رؤوسُ الدُّروب !

لقد كان شوقى نعمةً من النعم العامَّة التى تفضَّل اللهُ بها على هذه البلاد ، بل التى تفضَّل بها على أبناء العربيةِ جمعاء ، فموتُه من المصائب العامَّة التى يحِسّ خَطرَها كلُّ امرىء يَقدُر رَوعةَ الفكر ، و يَحتفِل لأَبهَى صور الجمال

ولو أن الله تعالى بعث الشعورَ فى مظاهر هذه الطبيعة ، وأَقدرَها على النُّطق ، لشارَكَ فى إحياء ذِكرَى شوقى : البحرُ الخِضَمّ ، والجبَلُ الأَشمّ ؛ والفَلكُ الدائر ، والنَّجمُ المُختلجُ الحائر ؛ والعُودُ إذا أَورَق ، والزَّهرُ إذا نَوَّر وأَشرَق ؛ ولاجتمعتْ

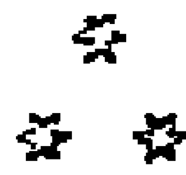
* قطعة مما ألقاه الكاتب فى (الرديو) بمناسبة الذكرى الثانية لوفاة الم[illegible]

يَتغنَّى بالبَيتينِ أو الثَّلاثةِ من الشِّعر، وهنالك تتَشابه علىَّ صنعةُ الطبيعة وصنعةُ الشَّاعر. فما أدرِى أأرى زَهراً من الشِّعر، أم أسمَع شِعراً من الزَّهر؟ وكذلك كان يَنظم الشِّعرَ إسماعيل!

يَنفُض عليك إسماعيلُ هذا الشِّعر فلا ترى أنه جاءك بجديدٍ عليك، وإنما جاءك بشيء متَّصِلٍ بحسِّك، قائمٍ فى قَرارة نفسِك. وهو لا يَعتريك به من مَخارج سَمعك، وإنَّما يعتَريك بهِ من مَداخِل طَبعِك. حتى ليخيَّل إليك أنك أنت صاحبُ هذا القول دونَه. فإذا كان له فى الأَمر فَضلٌ ففى أنه عَرَف كيف يَتدسَّس إلى أطواء قلبك، فيجلو عليك ما أعْيا تَصويرُه على بيانك.

اللهم إن جُهْد شعر الشَّاعر أن يُحرِّك فى النَّاس ألوانَ العواطف، أمّا شِعرُ هذا الرجل فإنه فى ذاته عواطفُ تَعتلِج فى السُّطور، كما تَعتلِج العواطفُ فى الصدور. وإنه لَيُشعِرُك بما يَجول فيه من رِقّة ورحمة، وبُرحةِ هَوى، وحُرقة جَوى، حتى ليكاد يُريك دَمعةَ الثَّاكل، ويُسمعك أنَّة المجروح!

فيالله! ما أروعَ هذا الذى يَقبِض بيده على العواطف المترقرِقة فى الصدور، ثم يَصوغها شِعراً يَقرؤه الناس!



وبعد، فإذا تسلَّل شعرُ صبرى إلى حَبَّة قلبك، وملك عليك مَنازِعَ نفسِك، وأشعرَك من صُوَر الجمال ما لا يُشعِرك كلامُ الناس. فلا تقل: أجاد صبرى، ولكن قل: تباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين!

شــــوقى *

سيداتى سادتى :

فى مثل هذا اليَوم من عامَين مَضَيا أَذَّن مُؤذِّنٌ أن البُلبُل قد سكَت بعدَ طول سجعِه وتغريدِه ، وأن الزّهر قد ذَبُلَ بعد إشراقه وتوريدِه . وأن النجمَ قد هَوَى فلم يَعُد يَتأَلّق ، وأن الغَدير قد غاض وهَيهاتَ له بعدَ الآنَ أن يَترَقرق !

مات شوقى ، ولو كان شوقى كسائر الناس ما كان لموته جليلُ خَطر . ولرُبَّ رجلٍ يموت فلا يُفرِّق الجموعُ بين موته وحياته ، ولكن موت شوقى شيء آخر : أرأيت إلى النهر إذا يَبِس ، وإلى المطَرِ حينَ يَحتبس ، ووارَحمتا للسّارِينَ إذَا لِحَق النجمَ الغُروب ، وقد تشعّبت الطرقُ واختلفَت رؤوسُ الدُّروب !

لقد كان شوقى نعمةً من النعم العامّة التى تفضّل اللهُ بها على هذه البلاد ، بل التى تفضّل بها على أبناء العربيةِ جمعاء ، فموتُه من المصائب العامّة التى يحِسّ خَطرَها كلُّ امرئ يَقدُر رَوعةَ الفكر ، و يَحتفِل لأَبهى صور الجمال

ولو أن الله تعالى بعث الشعورَ فى مظاهر هذه الطبيعة ، وأَقدرَها على النُّطق ، لشارَكـ فى إحياء ذكرَى شوقى : البحرُ الخِضَمّ ، والجبَلُ الأَشمّ ؛ والفَلكُ الدائر ، والنَّجمُ المُختلِجُ الحائر ؛ والعُودُ إذا أورَق ، والزّهرُ إذا نَوّر وأَشرَق ؛ ولاجتمعتْ

* قطعة مما ألقاه الكاتب فى (الرديو) بمناسبة الذكرى الثانية لوفاة المرحوم أحمد شوقى بك .

لمأتمه كلُّ مَسجوعٍ من بَنات الهَديل ، يُقِمن عَليه المناحاتِ بأحدِّ البكاء وأحرِّ العَويل . فلقد طالمَـا أضحَك وسَرّى ، ولقد طالما أطرب وأشجَى . ولَـكَم جَلاَ من صُوَر الطبيعة فأجاد وأحكم ، وأنطقَ الصخرَ فى مَرْسخه لو كان الصخرُ يتكلّم . ولـكَم لاغَى الطيرَ غاديةً ورائحة ، ولَـكَم لاعبَ الغِزلانَ شاردةً وسانحة . ولـكَم داعب الغُصنَ حتى تَثَنىَّ خَصرُه ، وغازل الزَّهرَ حتى تَنفَّس أرَجُه وعِطرُه

شوقى لم يمت ، ومثلُ شوقى لا يموتُ أبداً ، بل إنه ليَزدادُ حياةً على تطاول الأجيال . هذا شوقى حىٌّ أقوى الحياة فى بَيانهِ القوىّ . وسيظَلّ هذا البيانُ المَشرَعَ العذبَ النَّميرَ يَنهلُ منه بنو العروبة ما قُدِّرت للعربية فى هذه الدنيا حياة

عدو صميم ، أم ولى حميم ؟ . . .*

تلقيتُ هذا الكتابَ من حضرة الكاتب الأديب صاحب الإمضاء ، وإنى مُثبِته بنصِّه فى « المصوَّر » من غير تغيير ولا اختصار :

حضرة . . . . .

(فلان) لقد حيَّرنى وأقلَق فيه مَنطِقى وأزعَج تفكيرى ، وأفسد علىَّ حسِّى ، فما عُدتُ أدرى أأُحبّه أعظمَ الحب ، أم أُبغِضه أشد البُغض ، ولا أعلم أأُكبره غاية الإكبار ، أم أننى لا أُجِنُّ له إلاّ أبلغَ الازدراء والاحتقار . فإنى والله لا أعرف أكان هو أصدقَ أصدقائى ، أم كان هو أعدَى أعدائى . إنه لَأَحدُ هذين على أىّ حال . أمّا أنه ليس هذا ولا هذا فذلك المحالُ كلُّ المحال !

إنه يَحفَظ غَيبى ، ولا يَأذَن لأىٍّ كان بأن يَبسُط فىَّ لسانَه بمقال سوء ، ولو جَشَّمه ذِيادُه عنى فى غيبتى ما جَشَّمه ، ما فى ذلك شك ولا إلى جُحوده سبيل !

وإنى لقد يَعترينى المرض ، ولقد يَحزُبنى من أمر الدنيا حازب ، وتَعترينى الأيامُ ببعض المكروه ، فيكون هو أولَ من يَطلُع علىّ ، ويَستطِبّ لدائى ، ويَتفقَّد علاجى ، ويَستوثق من مواظبتى على دوائى ، ويكون هو أشدَّ الناس اهتماماً بمواساتى ، وأعظمَهم اجتهاداً فى تسليتى والتَّسرية عنى . ولا يزال هذا شأنه حتى أَصِحّ وأبرأ ، وتعود إلىّ طُمأنينتى ، ويُذهب الله عنى ما أجدُ من وَجدٍ وأسى ، ما فى ذلك شك ، ولا إلى جُحوده سبيل !

---

* نشرت بمجلة « المصور » فى شهر مايو سنة ١٩٣٥

ولقد تَرِقّ حالى ، ويُلحّ العُسر علىّ ، فما إن يكاد يَعرِف هذا ولو من طريق التفرّس ، فليس من خُلُق التّشكّى ، حتى يجمع همّه ويركب رأسه ، لا يَسكن ولا يفتُر ولا يَهمُد له سعىٌ ، أو يصيب لى عملاً كريماً يُجرى علىّ ما أعُود به على شَمْلى ، ولقد يفعل هذا على غير علمى وفى سرٍّ منّى . ولقد يَغلو فى أن يَكتُمنى سعيَه لكيلا يجرح شعورى ، أو يُحرّج نفسى بما يَجهَد فى شأنى . ما فى ذلك شكّ ولا إلى جُحوده سبيل !

ولقد يَنتهى إليه أن خَلقاً من الناس يَأتمرون بى ، فإذا لم يَستطع أن يكُفّ بادئَ الرأى كيدَهم ، ويَدفع عنى أذاهم من حيث لا أعلم ، بادانى بأمرهم ، وحذّرنى مكرَهم ، وقد كنت على شَرَف الوقوع فى حِبالهم ، فينجّينى الله تعالى به من كيدٍ عظيم . ما فى ذلك شكّ ولا إلى جُحوده سبيل !

وإنى لقد أُخطئُ الرأى ، ولقد يُضلّنى الهوَى عن سبيل الحكمة فى بعض الأمر ، حتى يكاد هذا يُزلِقنى إلى ما تُكرَه عواقبُه ، فيزعجنى بكل الوسائل عنه ، ويَردُّنى ، برغمى ، مُعافًى منه . ما فى ذلك شك ولا إلى جُحوده سبيل !

وإنى لا أذكر أننى غبتُ عنه قطُّ إلا تَفقّدنى ، وجعل يتعاهَدنى فى جميع مظانّى ، ويَقصّنى جاهداً حتى يُصيبنى ، ولو كنت فى قَواصى الأرض ، ليجالسنى ويَقضىَ أجلّ الوقت معى . ما فى ذلك شك ولا إلى جحوده سبيل !

ولا أذكر أنه تَهيَّأَت له قطُّ نُزهةٌ جميلة ، أو مجلسُ غِناء وتَطريب ، أو نحو هذا مما يُنعِّم النفسَ ويُلذّذها إلا أسرَع فدعانى إليه وآثرنى به ، وألحّ على فى حضوره ، وقد يَستكرِهنى ، إذا تعذّرتُ عليه فى ذلك ، استكراهاً . ما فى ذلك شكٌّ ولا إلى جحوده سبيل !

ومهما يكن من شيء فإنه فى كل هذا الذى ذكرتُ لك يُؤثرنى ، فيما أعلم ، أشدَّ الإيثار ، ويعقِد فى عُنق من المِنن مالا تَسخو به إلاّ أنفُس أصدق الأصدقاء وأصفَى الأولياء ، حتى إننى لأتمثَّل فى شأنه هذا معى بقول الشاعر :

فأصبحتُ يَلقانى الزمانُ لأجلِهِ   بإكرامِ مَولودٍ وإعظامِ والدِ

٭
٭ ٭

على أنه قد ذَهَبَ عنى أن أذكر لك فى صدر هذا الكلام الصفاتِ البارزةَ لصديقِى أو عدوِّى هذا (فلان) . ولكن الفُرصة لمَّا تزل حاضرةً ، والحمد لله، إلى الآن :

هو رجل فى أعقاب الشَّباب ، انحدر من أُسرة إن لم يُمَدَّ لها فى غنًى عريض ، فإنها تجرى على عِرق من الفضل والكرم ، ومن النُّبل والشَمَم . وهو بعدُ على حظٍّ غير قليل من العقلِ والذكاء والعلمِ والثقافةِ جميعاً ، حاضر البديهة ، حَسَن الرأى فى الجملة ، يُجيد الحديثَ ويَحذِق النكتة ، وقد يَبرَع فى إدارة مجلس السمَر ، وهو وإن لم يكن أديباً فإنه يَتذوّق الأدب ، مرهَف الأعصاب ، لقد يُثيرُه التافهُ من الأمر ، وتارةً يُسرف فى الحَمْل على النفس ليصبِّرها على مكروهٍ عظيمٍ ، لرأىٍ يراه هو ولكن يَكتُمه الناس . ولقد تَجد فيه أحياناً أدباً جمًّا وظَرفاً عظيماً . ولقد تَرَى فيه حيناً عُنْجُهِيَّةً شديدةً وسَلاطةً لا تطمئنّ إلى الصبر عليها رواسخُ الجبال !

ثم إنه لرجلٌ مَرِحٌ فى غالب شأنه يَطرَب على الغِناء ، ويَتبسَّط فى مجلس الأنس واللهو ، ولا يُغلِق يدَه عن الانفاق على أسباب التَّنعيم والتَّسلية والترفيه .

٭
٭ ٭

بعد هذا أرجو منك يا سيدى أن تسمع كيف يَصنع لى هذا الولىُّ الحميم، أو هذا العدوُّ الصَّميم :

إننى ما غَشِيت قطُّ مجلساً هو فيه إلاّ تغيَّر وجهُه ، وحال لونُه ، وتقلَّصت شفتُه ، وبان الغيظُ والحَنقُ عليه ، فإذا حيَّيتُ تثاقل فى ردّ التحية ، وجعل يتكلَّف مصافحتى تكلُّفاً حتى كأنما يَضطلع بعبء ثقيل ، بل لقد يَبتدرنى من القول بما أكره ، فأنطلق من فورى مُغضَباً مَغيظاً ، وأنا أَستشعِر اغتباطَه بهذا واستراحتَه له !

ولقد يَضمّنى به المجلسُ ومعنا من الصَّحب من يعرف أننى أحبهم وأوثرهم وأتّقى غضبَهم ، فلا يزال يُغريهم بى ، ويَغرس الحفيظةَ علىَّ فى صدورهم بما يَدَّعى علىَّ من قولٍ مُنكَر قلتهُ فيهم ، أو سعْىٍ خبيثٍ سَعيتهُ لكيدهم وإيصال الأذى إليهم . فإذا حاولتُ البراءة إليهم مما اتَّهمنى، زاد فى لَجاجه ، وألحّ فى احتجاجه ، وربما عَزَّز قولَه باليمين يُرسلها غَموساً غير متحرِّج ولا متأثِّم . ولقد يَجيئنى بمن يَشهد الزورَ بين أيديهم علىَّ ليُبطل حجتى ، ويُحقّ التهمةَ علىَّ ؛ فيفسد بينى وبين صَحبى .

ولقد يرانى أتفقَّد بعض السِّلَع ، فيأبَى هو إلاّ أن يَختار لى، لأنه أعرَف بجيِّدها ورديئها ، فلا يَسعنى إلاّ أن أنزل على رأيه راضياً أو كارهاً . فإذا تقدَّمتُ لمساومة البائع فى الثمن ، أسرع فدفعنى وتولّى هذا عنى . فإذا خلَصتُ بالسِّلعة ، وعرضتُها على أصحاب الخبرة ، بانَ أننى قد اشتريتُ أردأَ الأشياء بأغلَى الأثمان !

ولقد يُزيّن لى المخاطرةَ على سباق الخيل ، ويؤكِّد لى ، فى قوة وشدة ثقة، أنه يعلم علم اليقين أن الرابح فى الشوط الأول هو الجواد الفلانى ، وأن الرابح فى الثانى هو الجواد الفلانى وهكذا . ولا يزال بى حتى يَستخرِج منى طوعاً أو كرهاً من

لمال ما يَثقُل علىّ ويَبْهَظُنِي ليعَقِد لى رِهاناً على بضعة جياد معاً (پارولى) ، ممنّيا نفسى بربح المئات من الدنانير . فإذا كان آخرُ النهار ، لم يَظهرجوادٌ منها ولو تفقّدته بألف منظار . وأعلم أنه خالفنى فى خَطَره هو إلى غيرها من الجياد ، وإنما آثرنى أنا بما خُسرانُه مكفول ، والرِّبح فيه ألبتةَ غير مأمول !

ولقد يعلم أننى هيأتُ لنفسى بعضَ المتاع أتفرّج به وأُسلِّى عن نفسى ، فلا يَفتأ يَتنسّم الأخبار ، ويترسّم الآثار ، حتى إذا تمّ له الوقوفُ على كلّ شيء ، جعل يُعمِل الحيلة ، ويتوسّل إلى إفساد الأمر بكلّ وسيلة ، فيدسُّ علىّ من يزعم أنه من قِبَل الصَّحب ، وأنهم قد أجّلوا جلستَهم لطارىء طَرَأ ، وحادثٍ فَجَأ ، ولقد يَدُسّه عليهم على أنه رسولى إليهم ليبلغهم عنى مثل ذلكَ . فإذا تعذَّر ذلك عليه، وكُشِفتْ لى ولصحبى حيلتهُ ، وظهرت دسيستهُ ، استَحدَث لى من الأسباب ما ينغِّص عيشى ، ويكدِّر صفوى ، ويبدّل سرورى قلقاً وغمًّا !

وإنه ليعلم أننى أخاف ركوبَ السّيارة فلا أتّخذها إلا مُضطرًّا . فإذا ركبتُها تفرّقَت نفسى بين يديها لعلها تَصدِم أو لعلها تُصدَم ، فتُهشِّم أو تَتَهَشَّم ، وأن لسانى لا يفتُر عن سؤال السوّاق الهوْن والرِّفق فى المسير طَوالَ الطريق ، وإنه كذلك ليعلَم أنه ما من حَدَث من أَحداث الدنيا يُزعجنى عنْ نَومة الظَّهيرة ، وخاصّةً فى أيام الصَّيف . ومع هذا فلقد يَقتحم علىّ غُرفةَ نومى ، وقد تعوّدت أن أنام وحدى ، ويكون ذلك منه فى بعض الساعة الثالثة بعد الظهر فى يوم من أيام شهر يوليو مثلاً . وإنه لَيبعثنى من نومى وما علَلتُ منه ولا نَهلْت . فأهبُّ منزعجاً مبهوتاً مكدوداً لَقِس النفس موزَّع الفكر . فإذا بى أراه واقفاً بسريرى ، فأسأله الخبرَ فى رَوعة وفزَع ؛ فيسألنى أن أُسرع فى وضع ثيابى لأننا مسافران من فوْرنا فى السيارة إلى بورسعيد فى أمر جَلَل لا يخبّرنى خبرَه إلاّ إذا بَلغنا سالمْين !

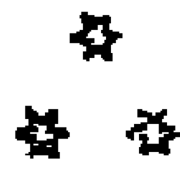
پورسعيد ! پورسعيد ! وفى هذه الساعة ! وفى السيّارة !

وإنه لَيُسرف فى الإلحاح علىّ بدعوى شدّة حاجته إلى أن أكون معه فى هذه الطّلبة، وإلاّ تأخّرت حاجتُه العاجلةُ إذا لم يَفسُد الأمرُ كلُّه . فإذا اعتللتُ عليه ، وأظهرتُ شيئاً من البَرَم بهذه الرّحلة الشاقّة الخطرة ، أقبل علىّ فى مثل صورة المتوسّل يذكّرنى الوُدّ القديمَ والصحبةَ الطويلة ، وهو وإن كان يتعفّف عن أن يَذكرَ سوابقَ يده عندى ، ويَتعالى عن أن يَمتنّ بها ويتطوّل ، فإننى فى هذا المقام لَأذكرها وحدى من غير حاجة إلى مَن يُذكّرنى . ولا شكّ أن هذا أوقعُ فى النفس وأبعثُ لداعية المرُوءة ، وعلى هذا لا يسعنى إلاّ مطاوعتُه. ولقد أتكلّف الاغتباطَ بهذه الرّحلة الجميلة !

ولقد يتفضّل المولَى جلّ وعلا فَيصلَ فى الأعمار حتى نَبلغ مدينةَ الإسماعيلية ولم نُكلَم كَلْماً ؛ فاسترحنا فيها ساعةً ، ثم واصلْنا المسيرَ فصرنا على ذلك الصراط المتلوِّى المتأوِّد الذى لا يَطّرد فى استقامته عشرة أمتار سوِيّا وقناةُ السويس عن أيماننا ، والتُّرعةُ الاسماعيليةُ عن شمائلنا ، والسيارة تَسلُك ما بينهما مَسلك الخيط من سَمّ الإبرة . فإذا كنا على هذا أومأَ إلى سائقه الجبّار فأطلق للسيارة العِنان ووخزَها وخزاً عَنيفاً ، فطارت كلّ مَطار . ما تخشى بأسَ الأرض ولا تَرهَب سَطوةَ البِحار ، وليس على يميننا إلاّ غَرَق ، ولا على يسارنا إلاّ غَرَق ، أما مِن قُدّام ، فليس إلاّ الصِّدامُ والموتُ الزؤام ، وللسيارة زفيرٌ وشهيق ، وصهيل كصَهيل الجواد العتيق . وإنّ بصرى لَيزيغ ، وإن قلبى ليرقص فى جوفى فأراه يَغمِز جنبى مرّة ، ويَصُكّ حَنجرَتى مرّة ، وإذا استطعتُ أن أَجمع نفسى فسألتُه الرفق ، أومأ إلى السائق ليَزيد ، إذا كان فى قوة السيارة فضلٌ لِمَزيد !

وأقول له ذاتَ يوم ، ونحن على هذه الحال : إذا كان بك أن تُهلكنى ، وتعجِّل اليُتمَ لبَنىّ ، فما حاجتُك إلى أن تَهلِك أنت وتُعجِّل اليُتمَ لبنيك ؟ فأجابنى من فَوره بقول الشاعر ، وقد أخذ التنمُّرُ والشَّهوةُ إلى افتراس العدوّ من خَلْقه كلَّ مَأْخذ :

« فاقتـــلونى ومالِكاً واقتلوا مالِكاً معى » !

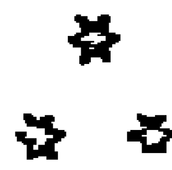


هذا ياسيدى بعضُ ما يَلحقنى من كيده وشرّه ، وذلك بعضُ ما يَنالنى من عَطفه وبِرّه ، أفلا خَبَّرتنى : أيكون هذا الرجلُ لى أعدَى الأعداء ، أم أصدقَ الأصدقاء ؟

إننى فى انتظار جوابك على مثل جمر الغَضى . والسلام عليك ورحمة الله .

المخلص

م . . . .



(تحرير المصوّر) يظهر لى يا سيدى أنك رجلٌ طيّب بَلغتَ من الطيبة غايةً لا يُستحَبّ لك منها المزيد ! أمّا صاحبُك فيخيَّل إلىّ أنه ليس بالرجل المفطور على الشرّ ، ولا بالذى يَبتغى لك الأذى والكيد لاضطِغان عليك ، وعداوة يَحملها لك ، بل إنه لقد تَشتدُّ شهوتُه إلى مداعبتك، حتى بما قد يكون مَظِنَّة الخطر عليك وعليه معاً . والشهواتُ لو علمتَ فُنون . وإنى لأكاد أقطَع بأنه يُحبك ويُؤثرك ، ولا تنسَ فى النهاية أن الحبَّ بلاءٌ كما يقولون . أسأل الله لى ولك العافية

عبد العزيز البشرى

عـــبرة*

جلستُ ليلةَ أمس إلى بعض صُدقائى وجعلنا نَسمُر ، فقصّ واحدٌ منهم علينا القِصّةَ الآتيةَ . قال :

كان لى صَديق ، وكان رحمه الله عَذبَ الرُّوح ، سَلِس النَّفْس ، قوىَّ العاطفة ، مُتسعِّرَ الذّكاء ، حُلوَ الحديث ، حاضرَ الفُكاهة . وكأنه قطعةٌ ناضرة من الغِبطة وحلاوة الأمَل

ولقد أحبَّ الحياةَ وغَلاَ فى حبها ، وأبغَض الموتَ وأسرَف فى بُغضه . وسَبيلُ الموت ، فى العَادَة ، هو المرض . فكان إذا ذُكِر المرضُ طار قلبُه فرَقًا من ذكر الموت !

وكيف يَتّقى المرضَ ويَتحامَى أسبابَه ؟ لقد جاء بطبيب والتزَمه بياضَ نَهاره وسواد ليله . فلا يَهبُّ من فراشه إلاّ إذا أمره بالهبُوب . ولا يَطمئنّ إلى مَضجَعه إلاّ إذا أذِنه بالاطمئنان . ولا يخرُج من داره لِطَلِبَةٍ أو لفُرجةٍ إلاّ إذا أشار عليه بالخروج . ولا يُبدِّل ثوبَه أو يَحُفّ لحيته أو يَتروَّى بجرعة الماء إلاّ إذا أوحَى إليه الطبيب . فإذا استَويا إلى المائدة وقُرِّبت ألوانُ الطّعام تَحرَّم أو يقولَ له الطبيب أصِبْ من هذا اللّون وأقلِل ، ونَل من هذا وأكثِر . وبَقِىَ عليك لتُسيغ هذه اللقمة سِتُّ مَضغات ، وبقِىَ عليك لتُزْلِق هذه المُزعة[1] إحدى عَشرة !

وجاء بكتُب الحكمة ، وطَلَبَ المجلات الطبية ما يَخرج منها فى العربية وما يخرج

* نشرت فى السياسة ضمن (ليالى رمضان) سنة ١٩٢٥

(١) المزعة من اللحم : القطعة

فى الفرنسية . وجعل يُديم النظرَ فيها والإكبابَ على تفهُّم مباحثها ، وما قاله العلماء فى اتِّقاء الأمراض وعلاجها ، وما لوّح به المستكشفون من إمكان التوصل إلى مدافعة الموت و إطالة الحياة . ولكنه لقد يُصافح إنساناً وقد يَمَسّ آنيةً أو يَلمس ثوباً ، فسَرْعانَ ما يَفزَع إلى ألوان المطهِّرات : هذا يَغسِل به يديه ، وهذا يُضمِّخ[1] به ثوبَه ، وهذا للمَضمَضة ، وهذا للاستنشاق !

ولكنه يتنفَّس ولا غَناء له عن أن يَتنفَّس ، وقد يَجرّ نَفَسُه نَسمةً مؤذيةً بما تَحمِل من (المكروبات) . فهو دائبٌ على تَجرُّع الأدوية : هذا لتطهير الحَلْق ، وهذا لتنقية الرئتين ، وهذا لتنظيف المُصْران[2] الدّقاق ، وهذا لترويق الكَبِد والكُلْيتَين !

ولكن قلبه يَضرِب : ومن آية الحياة أن يَضرِب القَلب . أفأَمِنَ بينَ ساعةٍ وأُختِها أن تختلّ ضرَباتُ قلبه فتكون نَفْسُه[3] فى إحدى جَمَحاته ؟ فتراه طَوَال يومه مُكبًّا على كُرْسُوع يُسراه ببنان يُمناه ، و (ساعته) فى حجره ليعُدَّ ما تدور عليه كل (دقيقة) من ضربات قلبه : لقد استوت سبعين فالحمد لله ! لقد ازدادت إلى تِسعين فَواحَرّ قَلباه ! لقد تَدلَّت إلى ستين ، وذلك فتور وانخذال ، لقد هَبَطت إلى سبع وخمسين ، وذلك من نذُر التّلاشى والانحلال ! الأطباء ! .. الأطباء ! . علىّ (بكنصلتو) يَنتظِم فلاناً وفلاناً وفلاناً من كبار الأطباء ! . . .

ويدور البحث والفَحص والتَّقليب ، والتَّسمُّع والجسّ والتَّحليل ، فيَخرُج من هذا كله أن الأمر لا يَعدُو فُتوراً فى أعضاء الجسم يذهب بفنجان قهوة أو بجُرعة شاى !

---

(١) ضمخه بالعطر : نضحه

(٢) المصران جمع مصير . أما المصارين فجمع الجمع

(٣) تكون نفسه ، أى يكون موته

وسَرعان ما يَنبَعث فى صاحبى نشاطُه ، وتعود إليه نَضَارتُه وفتاءُ قوته . وقد يَستقبل حديثَ المرض هُنَيهةً فيأخذ فى حديث الناس ، ويَتبسَّط إلى الصِّحاب بالنادرة اللَّطيفة ، ويُحاضرهم بالمُلحة الطَّريفة . وما يزال هذا شأنه حتى يَرميه بابُه بزائر . فإذا سَقَط لسانُه بأن فلاناً قد مات ، تَربَّد وَجهُه ، وتَتعتَع لسانُه ، وتَزايل هيكلُه فى مجلِسه ، وتاهت حَدَقتاه فى مَحاجِرها . وشدَّ نَفْسه شدًّا ثم تهافت بها على الزائر يسأله : وهل مَرِض هذا فلانٌ وهل شَكا ؟ وماذا كانت عِلّته ؟ ومتى ابتدأت شَكاته ؟ وما الذى كان يَظهر عليه من أَعراض الداء ؟ وهل كان يحِسّ وجعاً ؟ وفى أىّ موضع كان يَستشعِر الألم ؟ وما صِفَة الدَّواء الذى كان يَتناوله ؟ ومَن الطبيبُ الذى كان يعالجه ؟ وهل فحص عن قلبه ؟ وهل كان يَعُدّ ضرباته ؟ الخ ! . . .

ثم إنك لتشعُر أن قد نَشِبتْ فى نفس المسكين معركةٌ هائلةٌ بين الرجاء فى الحياة وتوقّع الموت كما مات هذا فلان ! فيكون الفوزُ فى صدْر هذه المعركة للأوَّل ، إذ تراه قد شَدّ متنَه ، وأقبل يُحدِّثك فى قوة وحماسة عن صحَّة قلبه وسلامة سائر جوَارحه ، وأنّ جمهرة الأَطباء قد أكَّدوا له ذلك وأَقاموا عليه أبلغَ البراهين وأدمغَ الحجج ؛ حتى لقد صحّ لهم أن قلبه من السَّلامة بحيث لا يَقع مثلُه إلاّ فى كلّ ثلاثة آلافِ قلبٍ لا يَسلَم واحدٌ على علّة ؟

ثم تكون له فَترةٌ يُقبِل فيها على جَسّ نَبْضه ، ثم تراه قد دخل فى الغَشْيَة ولحِقه الذّهول ، فزاغت عيناه ، وتقلَّصت شَفتاه ، وأُرعشت يداه ، وجعل يَطفُو ويرسُب فى كرسيّه ؛ وأومأ فتطاير الخَدَمُ يَطلبون الأطباءَ من كلّ مكان !

وكذلك قَضى العمرَ إلى غايته مشغولاً عن مُتَع الحياة ومطالب الحياة بشدة الحِرص على الحياة !

وقد مَرِض حقًّا وألَحَّت عليه العلّة وأَيِسَ منه أُساتُه، وجاءنى أنه لا يعدُّ يومين، فأسرعتُ إلى عيادته وأنا أرجو ألاَّ يكون قد اطلع على حقيقة علّته، فيموت قبل أن يموت!

وجلستُ إليه فإذا هو يَفطُن إلى خَطْبه، وهو يشعر بأنه لن يَطوِىَ على ظهر الأرض يوماً حتى يَطويه بَطنُها طيًّا. أفرأيتُه من الموت كان مذعوراً منخلِع القلب مُستَطار اللب؟

كلاَّ والله! فإنى لقد رأيتهُ وهو يَستقبِل الموتَ هادئَ السَّعى، وادعَ النَّفْس، يَتجمَّع ليتحدَّث فى هذه الأسباب الدائرة بينَ الناس، حتى يَخذُله لسانه، وتتخلَّف عنه قواه، فيُرخِى جَفنيْه ويَدخُل فى مثل السِّنة؛ ثم ينتبه وعلى شفته ابتسامةٌ عَذبة أعرفها له وهو فى صَدر الشَّباب. وقد يحاولُ أن يَدور بلسانه فى مُلحَة أو نادرة مُستطرَفة فيُعيِى عليه الـكلام، فيحاول أن يتعلق إلى شأنه بشىء بينَ الضحك والابتسام، ثم يعود إلى إغفاءته فى غِبطةٍ ودَعَة وارتياح.

وظلَّ هذا شأنَه حتى دخَلَ فى الحَشْرَجة، وفارقَ هذه الدنيا ورحمه الله!

قال محدّثنا: أفرأيتم كيف كان رفْقُ الطبيعة بالإنسان؟

ليس من سبيل إلى تَوَقِّى غِيَر الدَّهر والعِصمة من كوارثه؛ والناسُ ما عاشوا فى هذه الدنيا أهدافٌ للمصائب، وأَعراضٌ للنوائب. وهم أبداً مُهتمُّون بها دائموا الجزَع منها. وإنما يكون إشفاقُهم من رَزَايا الدهر وجزَعُهم على قَدر قُربهم منها أو بُعدهم عنها. كذلك يتفاوت ما يَتَداخَل نفوسَهم من الوَجْد والفرَق بتفاوتهم فى قوَّة القلب، ومتانة الأَعصاب، وثبات الإيمان.

وعلى كل حال، فإنه ما من مُصيبة فى الأرض إلاَّ كان مَوقعُها أهونَ وأخفَّ

من توقّعها . وهذا كما قلت من رِفق الطبيعة بالإنسان ، وإن فى حديث صاحبى الذى قصَصتهُ عليكم لَعِبرة .

فقال بعض الحضور : وعلى هذا صحّ المثلُ العامىُّ القائل : « الوقوع فى البلاء ولا انتظـاره » !

فبادره آخرُ بالمثل العربىّ : « الناس من خَوف الذلّ فى الذلّ » !

وتمثّل ثالثٌ بقول كُثيِّر :

فقلتُ لهـا يا عَزُّ كلُّ مُصيبَةٍ إذَا وُطِّنَتْ يوماً لهَا النَّفسُ ذَلَّتِ

وجعل رابعٌ يردِّد قولَ الشاعر :

لا أَســتقيلُ زَمانى عَثرةً أبداً ما شَاءَ فَليأتِ إن الشُّهدَ كالصَّاب[1]

وتفرّق عندَ هذا مجلسُ الإخوان ، فعزَمتُ لأُسامِرَنَّ به قراءَ « ليالى رمضان »

---

(١) الصاب : شجر مر .

قصـــة*

حيـاء!

وفتًى يَشربُ المُدامةَ بالمـا ... لِ ويَعشى يَرُومُ ما لا يُرَامُ
تركَته الصَّهباء يَرنو بعَـينٍ ... نَامَ إنسانُهـا وليستْ تَنـامُ
جُنَّ من شَرْبَةٍ تُعَلُّ بأُخرى ... وَبكى حينَ ثَارَ فيه المُدامُ
كانَ لى صاحباً فأَوْدَى به الدهْــــرُ ... وفارقتهُ عليـه السلامُ

وحينَ أُترجمُ لموضوع اليوم بكلمة (قصَّة) لا أعنى الروايةَ ولا ما يُشبه الرواية؛ فإننى لا أُشيع فيها خيالاً، ولا أَخترع لها أبطالاً، ولا أَخلُق مفاجئات، ولا أبتكر مواقف، ولا أُمُدَّ لها مغزًى يُصيب غَرضاً، ولا أُعالج تحليلَ نفس أو فكرة، لأننى لا أُجيد هذا الضربَ من البيان ولا أحذِقه، بل إننى لم أُحاوله قطّ طولَ حياتى الكتابية، وإنما أقصّ حادثةً وقعت بسَمعى و بَصَرى، فإن هى أصابت غَرَضاً أو اتَّصل بها مغزًّى، فذلك من صُنعِها نفسِها، لا فضلَ لى من ذلك فى كثير ولا قليل

كان لى صاحب شابّ نشأ فى الحسَب، وتقلّب فى شىء من النعمة، وأصاب حظًّا من العلم. وكان يَكلَف كلفاً شديداً بالأدب، فلا يَخلو بنفسه إلاّ أكبَّ على ديوان شِعر لواحدٍ من متقدِّمى الشعراء. فإذا سقَط على كلامٍ جيّدٍ رائعٍ جَعَل يترنّم به. و إذا وقع له فى نثر النُّثّار أو فى خُطَب الخطَباء كلامٌ بليغٌ راح يُشيعُ

* نشرت فى جريدة النساء فى يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠

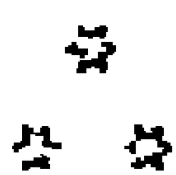
فيه نفسَه ويُقلّب به لسانَه. وكان رحمه الله إلى هذا عَذبَ الرُّوح، جمَّ التواضُع حاضرَ البديهة، حُلو الحديث. ولكنه مع هذا كلِّه كان شديدَ الحياء حتى لترى فيه خَفَرَ الفتاة الكَعاب، يتَحامى مجالسَ الناس ولا يَتَهافت عليها، فإذا قضَت عليه الأسبابُ بأن يَدخُل فى غَمرهم عَقَد الحياءُ لسانَه، وملك عليه بيانَه

٧ وكان عَصَبيَّ المِزاج يُثيره التَّافهُ من الأمر فيغضَب، ولكن الغضب لا يصل من نفسه إلى أبعدَ من السَّطح، فهو كالغدير تُثير صفحتَه العاصفةُ، ولكن باطنه كله سهلٌ وادعٌ رفيق

ولقد جرى عليه القدَر، فعَلِق فتاةً يَصِل أهلَها بأهلِه بعضُ السبب. وكانت حُلوةً نجلاء العينين، لها فمٌ دقيقٌ بديع، إذا افترَّ افترَّ عن مِثل حَبِّ الغَمام، أو عن عِقدٍ من الدرِّ بديع النظام، مُدمْلَجة الجسم، ممشوقة القدّ، مُشرِقة الوجه، حتى لتحسب أنّ وجنتَيها تجُول فيهما الشمس، وكانت إلى هذا مَرِحةً لعوباً تكادُ من خفّة الرُّوح ومن شدة المَرَاح تطير :

وهو يَرتصِد لها فى مَغداها ومَراحها، ولربما استهلَكَ فى ذلك يومَه الأطول، حتى إذا جازت به أَسبَل عينيه، أو لَفَت النظرَ إلى شىء آخرَ من الخجَل والاستحياء !

ولقد حدثنى أنه جاز فى رُفقة من صحبه ببيتها صباحَ يوم، فإذا هى فى ثياب التفضل تقطِف من الحديقة أزهاراً. فلما رأتهم توارت منهم فى بعض الشّجر. قال : فتشجّعتُ وأرسلتُ نظرى، فإذا غصنٌ تتدلّى منه وردةٌ لم يَرَ الراؤون شبهاً لها فى الزمان !



وأخذ فيه الهوى، وألحّت عليه الصّبابة، ولحِقه من الولَه عليها ما نقرأ مثلَه فى الكتب فلا نصدّقه

ويشاء اللهُ أن تدعوَ أهلَها بعضُ أسبابهم إلى التحوُّل عن القاهرة ، فتحوّلوا وامتلَخوا معهم قلبَ صاحبي المسكين ، فكيف حيلتُه ؟ وكيف له بتعليل ما يغمِز على كبده من هوًى وصبابة ؟ لم يجد المسكينُ حيلةً إلا أن يَفزَعَ إلى الشَّراب ، فكان يَصطبِح[1] ويَغتبِق[2] ، ويسكَر ما تهيأ له السكرُ فى الليل أو فى النهار . فإذا زجره عن هذا زاجرٌ ، أو وعظه واعظ ، تمثَّل بقول الشاعر :

فأصبحتُ ألْحَى السكْرَ والسكْرُ مُحْسِنٌ　　ألاَ رُبَّ إحْسانٍ علىَّ ثقيــل

وكان إذا جمعه المجلسُ ، حتى المجلسُ الطَّلِىُّ الظريف ، استوحش واستشعر الوَحْدَة ، فتسلّل وانتبذ بنفسه ناحيةً ليأنسَ باستحضار هواه . فكان فى هذا يُذكِّرنى قول الشاعر العربىّ يصف لبنته ما يجِد من فراق أهله :

إذا عَنَّ ذِكْرُهمُو لم يَنَم　　أبوكِ وأوحَشَ فى المجلسِ

ويُذكِّرنى قولَ الآخر (ولعله مجنون ليلى) :

وأخرُج من بينِ الجلوسِ لعلَّنى　　أُحدِّثُ عنكِ النفسَ فى السِّرِّ خاليا

وإنى لأَستَغْشِى وما بِىَ نَعْسةٌ　　لَعلَّ خيالاً منكِ يَلْقَى خَياليا

وقلتُ له مرةً فى ذلك ، فقال : اسمع يا فلان ! لقد خلَصَت حياتى كلُّها لها ، وتجرَّدَت نفسى فيها ، وانقطعَت حواسّى إليها ، وأصبحتْ هى جميعَ مادّتى وعناصرَ وجودى ؛ فكيف تريدنى على ألاّ أشتغل بها أو أحتبس على التفكير فيها ؟ والله يا فلان ! إنى لأراها طول يقظتى كما أراها طول نومى ، فإننى ما رأيتُ دُرَّة قطّ إلاّ حَسِبتُ أنَّها انتُزِعَت من ثَغرها ، ولا أبصرتُ مِرآةً قطّ إلا ظننتُ أنها استُعيرت من صَدرها ، ولا طالعتُ وردةً ناضِرةً إلاّ خِلْتُ أنها قُطِفَتْ من خَدِّها ، ولا

(١) اصطبح : شرب فى الصباح ، والاسم منه الصبوح بفتح الصاد

(٢) اغتبق : شرب فى المساء ، والاسم منه الغبوق بفتح الغين

تمثَّلَ إليَّ غُصنٌ من البان إلاّ أحضَرَني صورةَ قدّها ، ولا سَطَع لي عبيرٌ إلاّ شعَرتُ أنه من شَذَاها ، ولا فَصَحَني نُورٌ إلاّ قدّرت أنّه من إشراق مُحيّاها ، ولا سمعتُ شَدْوَ القُمريّ إلاّ سمعتها تتكلّم وتلغو ، ولا طاف بي النسيمُ إلا تمثلتها تلعب وتلهو . ولا طلعت الشمسُ إلاّ رأيتها فيها ، ولا استتمّ البدرُ إلاّ خلتها تعلو على الدنيا كِبْراً وتيهاً . وإني لأرفع بصري إلى السماء فأرى لها هَودَجاً في موكب السَّحاب ، وأخرُج إلى الفلاة فإذا هي التي يترَقرَق بها السَّراب . فهي سَعدِي وهي نحسِي ، وهي نَعيمي وهي بُؤسي . وهي لذّتي وألمي ، وهي صحّتي وسَقَمي . وهي نعمتي وبلائي ، وهي حياتي وفنائي . ثم أقبل عليّ وقال لي في خوف ووَرَع : فما حاجتُكم إلى أن تقطعوا ما بيني وبينَ نفْسي ؟ !

*
* *

ولقد ظلّ صاحبي على شأنه قُرابةَ عشْر السنين . وانتهى إليه في بعضها أن الفتاة زُفّت إلى بَعل ، وكانت هنالك ، في ظنه ، عَواثيرُ تحول دون خِطبتها له وتزويجها منه ، فاجتمع عليه ألمُ الصَّبابة وألمُ الغَيْرة معاً . واستوحش المسكينُ وآثر الوَحدة ، وألحّ على الشّراب ، وأكثرَ من الخروج إلى الفَلَوات . ولعله لم يكن يُطالع بكل مَداخِله إنساناً قَدْرَ ما كان يطالعني ، ثِقةً منه بإيثاري له وفرط محبّته ، وكِتمان مَستُوره . وكان رحمه الله إذا عَرَض الخاطرُ في هذا يتمَثَّلُ بقول جميـــل :

أموتُ وألْقَى اللهَ يا بُثْنُ لم أبُحْ ... بحبِّكِ والمُسْتَخْبِرونَ كثيرُ

*
* *

عشر سنين ! وعشر سنين على مثل هذا كَثير : رِقّة نفس ، ودِقّة حسّ ، وتسعُّر ذكاء ، وغرام بالغ ، وشدة وَلَه ، وانقطاع وطول مهاجرة ، و (أرَقٌ دائم وحزن طويل) ، ويأسٌ فاره وأملٌ هزيل . والخمر ! الخمر فوق ذلك ، تَهيج في

نفسه وتُعربد ، وتُسرف فى عمره وتبدِّد . ورسل الموت تتوالى ، ونُذُر الطِّب تتدارك وتتتالى . وماذا يَعنى صاحبَنا من كل أولئك؟ أليس يعيش لها؟ نخيرٌ له أن يموت فيها!

ولقد ضربه المرضُ بذات الجَنْبِ، فما برِح يَرِقّ و ينحُف، ويهزُل و يضعُف؛ ولكنه إذا تحدّث عنها خِلتَ أن أرماقَ نفسه قد تجمّعت كلُّها فى لسانه ، فترى منه فى ذاك أقوى القوّة ، وتَشهد منه أفتَى الفتُوّة ؟

ويدعونى إليه ذاتَ يوم ، فوافقتهُ، فإذا هو مُشرق الوجه ، مَرِح النفس . لولا المرضُ يُثقله لما وسِعَته الدنيا طرباً ومِراحاً . فأقبلتُ عليه بالهَنَاء على مَدْخَل العافية . وسألتُه الخبرَ ، فضحك ضحكةً طويلةً مزّقها عليه السُّعال . فلما سكن وتطامن، قال: احزُر؟ فقلت : لا أحزُر إلا أن يكون جاءك خَبرٌ من عند صاحبتك فقال : إى والله ، فلقد جاءتنى جاريةٌ لها تقول لى : إن فلانة قد عادت إلى القاهرة واستقرّت فيها ، وهى تدعوك إلى زيارتها لتسألك فى بعض شأنها . وإنها لفى انتظارك الآن لو تهيّأ ذلك لك ، وإلا ففى غدٍ أو بعد غد . فخفَفْتُ من فَوْرى مع الجارية . ولقد والله ودِدْت لو أستَحيل فى طريقى إليها حمامة ، أو انتفض نَعَامة ، حتى أستمتع برؤيتها الوقتَ كلّه، فلا تزاحمنى على هذا المتاع مسافةُ الطريق

وتلقّتنى مَرِحة فى جِدّ وتوقُّر ، وسلّمتُ عليها فى أدبٍ وتحشُّم . واتخذَتْ لها مَقعداً لا هو بالقريب منى ، ولا هو بالبعيد عنى . وتحدّثنا ساعةً فى مثل أحاديث الناس ، وجَعلتْ تقُصّ علىّ بعضَ ما لَقِيَت فى تلك السنين ، وهى لا تَفتأ الفَينةَ بعد الفَينة تسألنى عن شأنى وما تغيّر بعدها من أسبابى ، فأجرُّ لها الجواب جرّاً ، لأننى إنما كنتُ مشغولاً عنها بها ! . ثم أفضَت إلىّ بمسألتها ، وزعَمت لى أنها فكرَت فلم ترَ لها مُسعِداً فيها غيرى لِمَا بين أهلَينا من وثيق

الصِّلة ، إلاّ أن يكون عليّ في الأمر غَضاضةٌ أو أن تَلحَقني فيه مَشقّة . وأنا أحلِف لها بكل مُؤَثِّمة من الأيمان أنه ليس هناك أيّةُ غَضاضة ولا أيّةُ مَشقّة ، وأنها في تحرُّجها جِدُّ مبالِغة ، ثم استأذنتُها وانصرفت

فقلت له : وهل منعك الحياء أيضاً من أن تُبادِيَها بحبّك ؟ فقال : كلا ! فلم يَعُد للحياء عليّ من سبيل ؛ ولكنني كرِهتُ أن أفعلَ لكيلا أُتّهَم عندها وعند نفسي بأنني أقتضيها على مَسعاتي لها أجراً . قلتُ : فماذا صَنعْت ؟ قال : سعيتُ لها مسعًى صغيراً ردَّ اللهُ به حقّها عليها . ولقد تعاظمَها الأمرُ فأَرسلتْ إليّ جاريتَها تَشكرني وتَستزيرني . قلت : فماذا أنت صانع ؟ قال : سأظَلّ أياماً أُخَرَ أتقلّب على مثل جَمر الغَضَى ، وأُعاني من الشوق واللّوعة ما أُعاني ، حتى تتراخَى الأيامُ بتلك المسألة ؛ وحينئذ أزورها وأسكب بين يديها كلّ غرامي وولَهي ، فلم يبق فيّ فضلٌ لصبر ولا لكتمان . وودَّعته على أن يُطالعني بما سيكون من أمره معها

***

وفي أصيل يوم صافي الأديم ، عليل النسيم ، أرسَل من يدعو بي إليه ، فوافيتُه فإذا هو أنحلُ من الطَّيف ، وأرقُّ من سحابة الصَّيف . فما إن رأيته قطّ ، واحسرتاه ، متداعِياً متهدِّماً كما رأيتهُ في ذلك اليوم ؛ على أنني رأيتُ في عينيه بريقاً حديداً ، وعلى شفتيه الذابلتين ابتسامة تَشِفُّ عما وراءها من حُرقة ألم ، وشدة أسًى ونَدَم ، فقلت له : مالك ؟ فقال : لقد زرتُها اليومَ ولم أُلْبِثها ، بل اقتحمتُ عليها ، وجَثوت بين يديها ، وبَثثتُها ما أُعاني فيها من الهوى ، وما أجد من حُرَق اللَّوعةِ ومن بُرَح الجوَى ، فَعرَاها أولَ الأمر شيءٌ من الذُّهول ، وجعلتْ تُديرُ فيّ نظراً حائراً . وظلّت على هذا بُرهة . فلما عادت إليها نَفسُها سألتني عن مَبدأ هذا الحبّ وكيف نَجَم . فرحتُ أقصّ عليها حديثي من أوله إلى آخره . فجعلتْ تَعجَب لأمري في ذُعرٍ وندم ، وتسألني : لماذا لم أُصارحها بهواي كلّ هذا الزمان

الطويل ؟ ولماذا سُمتُ نفسى كلَّ هذا العذاب الأليم ، والخطبُ لو قد باديتُها بحبى ، وعزمى على التقدم لخطبتها كان أيسرَ وأهوَن ، لأنها لم يكن يُعجزها أن تَروض الصِّعاب ، وتُذلِّل العِقاب(١) ، واندفعتْ تَبكى وتَنشِج ، واندفعتُ أنا أبكى وأستعْبِر ، حتى بلغنا من البكاء غايتنا ، ولكلّ سائلةٍ قَرار . وأخذَت بيدى وأجلستنى إلى جانبها ، وأنشأت تَمسَح ما انهلَّ من الدُّموع على خدى ، وتِمُرّ يدَها ليّنةً رفيقةً على كتِفى كأنها تدلّل طِفلا .

ثم أقبلتْ علىّ تعاتبنى على أن أخّرتُ مكاشفتَها بهواى حتى تَولّى الصِّبا ، وجفّت أنوارُ الرُّبى ، وآذن البدرُ بالأُفول ، وأشرفت الوردةُ على الذُّبول ، وأوشك أن يحزُن(٢) أملود(٣) الإهاب ، وأن يَسكن ما كان يَتحيّر فى الخدود من ماء الشباب . أفكلّ هذا يَصنع الحياء ؟ ألاَ بُعداً لهذا الحياء !

فقلت لها : دعينى من هذا ، فوالله ما أراكِ الآن إلاّ كما كنتُ أراكِ فتاةً مَرِحة لَعوباً تَثِبين فى حديقة بيتك ، تَجمَعين الأزهار ، وتارةً تُلاغين الأَطيار . وهل تحسبين أن الأيام أبقت منى على عينٍ تنظر جديداً ، أو عاطفةٍ يُشِبُّها حديث ؟ إنما أنظر إليكِ بتلك العين ، وأُشِبّ لكِ تلك العاطفة ، وهما اللتان ادّخرتهما للحياة من ذلك العهد البعيد ، ولو كانت لى عينٌ تنظر كما تنظر عيونُ النـاس ، وعاطفةٌ تَهُبُّ كما تهُبُّ عواطفُ الناس ، ورأيتُكِ اليومَ أحْلَى وأنضرَ مما كنتِ ، لانصرف حُبى عنك ، لأن هوايَ إنما يكون إلى غيركِ . فهلمّ بنا نسافرْ معاً إلى الماضى ، تَبعثين له حسنَك ، وأبعث له قلبى . فعلى هذا الماضى نَعيش ما قُدِّرَت لنا الحياة .

ثم كانت زَفَراتٌ تنفّس بها الحَشَى، وتَرحَم بها القلبُ عن كل ما أَعْيا على اللسان !

---

(١) العقاب : بكسر العين جمع عقبة

(٢) حزن المكان بضم الزاى : غلظ فصار حزنا بفتح الحاء (٣) الأملود : الناعم اللين

ولا أدرى أأحبّته من تلك الساعة كما أحبّها دهرَه الأطولَ ؟ أم أنها أسعدته بالبكاء رحمةً به، وشفقةً عليه ؟ !

*
* *

وألحّت العلةُ على صاحبى ، وأثقلته فى فِراشه ، فلم ير صاحبتَه بَعدَها أبداً . وكنتُ أعوده فى كلّ يوم . فلما تراءت له المنيَّة قال لى ذاتَ يوم : أنت أصدقُ أصدقائى وأحفظُهم لعهدى ، وأ كتمُهم لسرّى ، فهل لك فى يدٍ تُسديها إلىّ ؟ فقلت له : فدَتك نفسى فمُرْ ، وأنا لك فيما دون الدِّين والعِرض طائع . قال : فإنى حين عَلِقتُ فلانةَ وصدَّنى الحياء عن مكاشفتها بهواى كنت أفيض بمذكراتٍ أصف فيها بعضَ ما أجِدُ لها من الصَّبابة . فهل لك أن تحفَظها عندك ولا تنشرها للناس ، إن نشرتَها ، إلاّ بعد أن يَنطوى خبرى وخبرُها ، ويَمّحى أثرى وأثرُها ؛ فما أُحب أن يَعرِف ، على الزمان ، غيرُك من أنا ومن هى ، فلَنا من حُكم العادة ومن حُكم بيوتنا ما يكفُّنا عن هذا ، فعاهدته على ذلك . فمدَّ المسكينُ يدَه الرقيقةَ الناحلةَ ، واستخرج من تحت الوِسادة رِزْمة دفع بها إلىّ ، بعد أن كرّر الوصيةَ تكريرَ الواثق لا المستريب

وقَضى بعدَ أيام ، ولكم سالت لمصرَعه كبود ، ولكم لُطمت فى رُزئه خدود ، ولكم شُقّت عليه جُيوب ، ولكم تفطّرت له قلوب !

*
* *

وشخصتُ فى ضُحَى يوم من الأيام إلى قبر صديقى لأزوره ، فإذا عليه وردٌ ناضر وريحانٌ جَنِىٌ ، فسألتُ سادِنَ القبور عمن جاء بهذا ؟ فقال لى : إن سيدةً تنتاب هذا القبرَ حيناً بعد حين ، فتنثُر عليه الرياحين والزهور ، وتَظَلّ ساعةً تبكى حتى تَستعبِر ثم تنصرف . فسألته أن يَصفها لى ، فعرفتُ أنها صاحبته ؛ رحمةُ الله عليهما جميعاً .

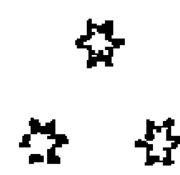
أولادنا* !

تسألنى يا سيِّدى فى كتابك أن أصِفَ لك حُبَّ الولد ، وما مَبلغه ، ومن أىِّ نَحوٍ هو ، وهل يَستوِى فيه صِغارُهم وكبارُهم ، وذكورُهم وإناثُهم ؟ وهل صَدَق ذلك الذى قيل له : أىُّ بَنيك أحبُّ إليك ؟ فقال : صغيرُهم حتى يَكبَر ، وغائبُهم حتى يَحضُر ، ومَريضُهم حتى يَبْرأ ؟

وتُرى هل تختَلِف مَحبةُ الولد باختلافهم فى الصِّفات من الجمال والقُبح ، والنَّجابة والغَباء ، وحُسن الخلُق وسوء الطَّبع ، والنشاط والكسل ، والنَّجاح والخيبة ؛ ونحو ذلك مما تختلف فيه الصِّفاتُ وتتغايرُ الطِّباع ؟

وتسألنى يا سيِّدى أن أُوضِّح لك شيئاً تَبهَّم عليك فى أمر الولد : ذلك بأن حبَّهم لا شك فيه ؛ بل إن هذا الحبَّ من الأشياء الموصولة بالطبع والغَريزة . ومع هذا فإنك لتَرَى أكثرَ الآباء إن لم ترهم جميعاً يَتمنَّون لو أنهم لم يكونوا قد رُزِقوا أولاداً ! فكيف يَستقيم الجمعُ بين هذا الحبِّ كلِّه للولد ، و بين هذا الضِّيق كلِّه بالولد ؟ أليس من أَعجب العَجب أن يَضيق الإنسانُ بأَحبِّ الأشياء إليه ، ويَبرَم بأشدِّ ما يَكلَف به فى الدنيا ، ويَتمنى أن لو لم يكن بعد ما قد كان ؟

ثم تعود فتلحّ على فى أن أُصوِّر لك هذا اللونَ من الحبِّ تصويراً صادقاً واضحاً حتى تَشعرَ بأن لك أولاداً تحسُّ حبَّهم وتَتذوَّقه كما يحسُّه ويَتذوَّقه الآباء !



أما بعد ، فلقد سألتنى شَططاً وجشَّمتنى عَسيراً ؛ بل ما أراك تُجشِّمنى من الأمر إلا مُحالاً ! فكيف لى بأن أَصفَ لك ما لم يقَع قطُّ عليه حسُّك ، وأن أَجلو على

---

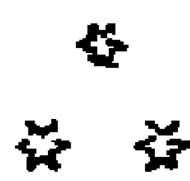
* نشرت بمجلة الهلال فى عدد شهر يونية سنة ١٩٣٥

نفسك من ألوان العواطف ما لا صِلةَ لها به ولا سبب . و إن مَثَلك فى هذا لكَمَثل من يَستوصِف طعمَ الكُمَّثرَى ، أو لونَ البَنفسَج ، أو نَغمةَ العِراق ، أو رائحةَ الياسَمين ؛ ليُدركها إدراكَ من قد طَعِم أو رأى أو شَمّ أو سمِع ! اللهم إن هذا الذى تجشِّمنى يا سيدى ليس فى طَوقى ولا فى طَوق اللّغة ؛ فإن هذه المعانىَ التى لا تُدْرَك إلاَّ بالحسّ ، لا يُمكن أن يُغنِى فى تذوّقها الوصف !

بل إننى و إياك لقد نشترك فى الشعور بمعنًى من هذه المعانى ، ولقد تَترقرَق فى نفوسنا بإزائه عاطفةٌ واحدة ، ومع ذلك يُعيِى علينا كِلَينا البيانُ فى جَلْوِها والترجمة عنها . فإذا بَدا لأحدنا فى أىّ وقت أن يذكرها لصاحبه لم يَزد على أن يشير إليه بأن يَبعثها فى نفسه ويَستحضرها استحضاراً . وتلك لغةُ الإحساس

اللهم إن جهد اللغة فى هذا الباب أن تقرِّب هذه المعانى ، لمن لم يَسبِق له أن يحسَّها و يلابسها ، بفنون التشبيه والتمثيل : كأن يقال إن طعمَ كذا شبيهٌ بطعم كذا ، أو إنه بين الحلو والحامض مثلاً ؛ و إن عبير هذه الزهرة شبيهٌ بعبير ذلك النوع من الزهر لولا أنه أشدُّ أو ألطفُ مثلاً . وكلُّ ما يمكن أن يُعطىَ هذا ، مهما يعلُ بيانُ الواصف ومهما يَدِقّ و ينفُذ ، إنما هو صورةٌ تقريبيَّةٌ . أمّا أن ينفُضه بالبيان على الحسّ حتى كأنما يُذاق حقًّا فذلك مِما يوصَل بالمحال !

وأنت ترى أنه لا سبيل حتى إلى جَلْو هذه الصورة التقريبيَّة الناقصة لشىء من هذه المعانى إلاّ بردِّها إلى شىء سبق أن وَقع عليه الحسُّ ولابسه الشعور



على هذا سأتحدَّث إليك يا سيّدى ، عن حبّ الولد . سأتحدّث إليك وأنا واثقٌ أتمَّ الثقة بأننى عاجزٌ أشدَّ العجز عن أن أنفُض عليك كثيراً من هذا الشُّعور الذى تَنطِف به كبدى ، فيَشيع فى جميع نفسى . ولقد تعلم أن كلمةَ الحبّ

تَنطوِى على ألوان من الحسّ كثيرة قد تقترب اقتراباً شديداً ، وقد تفترق افتراقاً شديداً . ومهما يكن من هذا الافتراق وذلك الاقتراب ، فإن للحبّ فى كلّ موضوعٍ كيفاً خاصًّا وشعوراً مستقلاًّ لا يَشركه فيه سواه ، فللحياة حبٌّ ، وللجمال حبٌّ ، وللذّات حبٌّ ، وهكذا . على أنك تحسّ لهذا الضربِ من الجمال غيرَ ما تُحسّه لذلك الضّرب من الجمال ، وتَشعُر لهذا اللون من اللّذة غيرَ ما تشعُر لذلك اللون . إذن فاعلم أن حبّ الولد غيرُ أولئك جميعاً

حبُّ الولد غيرُ حبّ الزوج ، وغيرُ حبّ الوالدَين ، وغيرُ حبّ الإخْوة وأبنائهم ؛ هو حبٌّ له طعم لا تَذوقه فى شىء من كل أولئك ، هو مَزْجٌ من الرحمة والحنان ، ومن السعادة والجمال ، ومن الطرب والشجَى ، ومن الطمأنينة والقلَق ، ومن الأَثرة والإيثار ، ومن الخوف والرّجاء . هو مَزْجٌ من هذا كله مختلِط ، يَموج بعضُه فى بعض ، فيخرُج له ذلك الطعمُ الخاصُّ الذى لا يكون إلا بمجموع هذه المعانى ، وإن كان أظهر عناصرِه الرحمة والحنان

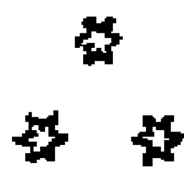
لعلك يا سيدى قرأتَ قول الشاعر العربى :

وإنمــا أولادُنا بيننــا أكبادُنا تَمشى على الأَرضِ

لعلك قرأتَ هذا البيتَ مرّةً ومرّة ، ولو قد قرأته ألفَ مرّة ما خرَج لنفسك منه شىءٌ مما يُحِسُّ له صاحبُ الأولاد !

نعم ، هؤلاء هم أكبادنا ، ما غابوا عنا إلاّ شَعَرنا بنقص فى نفوسنا ، بل بأحسنِ ما فى نفوسنا ، حتى يُردُّوا علينا ؛ بل إنه ما اجتمع بهم شملُنا إلاّ شعرنا بأنهم قِطَع قد فَصلَت عن نفوسنا ، ولو قد تهيأ لنا أن نحسُوها حَسواً لِنملأ بها هذا الفراغَ الذى نحسه فيها لفعلنا !

ابنى معناه أنا ، ولست أريد (بأنا) كُلِّى ، بل إنما أُريد به عُصارةَ ما فىَّ من عَطفٍ ورحمة ، وأملٍ وشعورٍ بأسعد السعادة وأجمل الجمال ! ليس لَحْمُ ابنى ولا دمُه وعظمُه إلاَّ هَيكلاً لكلِّ هذا ، بل ليس إلاّ رَمزاً ، بل ليس إلاّ هذه المعانىَ قد تجسَّدت فسُوِّيت على صورة الإنسان ، بل إنى أكاد لا أراه إلا تلك المعانىَ مُترقرِقةً لم تُمسِكها صورةُ الإنسان !

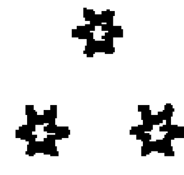


هذا ولدى الصغيرُ يَلعب بين يدىّ ، فسَرعان ما أَنسى سِنّى وأطرح كلَّ همّى ، بل سَرعان ما أخرُج عن نفسى ، فلا أرانى إلا قد رُدِدتُ طفلاً يَتمثَّل فى خَلقه ، فأنا الذى يَلعَب ويعبَث ، وأنا الذى يُسرّ ويَغتبِط بهذا اللعِب والعَبث ، حتى إذا تعرّض لمكروهٍ فى بعض جَريِه ووثبه ، ودفعِه وجذبِه ، ثُبتُ إلى نفسى فكَفَفتُ المكروهَ عنه ، ثم رُدِدت من فَورِى إلى ما كنتُ فيه !

وإذا كان قد جاءك أن أعظَم العظماء فى هذا العالَم قد خَرجوا فى ملاعبة أبنائهم عمَّا ينبغى لهم من الجِدّ والتوقّر ؛ بل لقد يبلُغون فى هذا أشدَّ ما يَبلغ الصِّبيانُ من ألوان العبث ، فاعلم أنهم لا يتكلَّفون هذا تكلفاً لمجرد إدخال السُّرور عليهم ؛ بل إنهم لكثيراً ما يَرون أنفسَهم فى بنيهم فيَستشعِرون هذه الحداثةَ ، ولا يَجدون حَرَجاً من أن يَصنعَوا ما يَصنع الأحداث ؛ بل إنهم لَيَجدون فى هذا لذّةً لا تَعدِلُها لذّة ، ومِراحاً دونَه كلُّ مِراح !

وإذا كان قد جاءك أن أعظمَ العظماء فى هذا العالم قد اتَّخذوا من أنفسهم مَطايا لِصغارهم ، فأركبوهم ظهورَهم ، لا يرَون بهذا بأساً ولا يَجدون فيه حَرَجاً . فاعلم أنهم ، وقد عجَزوا عن أن يَردُّوا كبودَهم إلى مواضعها بين ضلوعهم ، سواء عليهم أَوَضعوها على الصدور أم وضعوها على الظهور !

ولقد ترى الرجلَ يُؤْثِر ولدَه على نفسه بالحلوى والفاكهة مثلاً ، فلا تظننَّ أنه إنما يَفعل هذا لمجرَّد تفكيهه وتلذيذه ؛ بل إن نفسه هو لَتتذوّقها بهذا أحلى مُتَذَوَّق، وتُسيغها أحسن مَساغ، بما لا يُقاس به احتلاؤها بالشِّفاه، وتَقليبُها في الأفواه



هأنذا أُقبّل ولدى ، وإنى لَأَجد لقُبلته من اللّذة ما لا أجده لشيء من لذائذ الدنيا . هى لذّةٌ فيها شدَّة وفيها رِفق ، وفيها عُنف وفيها لِين ، وفيها حَرٌّ وفيها بَرد . وفيها وراء ذلك حلاوةٌ لا يتعلَّق بها وصفُ الواصفين . أرأيتَ هذا الذى ألَحَّ عليه الظما فى اليوم القائظ حتى استحال الظمأ فى حلقه أُواراً ، ثم أَقبل على الشَّبِم الزُّلال فجعل يعُبُّ منه عباً حتى ينقع غلَّته نقعا ؟ اللهم إنى لَأَجد فى تقبيل ولدى أشدَّ من هذا وأحلَى وأرْوَح ، لولا أن اللذّة فيه لا تنقضى ، والغُلّةَ إليه لا تَنقَع ، على كثرة العَبِّ وعلى توالى الرّشيف !

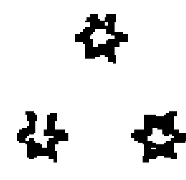
وإذا كان الماء يَروِى أُوارَ الجسم ، فإن هذه القُبلةَ إنما تَروِى أُوارَ النفس . وشتانَ بينَ هذا وهذا فى مذهب الشُّعور !

هذه قُبلةٌ تتظاهر الحواسُّ كلّها على إصابتها وإدراكها ، وتتجمَّع النفسُ من جميع أقطارها لتَشهدَها وتلتذَّ بها ، فلا يَبقَى شيء منها غائباً عنها ولا مُخطئاً لها ؛ حتى لتشعُرنَّ بأن هذه النفس تتقطر كلها على وجهه ، ولا يبقى منها إلاّ رَمقٌ هو الذى يُشعرك ما أنتَ فيه من اللذَّة ومن النّعيم !

وإننى لأَسمع صوتَ ولدى الصغير فى نَغوه أو فى كلامه أو فى ضَحكه ، فيُشيع فىَّ من الطرب ما لا يُشيع أندَى الأصوات ، ولا نَغَم عُود فى يد أحذق الضاربين ! بل إنى لَأَجد منه ما يجد الشّجرُ إذا نزل عليه الماء فاهتزّ العودُ وضَحِك الزّهَر !

ولقد تخبُث نفسى بما يَثِبُ فيها من الغيظ والاضطغان، حتى أُحسّها تكاد تتمزّق تمزّقا . فما إن أرى ولدى، وأنا على هذه الحال، إلا رأيتُها قد تطامنَت وسمَحَت حتى توشك أن تصير نارُها إلى خُمود !

و إن أشدَّ الناس جُبناً وفَرَقاً لَيرَى ولدَه فى خَطَر أو مُستهدِفاً لخطَر، فلا تراه إلاّ يَنصبّ لاستنقاذه انصباباً ما يبالى ما يُصيبُه، بل ما يبالى أهلَك معه أم هلَك دونَه !

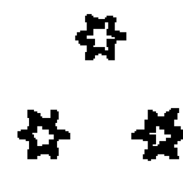


وهذا ولدى يَمرَض، فهذه كبدى تَسيل مَسَالا، وهأنذا أُجنّ ولكننى لا أُغفَل عن المكروه غفلةَ المجانين، ولا أَجد ما يَجِدون من رضًى بحالهم وارتياح . وهذا حِسّى يَضطرب اضطراباً شديداً بين الرحمة والألم، والحنان والخوف، والإشفاق والجزَع. و إن وراءَ هذا كلِّه لَشيئاً هائلاً بَشِعاً يَتراءى لى شَبحُه من بعيد، فأُغمض عينى دونَه حتى لا أراه ولا أتبيّنه . بل إنى إذا خلوتُ إلى نفسى لأُطلبُه وأتفقّدُه، فإذا تَمثّل لى بكَيتُ حتى استعبرَت، فأجد لهذا البكاء راحةً مِمّا يَغمِز على كبدى و يُحرِّق صدرى تحريقاً . بل إنى لأتمنّى على الله أن يَنقُلَ ما به إلىّ، فإذا كان ثَمّةَ حدَثٌ لا بدَّ من أن يَجرى به القدَر، ودِدت جاهداً مخلِصاً لو أننى أكون أسبقَ الاثنين

و إنى لَأَذكر فى هذا المقام أننى احتَسبتُ ولداً لى كان وحيداً، فجُنّ جنونى، وفَعل بى الأَسى الأفاعيل. وقد انتهى إلى أبى رحمةُ الله عليه بعضُ ما أصنع أو بعضُ ما يَصنع الوجدُ بى، فدَعا بى وقال لى : بلغنى أن الجزع قد بلغ منك إلى أنك تفعل كَيتَ وكَيتَ . أفلا آثرتَ الاحتمالَ وتَجمّلتَ بالصّبر على هذا كما احتملتُ أنا وكما صبَرت ؟ فسكتّ لأننى لم أُصِب قولاً أقوله . فأقبلَ علىّ رحمه الله وأخذ يدىَّ كِلتيهما فى يديه، وقال : اسمع يا ولدى، إذا كنتَ قد حزِنت لموت فلان

مرّةً فلقد حزنتُ لموته مرّتين ! فرفعتُ وجهى ، إليه وقلت له فى شىء من الدّعة والرّفق يخالطهما كثيرٌ من الدهَش : وكيف هذا ؟ فقال فى لَوعة شعرتُ بما يُعانى فى مجاهدَتها : لأنه إذا كان ابنَك مرّةً فإنه ابنى مرّتين ! ورأيتُ الدمعَ يترَقرق فى عينيه ولكنه لا يأذَن له فى أن يتجاوز المحجرين . ووالله لقد سرّى هذا الكلامُ عنى كثيراً إذ قد علمتُ أننى فى هذه المصيبة صاحبُ أضعف السّهمين !

وإن تَعجَب لشىء فاعجب لهذا الإنسان الأَثِر الشّديد الأَثَرة ، الحريص على الحياة أبلغَ الحرص ، والكلِف بها أشدَّ الكلَف ، والذى يوَدّ لو يمتدّ عمرُه إلى ما وراء أعمار الناس جميعاً . هذا الإنسان يَفرَق أشدّ الفرَق من أن يتقدّمه إلى الفَناء ولدُه . وإن اللذّةَ كلَّها والسعادة جميعَها لتتمثّل له فى تصوّره أن ولده سيعلّله إذا شكا ، ويقلّبه إذا مرِض ، ويُغمِض جفنيه إذا مات ، ويسوّى عليه الترابَ بعد أن يُفضَى به إلى لَحده !



ثم إنك تسألنى : أيكون حظُّ الأبناء من حبّ أبيهم واحداً ، وأنهم كلّهم فيه بمنزلةٍ سَواء . أم أنه يختلف باختلافهم بالصِّغَر والكِبر ، والذكورة والأنوثة . فاعلم ، ياسيدى ، أنك على إغراقك فى حبّ أبنائك جميعاً ، وشمُولهم بلونٍ من الحبّ لا يَشرَكه فى مَذَاقه سواه ، فإنك واجدٌ لحبّ كلٍّ منهم كذلك شعوراً خاصًّا لا يَشرَكه فيه غيرُه ولا يُزاحمه عليه سواه . فحبُّهم أشبهُ بالجنس عند أصحاب المنطق تحته أنواع . وإنك لتُصيب من التفاح ومن الكُمّثرَى ومن العِنب والتين وغيرها من ألوان الفاكهة فتلتذّها كلّها فكلها حُلو لذيذ ؛ على أن ما تجده لهذا من الطعم غير ما تجده لذاك . ولله شوقى بك رحمةُ الله عليه حين يقول فى وصف الخمر :

حمراءُ أو صفراءُ ، إنّ كريمَها ... كالغِيدِ ، كلُّ مليحةٍ بمَذَاقِ

والواقعُ أن الإنسانَ لو قد حدَّ حِسّه ، وأرْهَف شعورَه ، وراح يَتدسَّس فى أعماق ضميره لِيتفقّد حقيقةَ هذا الاختلاف ويَتعرَّف وجهَه ، لرأى أن مادةَ هذا الحبّ واحدةٌ وجوهرَه غير مختلف ، ولكنَّ سِنّ كلّ ولد ، وظروفَه وأسبابَه وجِنسَه تتناول صورةَ حبّه بالتشكيل والتَّلوين .

ولقد زعمتُ لك فى بعض هذا الكلام أن حبَّ الولد مَزْجٌ من عواطفَ كثيرةٍ أسطعُها الرحمةُ والحَنان . فإذا كان الوليد فى المهد فإنك لا تكاد تجد له إلاَّ هاتين العاطفتين . فإذا تقدّمَت به الأيام حتى دَرَج وجعل يَنطِق ببعض اللفظ ، أُضيف إلى هاتين شيء من الأُنس به والطَّرب له . فإذا تقدَّمَت به الأيامُ فجعل يَثِب ويلعب ، ويُقلِّد فى بعض الأقوال ، ازداد بك هذا الانسُ وهذا الطرب ، وأحسستَ إلى ذلك جديداً ، هو أن هذا الغلامَ أصبح يَشغَل من لهوك صدراً عظيماً مالَك منه بُدّ ولا لك عنه غَناء . فإذا تقدَّمَت به السنونَ حتى استوى للتربية والتعليم ، دخَل على كل أولئك شيء من الإيثار له بإجماله بالطاعة والنجابة وحسن الأَدب مع الناس ، وشيء من التأميل الرَّفيق فى أن يكون فى مُستقبَل شأنه من الناجحين . وكلما اطَّرَدَت به السنّ رَبت هذه العاطفة له واشتدّت حتى تكاد تَغمرُ سائرَ ما تَجد له من الاحاسيس . فإذا اغترب أو مرِض أو أصابه مكروهٌ من المكروه ، عادت تانك الخَلَّتان إلى مُطوعهما حتى لا يكاد يُشعر له إلاَّ بالرّحمة والحَنان ، لأن شأنه فى ذلك أولَى بالرَّحمة والحَنان !

أرجو أن تكون قد فهِمتَ الآنَ حقَّ الفَهم الوجهَ فى قول ذلك الذى زعم أن أحبَّ بنيه إليه صغيرُهم حتى يَكبَر ، وغائبهُم حتى يَحضُر ، ومريضُهم حتى يَبرَأ . ولعلك كذلك تكون قد استخرجتَ من كلامى أنّ أسطعَ العناصر فى حب البنات إنما هو الرحمةُ والعطف والإشفاق ، لأنهن ضعيفاتٌ مالهنَّ بعِراك الأيّام يَدان .

* * *

ثم إنك تسألنى : أيختلف حبُّ الولد باختلافهم فى الصِّفات من الجمال والقُبح ، والنَّجابة والغَباء ، وحسن الأدب وسوء الخُلق ، والنشاط والكسل ، والنجاح والخيبة ، وغير ذلك من الصِّفات .

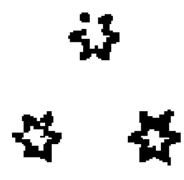
لعلَّه قد وقع لك يا سيدى فى بعض ما تقرأ جوابُ ذلك الأعرابىّ الذى قيل له : ما بلغ من حبّك لفلانة ؟ فقال : « والله إنى لأَرى القمرَ على جِدارها أحسنَ منه على جُدران الناس ! »

لقد ترى أن هذا الأَعرابىَّ كذَب أشدَّ الكذب ، لأن القمر على جدار صاحبته كالقمر على جُدران سائر الناس . ولقد تراه صادقاً أتمّ الصّدق لأنه يَرَى القمرَ على جِدار صاحبته أحسنَ منه على جدران سائر الناس . وكذلك الولد فإنك لا تكاد ترى فيهم إلاّ جميلاً . أو على الأقلّ إنك لا تكاد تلمَح عيوبَهم سواءٌ أكانت خِلقية أم نَفسيَّة إلاَّ بعد شىء من التأمّل والتفكير . أما ما دُمتَ ترسل النظرَ فيهم عفواً بلا تعمّل ، فإنهم عندك أحسنُ الأولاد ، ذلك بأنك إنما تنظر إلى كبدك ، أو على الصحيح إنما تنظر إلى نفْسك . وأنت خبيرٌ بأن المرء قلّ أن يتَفطَّن إلى عُيوبه ، ولو قد تفطَّن إلى شىء منها فإن أمره لا يَتعاظَمه كما يتعاظَمُه مِثلُه فى غيره من الناس . وكذلك ترى الرجلَ لا يُنكر من بنيه بعضَ ما يُنكر من غيرهم من الأبناء ، إذ كان يَقدِر هؤلاء بالعقل والفكر . أما أولاده فإنما يَقدِرهم بالعاطفة والهوى ، ما يكاد يُلابسهما تفكيرٌ ولا تدبير .

نعم ، لقد يكون فى الولد عيبٌ خِلْقىٌّ واضح . ولقد يُصاب بالآفة من شأنها أن تُثقِله عن السّعى فى الحياة . ولقد يبلُغ من انحراف الطَّبع وفساد الخُلق وسوء الأدب أقصَى الغايات والعياذُ بالله . فإن موقِعَ ذلك من نفس أبيه ، وحظّه من التقدير عنده ، أضعفُ من قَدره فى الواقع ومن قَدره عند الناس ، وإن ذلك

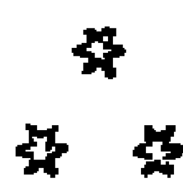
ليسوءه بالضرورة ، وقد يُكدِّر عليه عيشَه ، وقد يهيجه ويُثير على الولد سخطَه ، قد يبلغ ذلك به كلَّ هذا ، ولكنه لا يحُطّ من حبّه لولده و إيثاره له على أيّ حال . بل إن ذلك منه لدليلٌ على هذا الحبّ والإيثار . فما ساءه ولا كدّر عيشَه ولا أحنَقَه ولا أسخطه إلاّ الرحمة له ، والشفقةُ به ، والأَسى على أنه لم يكن من أسعد النّاس أو أنه لا يكون أسعدَ النّاس .

بل إن الوالد لقد يتمنَّى الموتَ لولده فى بعض الحِين ، لا بغضاً له ولا اضطغاناً عليه ، ولكن رحمةً به وشفقةً مما يَجنى عليه سوء أخلاقه، حيثُ لا رجاء فيه لخير ولا لصلاح ؛ فشأنُهُ فى هذا شأنُ من تضربُ العلةُ أعزَّ الناس عنده وأكرَمهم عليه ، العلةُ المُعَنِّيَة الشديدةُ الإلحاح بآلامها وبُرَحِها ، والتى لا يعرف الطبُّ لها شِفاء ، ولا منها نَجاء . و إنه ليتعجّل له الموتَ رقّةً له و إيثاراً له بالاستراحة مما يُعانى من هذا العذاب الشَّديد ، على حين أنه أشدُّ الناس لموته جَزَعاً ، وأعظمُهم منه ورَعاً و إشفاقاً !



وأخيراً أراك تسألنى : كيف يَستقيم الجمع بين حبّ الولد إلى هذا الحد وتمنِّى أكثر الناس لو لم يكن الولدُ بعد أن قد كان ؟

ولستُ أشك ، يا سيدى ، فى أنك إذْ كنت تصوغ هذا السؤالَ قد قدرت الفرقَ الواسعَ بين تمَنِّى أن لو لم يكن الولد ، وتمنِّى هُلْكه بعد أن قد كان . فاعلم إذن أنه ما يُشبِّهُ لهذه المُنيَة إلا غلوُّه فى حبّه، والرّقة له ، والشفقة به مما يَلقَى أو مما عسى أن يَلقى فى هذه الحياة من علل وأسقام ، ومن بُرَح ومن آلام . على أنه وقد خرج إلى الدنيا فلا يكون له من أبيه إلاّ ما جلوتُ عليك بعضَه فى هذا الحديث ، فلقد تَماصَى علىَّ أجَله .



و بعد ، فما أراني بعد هذا كلّه بلّغتُك ما تحبّ ولا جليلاً مما تحب ، بل إنى لأخشى ألاّ أكون قد بلّغتُك شيئاً أبداً ! على أننى أدلك على من يستطيع أن يَصِف لك ما استوصفتَ فى أوضح صورةٍ وأدقّ تعبير، حتى يَتهيأ لك أن تتذوّق حبَّ الولد فى جميع صوَره وأشكاله . وليس يُجشّمك طلبُ هذا إلاّ أن تسرع فتَبني[1] عسى أن تُرزَق أولاداً . فهؤلاء الأولادُ وحدَهم هم الذين يستطيعون أن يجيبوك إلى ما سألتَ أبرعَ إجابة ، و يُصوّروا لك هذا الحبَّ أصدقَ تصوير !

---

(١) تبنى : تتزوج .

الطفــــل

ملك صغير

بل هو مَلِكٌ كبير، بل هو أعظمُ الملوك شأناً ، وأقواهم سلطاناً ، مملكتُه منيعةٌ لا تقلقها جارة ، ولا يُزعجها عدوّ بغارة . وهو مُطْلَق الأمر فى حكمه لا يقيِّده قيد ، ولا يحدّ من سلطانه حدّ . ولا تَشركه فى تصريف الأمر يد ، ولا يقوم بإزاء أيْدِه قوة ولا أيْدٌ(١) . نافذٌ حكمه كيف حَكَم ، مُتقبَّلٌ قضاؤه مهما ظَلَم . لا معقِّبَ لمراده ، ولا مُراجعَ له فى إصداره ولا إيراده . يأمر فلا يَرَى إلا مطيعاً ، ما يُجَشِّم فى أمره قولاً ولا توقيعاً . ففى إشارته الكفاية ، وبالإيماءة يبلغ الغاية . فإذا هو تَكَبَّرَ على الإشارة ، وتعالى على الإيماءة ، أسرعَتِ الرَّعِيَّة(٢) إلى تفقُّد مبتغاه ، وتَحَسُّسِ معناه(٣) . ثم بادرتْ بالتلبية طيِّبَةَ النفس ، فَرِحَةَ القلب ، قريرةَ العين !

***

كلُّ شيء له ، وكلُّ ما وقعت عليه عينه فهو داخل فى مِلْكه ، ما يحوز أحدٌ دونَه شيئاً ، ولا يملك أمرٌ عليه أمراً . وإذا أَمَر فقد وَجَبَت الطاعة ، فى التَّوِّ والساعة ، مهما جَلَّ المَرام ، وتَعَذَّر حتى على الرُّؤى والأحلام . أين منه سليمانُ فى مَرامِه ، وقد تعاظَمَه انتظارُ عرش بِلْقيس قبل أن يقوم من مَقامه ؟ ! .

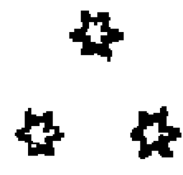
---

(١) الأيد : القوة

(٢) رعيته : أمه والقائمون على شأنه

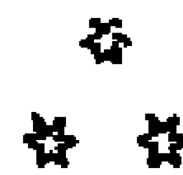
(٣) معناه : ما يعنيه ويطلبه

ناعمٌ فى مُلكه غير مُعَنًّى بجهد فى تدبير ، ولا مكدود بعِبْءٍ كبير ولا صغير .

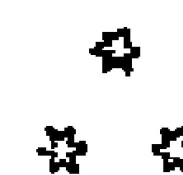


هو كأهل الجنة ، لا يخاف وناهيكَ بما يُورث الخوفُ من الأسقام . ولا يرجو وناهيك بما يُعْقِبُ فَوْتُ الرجاء من الآلام . ولا يحزَن ولا يَأسَى ، ولا يجزَع ولا يَشْقَى ، وما لَه يفعل وقد كفَلَ الأمان ، من صرف الزمان ؟ ! .

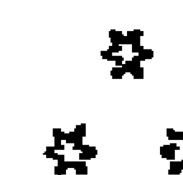
هو دائماً فى أمانٍ أىّ أمان . أليست تَرعاه العيون . وتَحوطه القلوب ، ويَحرُسه « اسم الله » ؟ ومن يَحرُسه اسمُ الله لا ينَاله بالأذى إنسٌ ولا جانٌّ .



يفعل ما يشاء ، فلا يَرْقَى إليه حساب ، ولا يتأثَّم من شىء فهل يَلحَقه عَاب ؟ كلا فقد عزَّ على الشك وعَلاَ على الارتياب !

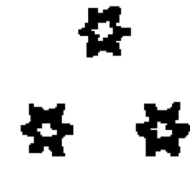


يُسر فتُسَرُّ الدنيا ، ويَمرَح فتمرَح ، كلُّ شىءٍ رَهْنٌ به ، وكلُّ شىءٍ حَبْسٌ عليه . ينام فتَخفُت الأصوات ، وتتعلَّق الأنفاس . ويستيقظ فيهُبّ النائم ، ويَنبَعث الجاثم ، فكلُّ إنسانٍ له عبدٌ وكلُّ شىء له خادم !



وَجْهُه ولو شاه أجملُ وجه . وخَلْقُه وإن تنَكَّر أحسنُ خَلْق . طَلعتهُ أبهَى من البدر ، وريحُه أزكَى من العِطر ، وإقبالهُ أسعدُ من إقبال الدهر . كأنما صُوِّرَ من نفس مَن ينظر إليه ، وكأنما صُبَّ من قلب من يحنو عليه وأىُّ الناس لا يحنو عليه ؟

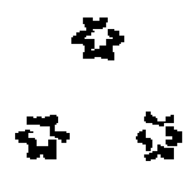
أما صوته فى لَغوه ، فأحلى من صوت الهَزَار فى زَجْله وشَدْوه — إذا تبسم فكأنما أشرق من الروضة آسُها ، و إذا لغَا فكأنما ترنم من الحَلْيِ وَسَواسُها .



هو نفسه للرعية ، أعظمُ متاع وأكبرُ أمنيَّة . مُحَبَّبٌ أحسن أم أساء ، وهو معقِد الرجاء أنَّى ذهب وأنَّى جاء .

هو مَلِكٌ كبير . أمَّا عرشُه فأحنَى الصُّدور ، وأمَّا سريرُه فأَوْثَرُ الحُجور . وأما سِمَاطُه فممدود ، على القُلوب تارةً وتارةً على الكُبود . وأما فى مَرَاحه ومَغْداه ، فأعزُّ المَطايا مطاياه ، وتلك لعمرى كرامةٌ خصَّه بها الله ! .

وأما غذاؤه فأصفى ما انْتضحَت به المُهَج[1] . ولو كانت النفُوسُ مِمَّا يمكن أن يُرْضَع أفاويق ، والأرواحُ مِمَّا يُستطاع أن يجرى فُراتاً فى مَسَاغ الريق ، لآثَرَتْهُ بذالك الرعيَّة ، طيِّبةَ النفس صادقةَ الأَرْيحيّة !



أسعدك الله أيها الطفل وأصَحَّك ورَشَّدك ، حتى تَضطلِع بنصيبك من الأَعْباء ، كما اضطلَع بعبئك أنت الأمهاتُ والآباء ، ما سألوك فيه أجراً ، ولا اقتَضَوْك عليه شُكراً . اللهم آمين .

---

(١) المهجة : دم القلب .

الطفـــل الشريد*

وجهٌ مُغْبرٌّ شائهٌ كأنه مَعفورٌ بتراب قبر . وصُدغان غائران كأنهما من أثر خَسْف . ووجنتان ناتئتان حتى أمستا كركبتَى بعير . وقد لَصِق جلدُه بعظمه ، حتى لا يَقوَى قبرُه على قَشره ، إلى يوم نَشره . وهاتان عينان دائمتا التحيُّر والاضطراب . تتناهبان النظرَ من كلِّ ناحية . ولو استَطَاعتا أن تنظرا إلى الأقطار السِّتَّة معاً فى آن ، لفعلتا على طول الزمان !

هذه رجلٌ حافية ، وهذه أسمالٌ[1] بالية ، تفرقت فتوقاً وخروقاً ، وتفصَّلت حُزوقاً وشُقوقاً . تكشِف من البدن أكثرَ مما تدارى ، وتَفضَح من السوأة أعظمَ مما توارى . على أن القذَر قد أضفَى عليه رداء محكَمَ النسجِ مُتلاحمَ الأجزاء ، وناهيكَ برداءِ القَذَر من رداء !

ليت شِعرى ، أهذا شَبحٌ من أشباح الظَّلام ، أم هو طَيفٌ من أطيـاف الأحلام ؛ تنكرها الأيدى و إن تراءت للعيون ، وتريك ما لا تظنُّ أن يكونَ كيف يكون !

ها هو ذا يَثِب من ها هنا ، ويَقفِز من ها هنا . لا يقِرّ له على الأرض قَرار ، كأنما هو كرةٌ تتقاذفها الأقدار ، سوادَ الليل وبياضَ النهار !

ها هو ذا دائم الاختلاج عن يمينك وعن شمالك ، حتى يشتت شمل طرفك ، ثم إذا هو قد امَّحَى كما تَمَّحِي الأشباح ، إذا أشرقت شمسُ الصباح

* كتبت هذه القطعة إجابة لطلب جمعية « رعاية الطفولة المشرّدة »

(١) يقال : ثوب أسمال ، أى قطع وخرق .

ها هو ذا يرتصد للكسرة بين يديك إن كنت آكلاً، ولعقب (السيجارة) تلقيه إن كنت مدخناً . وقد يأخذ عينه لقى[١] من فضالة الطعام خسيس ، قد يعافه الغراب ، وتعف عنه الكلاب . فإذا هو قد ارتج ارتجاجاً ، وكاد يسيل اضطراباً واختلاجاً . وجعل بصره يدور فى كل ناحية ، مترقباً سطوة القدر بكل داهية . ثم انقض على فريسته انقضاض العقاب ، وطار بها حتى اختفى فى السحاب !

هو دائم الخوف ، متصل الفزع . يخاف من كل شىء ، ويفزع حتى من لا شىء . يتوقع الأذى من كل إنسان ، ويترقب البطش به أنى كان . كل ما فى هذه الدنيا ساهر على إيذائه ، جاهد فى كيده و بلائه . فكيف له فى هذه الدنيا بالقرار ، وهل أمسى له من الأذى معاذ إلا بطول الفرار ؟ حقاً لقد باتت حاله شراً من حال من عنى الشاعر :

وضاقت الأرض حتى إن هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

ولكن أين المفر ، وهو لا يفلت من ترقب شر ، إلا إلى توقع ضر ؟ !

ثم إن طول جهد النهار ليسأله المضجع فى بعض الليل ، وقد تكون الليلة زمهريراً . فيجرى ثم يجرى وهو خائف يترقب ، حتى يلوح لعينه مرقد فى كنف جدار على ضاحية[٢] الطريق . فإذا أمن رقبة العيون المذكاة[٣] عليه من كل جانب ، تسلل فأوى ، و يابئس المأوى . وترى هل يواتيه بعد هذا الجهد نوم إذا لم يزعجه عنه العسس[٤] ، أزعجه خوف العسس ؟ ثم انتفض فى السحرة ما أحس قراراً ، ولا نام إلا غراراً[٥] !

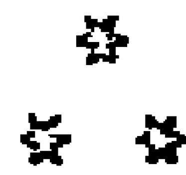
لا (يذوق) النوم إلا غراراً مثل حسو الطير ماء الثماد

(١) اللقى (بفتح اللام) : الشىء : الملقى المطروح (٢) ضاحية الطريق : جانبه المنعزل
(٣) المذكاة ، المبثوثة (٤) العسس : شرطة الليل (٥) الغرار : القليل من النوم .

لقد حُرِم المسكينُ عَطفَ الأبِ وحَنانَ الأُمّ ، كما حُرم رِفدَ الخال وعونَ العمّ . ولم يجد ما يعوّضه عن شيء من ذلك ولو بمِزْقةٍ من رحمة الرُّحماء ؛ بل ما أصاب من الناس إلّا بلاءً وتوقُّعَ بلاء . فهل تظن أن مثل هذا يجد لإنسانٍ رحمةً أو يُحسّ لشيء رِقةً وحنانًا ؟ اللهم إنها لَكبدٌ قد تحجّرت فما تَطرُقها رحمة ، و إنه لَقلبٌ يَغلى غلَيان القِدرِ من حِقدٍ ومن اضطغان . ولو قد صانعه القدر فاستطاع أن ينفُث ما فى صدره ، لاستحالت هذه الأرضُ فحمةً سوداء ! .

ثم إنه لا يَميز حلالاً من حرام ، ولا يفرق بين طريق الخير وطريق الإجرام . كلُّ شيء مباح ، لا يَصُدّ عنه إلّا بَطشُ الظَّلَمَة السُّلَطاء ! .

ولقد يصُكّه على أمّ رأسه من لِدَاتِه[1] أو من غيرهم مَن هو أشدُّ منه قوة ، وقد يركُلُه فى بطنه ، وقد يناله من هذا أو من هذا أذى كبيرٌ لعله يبلغ فى بعض الحين حدَّ التَّلَف ، فلا يشكو ولا يَستَعْدِى ، لأن هذا حقُّ الأقوياء على الضعفاء !



ها هو ذا يسعُل سُعالاً رفيقاً مسمعُه ، ليّناً مَوقِعُه ، لو أرهفتَ له الأُذنَ لخرج لك منه نَغَمٌ حزينٌ يَحزُ الحشا ، و يخُدُّ الكبدَ خدًّا .

الله أكبر ! لقد أقبل وشيكاً مقوّض الرِّئات ، وسفير الممات !

فيامعشر القادرين الأقوياء ، ارحموا مَن فى الأرضِ يَرحمْكم مَن فى السَّماء !

---

(١) لداته بكسر اللام : أقرانه فى السن

إلى أين ؟ إلى أين ؟
ألاَ من قَرار ؟ ! . . . *

لستُ أُدرى لعمرى : فيمَ أنا الآن ؟ تالله ما أرانى فى شىء أبداً لأنى لا أشعرُ بأنى مُجتمعُ الشَّمل بهذا (الآن) ! ولا أرانى شَعَرت بهذا قطُّ فى طول الحياة !

ما اطَّلعتُ على ساعةٍ من ساع الزمن إلاَّ رأيتُنى مشغولاً عنها بالانحدار إلى التى تَليها . ولا صِرتُ إلى يوم من الأيام إلاَّ أحسستُ أن همِّى إلى ما وراءه . ولا أفضَيتُ إلى سَنَة من السِّنينَ إلاَّ كان بالى إلى ما بعدَها وشُغلى كان به . فأنا من يوم طالعتُ هذه الدُّنيا لا أجدنى إلاَّ على سَفَر دائم لا لُبثةَ فيه ولا هَوَادة ، ولا مُناخَ لراحةٍ ولا لزاد . سَيرٌ فى النهار مُغِذّ ، وسُرى فى الليل حَثِيث !

اللهم إنى لأبتغِى القَرارَ فى هذه الدنيا ولو ساعةً واحدةً أستريح فيها الى نفسى وأشعرُ بالسكون معها والاطمئنان !

اللهم إنى لأَبغى أن أجدَنى فى مِساحةٍ من الزَّمن ، ولو ضاق ما بين حدَّيها ، فأستشعر السكون ، وأُفرِّق بين ما كان و بين ما يكون . وأستطيع فى كل أثناء هذا الزمان ، أن أعرف : فيمَ أنا الآن !

ولكن كيفَ لى بهذا ومن ورائى ذلك السَّائق الخفِىُّ المَرير[1] ، ما يَلوح لى مَجثَمَ[2] إلاَّ بَعثنى منه ، ولا يَتَراءى لى مَثوًى إلاّ أزعجنى بسوطه عنه . فأنا بين يديهِ دائمُ الجرىِ لا أحطُّ رَحْلاً من سِفار ، ولا أطمئنّ على طول المَدَى إلى قَرار

---

* هذه الكلمة من مذكرات الكاتب الذى أثبتها فى سنة ١٩٢٣

(١) المرير : الهوى الشديد (٢) مجثم الطائر : مبركه

وإنى لأَرى أنى أنا الذى يَمرُّ بالأيّام وليست الأيامُ هى التى تَمرّ بى ، وأننى أنا الذى يَطوِى السنينَ وليست السنونَ هى التى تَطوينى . وإنى لأجد أن شأنى مع الزمن كشأن المسافر فى القِطار ، يخيَّل إليه أنه ثابتٌ فى موضعه وأن ما يجوز به من الأعلام والشُّخوص إنما هو الذى يَجرى على خلاف . وعلى هذا لو أُذِن لى فى الوقوف ولو لحظة واحدةً لاستشعَرتُ القَرار فى الدنيا وأَحسستُ هذا الذى يدعونه (الآن) ! . ولكنى برغمى السائرُ المغِذُّ لا يُنيخُ راحِلةً ولا يحُطّ رَحلاً ، فإذا لم أَنعَم بالاطمئنان إلى الزمان فلا مَلامَة على الزمان !

تُرى ما حاجتى ، أو ما حاجةُ هذا السائق الخفىّ الذى لا يَنى عن دفعى دائماً إلى الأمام — تُرى ما حاجَتُه إلى أن أحسُوَ العمرَ حسوا ، فما كنتُ فى ساعة من الدَّهر إلاّ استَشرَفتُ لما بَعدها . ولا طَلَع علىَّ يومٌ من أيام العمر إلاّ تشوّفتُ إلى غَده . ولا دخَلَت علىَّ سَنةٌ إلاّ تَعجَّلتُ السنةَ التى من وَرائها ، حتى لو تهيأ لى أن تُجمع أيّامُ عمرى فى سجلّ واحد ، لأسرعتُ إلى تقليب صَفَحاته حتى آتى من فورى على آخرها ، وفى آخرها لو علمتُ آخرُ العهد بالحياة !

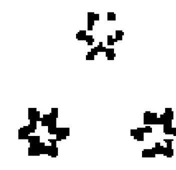
تُرى ما خَيرى أو ما خَيرُ هـذا السائق المَرير فى ألاَّ يَدَعنى أطمئنّ فى هذه الدنيا لشىء ، أو أستريح فيها إلى حال . وما إن اشتقتُ إلى شىء فطالعَتنى منه البِداية ، إلاَّ شَغَلنى عنها الاستشرافُ إلى النِّهاية . وما إن هَفَت نفسى إلى أمر فهَممتُ بالإصابة من بواكيره ، إلاَّ صَرَفنى عنها التشوُّق إلى غاياته ومآخيره . وما حَصَل فى يدى شىءٌ مما تقدَّمتْ به المُنَى ، وجَدّ فى طلبه المسعَى ، إلاَّ أسرَع إلى نفسى الزُّهدفيه ، والتَّطاوُل بالمُنى إلى سواه ! فأنا من الدنيا ومن ساعاتها كالكُرَة بين مَهَرة اللُّعَباء ، تَظَلّ تتقاذفُها الأيدى ولا تَستقِرّ فى مَوضعٍ أبدا !

تُرى ما حاجتى إلى تَعجُّل الساعات فى الأيام ، و إلى تعجل الأيام فى السنين ؟ وتُرى أية غاية أُريد أن أبلغها بهذا السفَر السريع ؟

تالله إنى لفى حاجةٍ إلى من يَهدينى إلى ما أبغى بهذا وما أُريد !

أ ترانى أطلُب طَىَّ الحياة وأنا كسائر الناس حقٌّ حَريصٍ على هــذه الحياة ؟ والله إن « هذا محالٌ فى القياس بديع »(١)

إذن فما هذه الشهوةُ المُلحَّةُ إلى فَنَاء الأَيام ، وهــذه الشَّهوةُ المُاحَّةُ إلى بَقاء الأيام ؟



و بعد ، فما أرانى فى هذه الحياة غيرَ قصَّة خَياليَّة أنا مُمثِّلُها ، وأنا فى الوقت نفسِه شاهِدُها ، فما إن جدَّ لى منها مَنظَرٌ إلاَّ تاقت نفسى لما بَعدَه ، ولا حلَّ منها فَصلٌ إلاَّ تعجَّلتُ غايتَه والتحوُّل إلى ما وراءه !

وكذلك أفتأُ أطلب النهايةَ حثيثاً حتى تُختَم (الرّواية) . ولن تُختَم إلاَّ بتلك المأْساة التى تنتهى بها جميعُ أقاصيص الحياة . غير « أن الرّوايةَ لم تَتِمَّ فُصُولاً » !(٢)

---

(١) هذا عجز بيت لمحمود الوراق الشاعر المتصوف . وصدره : « تعصى الاله وأنت تظهر حبه » (٢) هذا عجز بيت لأحمد شوقى بك

الشباب المولّى !

هذه هى المرةُ الثانيةُ التى يَهتِف فيها (فلان) بسنّى ، ويَزعم أننى أتشرّف الآنَ على الخَمسين ، إذا لم أكُن قد جُزتُها بقليل ! وتُرَى ما خَيرُه فى أن يُباديَنى بهذا ويُؤكّده ويُلحّ فيه . وأنا أنفيه جاهداً فلا يُصدّق ، وأردُّه عنه فلا يرتدّ ، وأزجرُه فلا يَزدجِر ! وتالله ما أراه يَطلُب بهذا إلاّ غيظى وإحناقى بإظهارى وإظهار الناس على أننى قد عَلَت بى السنّ ، وأننى أنشأتُ أُمعِن فى الشيخوخة المضنية للأجسام ، والداعية للأسقام ، والمهرولة بالأحياء إلى الموت الزُّؤام !

اللهم إنه لَسمِجٌ به أن يَطلب لى هذا ويَتمنّاه على الله ، ثم لا يَستحى أن يُصارحنى بهذه المُنيَة ويُصارح بها النّاس ، على حين أننى شَهِد اللهُ ، ما أسلفتُ إليه إساءةً ، ولا تناولتُه قط بمكروه !

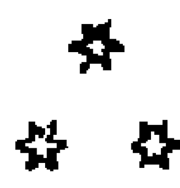
سبحانَ الله ! ما أعظمَ كدرَ النفوس ، وأشدَّ اضطِغانَ القلوب ، حتى على من هو غيرُ حقِيق منها إلاّ بالعَطف والإيثار !

وبعد ، أفأرانى حقّاً قد بلغتُ الخَمسين ؟ هذه الخَمسون التى لا يَبلُغها المرء إلاّ إذا جاز مستمهلاً بأيّام الشباب ، حتى تَطويه السِّنونَ عنه طَىَّ السِّجلِّ للكتاب . وهَيهاتَ للمرء أن يَأسَى عليه بعد أن نَهِل من مَعين اللذّات وكَرَع ، ومَرِع فى طيّبات العيش ورَتَع ، ووافَى النفسَ بكلّ مناها ، وأبلغ مطالبَ الصَّبوةِ غاية مَدَاها ، ويا طالما طاب مِراحه وأُنسُه ، وسَطَعت فى أُفق السَّعادة شمسُه ، ويا طالما اشتدّ لهوُه وقَصفُه[1] ، وتَقلّب فى ألوان المتَاع عِطفُه . لا تَكدّرُ الهمومُ من صَفوه ،

(١) القصف : الإقامة فى الأكل والشرب واللهو

ولا تشغَله متاعبُ الحياة عن متاعهِ ولهوه . مُخلَصةً لداعياتِ الصِّبا نفسُه ، لايُعنّيه يومُه ولا يَعنِيه غدُه ولا أمسُه . حتى إذا استوفى حظَّه من مُتَعِ الشباب ، وشبِع منها، وبَشِم بها ؛ انصرَف عنها زاهداً فيها ، كارهاً لها . وأقبل على ما هو الأَخلَقُ بالحكمة ، والأَشْبَهُ بكمال الرّجال . وأصبح يَتمثّل بقول الشاعر :

وبَلَغتُ ما بَلغَ امرؤٌ بشبابهِ فإذا عُصَارَةُ كلّ ذاكَ أثامُ



وكيف أكون قد بلغتُ الخمسينَ ولمّا أبلغْ من آثار هذا الشَّباب شيئًا ؟ ولم أُصِبْ بعدُ من مُتَعِه كثيراً ولا قليلاً ؟

اللهم إننى ما برِحت أَستشرف لهذه الأيام التى طالما تمثّلت لأَحْلام الفتُوّة جميلةً جمالَ صفحة البدْر ، ناضرةً نَضرةَ الوَرد قد طلَّه القطْر . هذه الأيام الحُلوة اللذيذة التى طالما تراءى لى بها المستقبَل، فأتعزَّى بقرب لقائها عما أجد فى حاضرى من همٍّ وأسًى ، ومن وَجد وشَجَى

اللهم إننى ما زلتُ فى انتظار أيام الشَّباب التى لا يفتأ يُوسوِس فى صدرى بها الأمل ، فأشعُر لها بشَوق لا يَعدِله شوق ، وأجد فى قلبى حنيناً إليها لا يُشبهه حَنين . وهل تكون هذه الأيامُ كلها بين أيام العمر إلاَّ رَوضةً قد يَنَعت أثمارُها ، وضحِكت أزهارُها ، وأشرقت أنوارُها [1] ، وتعطَّفت فى أرضها الجداول ، وسجَعت على أيكها البلابل ، ومشَى فى خلالها النسيم ، يحمِل من الورد عاطر التحية وأزكى التسليم . فتنحنى الغُصون إجلالاً لوُفودِه ، وإكراماً لوُرُودِه !

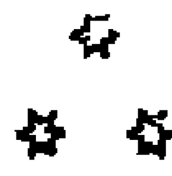
هكذا الشبابُ المنتظَر ، مراحٌ لا يَلحَقه ضَجَر ، وصفوٌ لا يَشوبه كَدَر ،

(١) النور بفتح النون وسكون الواو : الزهر أو الأبيض منه

ودَعَةٌ لا تُروِّعها الغِيَر ، ونَفسٌ قد وُضعتْ عنها الأعباء والآصار(١) ، فتكاد من الخِفَّة تَطير في اقتناص المُنَى كلَّ مَطَار !

لقد طال بي انتظارُكِ يا هـذه الأيام ، فليتَ شعرى متى تَحقّقُ الآمال وتَصدُق الأحلام ؟

أنت آتيةٌ أيامَ الشباب لا رَيب فيكِ ، و إنني ما زِلت في الانتظار ! . . .



مالى أجد غمزاً على كَبِدِى ، وأكاد أُحِسُّ بأن شُعبةً قد انخلَعتْ من قلبي ، وأن ذِهْني تَطايرَ عنى كلما لاح شَبَحُ الخمسين . فلقد بلغتُ الخمسين ، وارحمتاه ، حقًّا ! . . .

لا تأسىْ يا نفسُ ولا يَتعاظمنّك الأمر . فإنني إن كنتُ قد بلغتُ الخمسين عدَداً ، فإنني لم أعلُ بها قطُّ سنًّا . وكيف تَعلو بى السنُّ وأنا لمَّا أزَل في انتظار الشباب الذى لم أخُضْه بعدُ ولم ألهُ به لهوَ من يَخوض الشّباب ؟

لا ! لا ! ليست المسألةُ مسألة عَدَد في السِّنين ، وليست الحياةُ مِساحةً تُقاسُ بدَورة الفَلَك . فلتَعُدَّ علىَّ السِّنُون ما شاءت أن تَعُدّ ، ما دمتُ ، في الواقع ، لم أزَلْ فَتِىَّ الرُّوح مُستشرِفاً لعهد الشباب ! وليس من سُنَن الطبيعة أن يَسبِق الجِدَّةَ القِدَم ، ويَتقدَّم على الشباب الهَرَم !

إذن فأنا لمَّا أزَلْ على شرَف الشَّبـاب الغَضّ ، وأنفُ هـذه الخمسين العَدَدِية راغم !

لقد بلغتُ الخمسين حقًّا ، ولـكنها ليست تلك الخمسين التى كان يَتمثَّل لنا الناسُ فيها شيوخاً قد شاب قَذَالُهم ، وابيَضَّت لِحَاهُم ، وتَـكَرَّشَت وجوهُهم ،

---

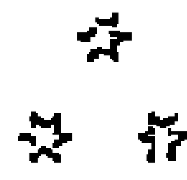
(١) الآصار جمع إصر بتثليث الهمزة : الثقل

وترهّلت لحومُهم ، وتجلجَتْ أسنانُهم ، وفترَتْ حِدّةُ عيونِهم ، وضعُفت قوةُ مُتونِهم ، وثقُلت آذانُهم ، وكلّت أذهانُهم . فإذا تحدّث أحدُهم جعلَ يَعصِر ذاكرته عَصراً ، وإذا مَشَى فكأنما يحمِل على ظَهره وَقْراً[1]

لقد بلغتُ الخمسين عَدَداً ، ولكنَّنى لم أتقدّم بها فى السّن كما يتقدّم سائرُ الناس. وكيف تُعلى سنّى حتى تُدخلَنى فى الشيخوخة على حين أنى لو قد استعرضتُها وفرَرْت عنها[2] من يوم تفطّنتُ إلى الحياة ما زادت فى الواقع على عشر ، وهذا على أسخى تقدير . فأين يا ترى سائرُ هذه السِّنين ؟ اللهم إنى لأبحث عنها وأُجهِد ذاكرتى فى طلبها سويّةً فلا أجدها . فليس من العَدل أن تسقط من مُدّة العمر هذه السنون ! و إن ظُلماً دونَه كلّ ظُلم أن نُجرى حسابَ الأعمار فى هذه الدنيا على دَورة الأيام !

وليت شعرى ما الدليل على أنى قد بلغتُ هذه الخمسين لو أننى عِشت فى بَداوة لا تُتعقَّب فيها السِّنون ؟

إذن لم أُصبح بعدُ شيخاً ، ولتعُدّ علىّ الأيامُ ما تشاء !



ولكنّنى مع هذا أرى الشّيبَ يَصيح فى رَأسى ، فكيف لعمرى لحِقنى قَبل الشّباب المَشيب ؟ !

لا تأسَىْ يانفس ولا تُشفقِى من بياض الشعر ، فلكم رأيتُ فتياناً باكرَ رءوسَهم هذا النّصولُ وعجل إليها . فما كان بياضُ الشّعر يانفسُ دليلا على المَشيب !

(١) الوقر بفتح الواو وسكون القاف : الحمل الثقيل

(٢) فر عن الشيء : بحث عنه

ومع هذا ففى الصّبغ إصلاحٌ لخطأ الطبيعة ، وتصحيحٌ لما يَدّعى علىّ بعض النّاس من كذب وزُور !

هذا كلامٌ صحيح . ولكن مالى أُحسّ فى عَينىّ فُتوراً ، وأجد فى نَظَرى قُصوراً ، حتى أصبحتُ لا أَتبيّن الشُّخوصَ إلاّ بمقدار ، ولا أستطيع القراءةَ إلا بمعونة المِنظار ؟

لا شكّ أن هذا من مَرَض طارئ ، أو من عَرَض مُفاجئ . وما كان جَهدُ العيون وتقاصُر الأنظار ، دليلاً على انطواء الشباب والطّعن فى الأعمار !

وهذا أيضاً كلامٌ صحيح . ولكن ما بالى أرى ثِقَلاً فى سمعى لقد يُفوّت علىّ فى المجلس بعضَ الحديث . ولقد تُرعَشُ يدى فى بعض الحين فما تكاد تسطيع ضبطَ اليراع !

وهذا كذلك ليس أمارةً على فَوت الشّباب ، إن هو ، كما قال الطبيب ، إلا من تَعب الأَعصاب !

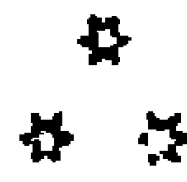
فما بالى أجد أسنانى قد شاعت فى أصولها الآلام ، وتجلجلت كلُّها فما تَثبُت واحدةٌ منها إلاّ لهشّ الطعام ؟

لقد حدثنى الطبيب أن هذا إنما اعترانى من أثر (السكّر) الذى كشف عنه (التحليل) ، وهذا (السكر) ، والحمد لله ، ليس صادراً عن عِلة لازبة[1] ؛ ولكنه عارض لا يَلبَث أن يزول بأرفَق العِلاج ؛ على أنه كاشفنى بأن الخيرَ كلّ الخير فى خَلعِها جميعِها والتعويض عنها بأسنان مصنوعة لا تحقِن فى اللّثة أذًى ولا تَبعثُ ألمــاً ؛ فوق أنه يَسهُل تخليلها وغَسلها ، ويَسلَس جَلوُها وصقلُها ، وإن شئتُ كسوتُها بالعَسجد ، وإن شئتُ تركتُها كالدُّرّ النضَّد . وماذا علىّ فى هذا

(١) لازبة : ثابتة غير مفارقة

والكَواعبُ الحِسانُ فى الغرب يُبادرنَ إلى خَلع أسنانهنّ فى غير شَكاة[1] بل لمحض التبهُّج بالأسنان المصنوعة ، فلنُعجِّل بخلعها قبل أن نقرَع سِنّ النّدَم ، إذا ألحّت العلةُ وأعضَل السّقَم !

إذن فإننى ما زلتُ فى انتظار الشباب ، ولا يجوز أن نُلقِى لهذه الأعراض بالاً أو نُدْخلها فى الحساب !



ولكن ما بالى أصبحتُ لا أشتهى الطعام ، ولا أكاد أقوَى على هَضم خفيفه فضلاً عن غليظه إلاّ إذا استعنتُ على ذلك بألوان العقاقير : هذا فى أثناء الطعام ، وهذا عند المنام ، وهذه الحبّة ، يجب أن تُبلع بعد الوَجْبة . وهذا الذّرور مما يُسهِّل الصفراء ، ويُرفِّه عن الكبد ويُنظِّف الأمْعاء . وهذا لكَيْت وكَيْت ، وهذا لذَيْت وذَيت !

سبحان الله ! وماذا يَضيرك ذلك ما دام يُعينك على شأنك ، ويَصرف عنك الأذَى ، ويُقيمك فى العافية . والعقاقيرُ ميسورةٌ فى كل مكان ، ولا يَستهلِك تناوُلها وقتاً ، ولا يَقتضيك مَشَقّة ولا جُهداً ! . والدواء مما لا يَستغنِى عنه كبيرٌ ولا صغير ، ولا قوىٌّ ولا ضعيف !

ثم مالى إذا مَشَيت أحسَسْت فى جسمى تَزَايلا ، وفى ساقىَّ تخاذُلا ، وكأننى أحمِل رجلى وليست هى التى تحملنى ، وسَرعان ما يُجهَد بى وما مَشَيتُ طويلاً ، ولا حملتُ عِبئاً ثقيلاً !

ثم إننى بتُّ لا أقوَى على رُطُوبة الليل فى العَراء ، وما إن تبدّيتُ لها ساعةً حتى أصبح فى أسوإ حال ، ويعترينى من الأوْصاب ألوانٌ وأشكال !

---

(١) الشكاة بفتح الشين : العلة

وهذا وذلك لا بأس عليك منهما إذا أخذتَ نفسَك بشيء من رياضة البدَن، واستنشاق الهواء النقيِّ فى الشَّمس السَّاطعة، فإذا كان الليلُ أثقلتَ الدِّثار، واعتكفتَ فى الدَّار. فلا ينالُك سَقَم، ولا يعتريك ألَمَ!

فمالى أمسَيتُ لا أنام إلاَّ غِراراً[١]، وأرانى أهُبُّ على أخفّ طَرقَه، وأخْفَت خَفقَه؟

وما خَيْرك فى أن يَثقُل نَومُك، ويُستهلَك فى الغَفلة عن الدنيا يَومُك؟ والنَّوم، كما علِمتَ، حاجةٌ يَضطرّ إليها تَعَب الأجسام. فمن العَبَث أن نتفقّد الحاجةَ إذا لم نجدها ولم تلجئنا إليها الضَّرورات! ورَحِم اللهُ الشاعرَ الذى يقول: «إنَّ تحتَ الترابِ نوماً طَويلاً».

*
* *

وهكذا ما شكوتُ عِلّةً إلا أصاب الأملُ لها تعليلاً، وهوّن علىَّ خَطبها وإن كان الخطبُ فيها جليلاً! وأنا أُصدِّقه وأُطاوعه، وأدفَعه ولا أُدافِعه. ومالى لا أفعل وهو لا يُمنِّينى بحُلم من الأحلام، وإنما يَتراءى لى بحقّ على الأيام. والحقُّ لابدَّ واصلٌ وإن طال بُطوْءه، والدَّهر لا مَحالة إلى الحق عادلٌ وإن كثُر خِطوْءه[٢]

إذن فَلننْتظِر، ومن صَبَر فقد ظَفِر!

*
* *

ثم إنى لأقومُ إلى المِرآة فأُحقِّق النَّظر، فلا يَروعنى إلاَّ أن أرى وجهى قد تغضَّن، وجبينى قد تَكرَّش، وأجد فى شفتَى تَهدُّلا، وفى عُنقى ترَهُّلا. أما عيناىَ فقد بدَتا لى كعَينىْ دُمْيَة قد نَصلَتا فلا أثر فيهما يُشبه بَريقَ الحياة!

---

(١) النوم الغرار بكسر الغين: القليل (٢) الخطء بكسر الخاء: الإثم والخطأ

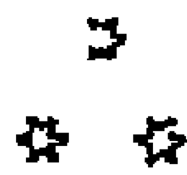
وإنى فى هذه اللحظة لأستنجد ذلك الذى طالما وَاسانى وهوّن علىّ ما أجد[١]، فإذا هو يَتثاقَل عنى ، وإذا أوصابى وعِلَلى تَتَداعَى وتَتجمّع لذِهنى رويداً رويداً حتى تَستَوى كلها فى خَلق واحد

رباه ! ما هذا كله ؟ أليس هذا كلّ ما كنّا نتمثّله فى الشّيخ إذا ضَرَبته الخمسون ؟

وما إن كاد يستوى لى هذا الخاطرُ المشئومُ حتى أحسستُ أن نَفْسى تَطير شَعاعاً[٢] ، وأن قلبى يَتمشَّى فى صدرى ، وأن كَبِدى تسيل مَسَالا ، وأن ذِهنى قد تَفرّق عنى فما أستطيع له جَمعاً ! . . . وإنى لأَستلقِى على فِراشى وأتحامل لأَجمَع بَعضى على بعضى ، وأصطاد ما نَدّ عنّى من فِكرى . فما خَرج لى من كل ما جَمعتُ إلاّ أننى الشيخُ صاحبُ الخمسين حقًّا ، وأنها قد صنَعت بى كلّ ما تصنَع بسائر الناس !

إذَن فقد ولّى الشباب ، فما له من رَجعةٍ ولا له من مَآب !

أرأيتَ إلى التاجر يُقدّر مُوَاتاةَ السوق ويُطاول الأيام فى انتظار الغِنى وإقبال الدنيا . وبَيناً هو فى هذا حقّ سعيدٍ بالثقة به والاطمئنان إليه ، وإذا السُّوق تَرجُف رَجفَتَها ، وإذا نظرةٌ واحدةٌ فى دَفتَره تُؤْذِنُه بأن قد أفلَس ؛ فقد ضاع السَّبَد واللَّبَد[٣] ، وإنه لن يَشقَى فى الحياة شَقاءه أحد !



ياويلتاه ! أكذلك يَذهب الشبابُ قَبلَ أن يجىء ، ويُدبر قَبل أن يُقبل ، ويُودّع قَبل أن يُسلِّم ؟

---

(١) يريد الأمل
(٢) يقال : طارت نفسه شعاعا بفتح الشين ، أى تبددت من الخوف ونحوه
(٣) يقال : أضاع فلان السبد واللبد بفتح الباء فيهما : لم يعد له شىء

يا عَجَبا للهلال يَغشاه المِحاق ولما يبلغ التمام ، وللورد يلحقه الذبول ولما تتفتّح عنه الأكمام !

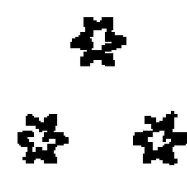
يا عجبا للشمس تشمّر للغروب والرجوع ، ساعة يُؤذّن مَشرِقُها بالبُزوغ والطلوع !

ويارَحمتاه للرّوض إذا ذَبُلت فى مَطلع الرّبيع أزهارُه ، وجَفّت قبل النضج ثِمارُه ، وسكن منَ الشّجَر اصطفافُه ، وتساقطت أوراقُه ، وسكنَ النسيم ، وكان العهدُ به أن يَتنسّم ، وسكت العندَليبُ ، وكان الظنُّ به أن يَشدُو ويَتنغّم !

أهكذا يكون نَقضُ العهود ، وخُلفُ الوعود ، أهكذا تَشُحُّ السماء بعد طول ما مَنّت بالبُروق والرُّعود ؟ !

فأين هذا الشبابُ وهو حقٌّ لا حُلمٌ من الأَحلام ، ولا وهمٌ من الأوهام ؟ وليت شعرى كيف ذَوَى ، ومتى انطوَى ، وما زِلتُ فى انتظار وفودِه ، وترقب وروده ، طَوعاً لمطّرِد وُعودِه ؟

نترقّب شباباً فإذا هو هَرَم ، وجِدّةً فإذا هى قِدَم ، وصِحّةً فإذا هى سَقَم ، ووجوداً فإذا هو عَدَم ! تالله إن علمتُ قطُّ أن التِّبرَ يَحُور تراباً ، وأن الماء يَستحيل سَرابا !



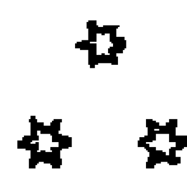
هذا الدهرُ ما زال يَعدنا ويُمَنّينا الأمانىّ ، وكلما تنجّزنا فى السعادة وعداً أنظَرَنا إلى غد ، فإذا صِرنا إلى هذا الغد قال : أليس موعدكم الغَد ؟ . ونحن نتابعه كمن يتابع ظِلَّه ؛ فلا هو بلاحقه ولا هو عن لحَاقه ببعيد . وكذلك تنقضى الأيامُ بعد الأيام ، وتنطوِى الأعوامُ بعدَ الأَعوام ، ثم لا يَروعُنا إلا أن نتفقّد هذا (الغَد) الذى طالما انتظرناه ، فإذا هو قد مَضَى فى (الأمس) الذى استَدبرناه !

فهذا الشبابُ الذى يَتحدّثون عنه لا قِيام له إلا فى التصوُّر والتّخييل ، لأنه إما

شيء تجيء به الأيام ، أو شيء قد خلَتْ به الأيّام . أمّا أنّ له سَرحةً يَتفيّأ الإنسانُ في ظِلالها ، وفسْحَة يطمئن بينَ غُداها وآصالها(١) ، بحيث يَستشعِر الثَّباتَ والاستِقرار ، فذلك ما لا يكون في مَنهَج الأعمار !

نعم ، لقد يُصيب الإنسان كثيراً أو قليلاً مما يُدعَى بسعادات الحياة . ولكن هَيهاتَ أن يَصفُو له شيء منها إلاّ كَدِرا . فإن الزمانَ أحرصُ من أن يُصْفِيَ العَيشَ لإنسان ، وإنه في هذه السبيل ليُسلِّط عليه ، ولو من وَساوِس نفسه ، ما يَصرِفه عن متاَع الحياة وهو في متناول يده ، ورَهنُ مُراده . فإذا أعوَزه هذا وَسوَس له بالتأميل فيما هو أجلُّ مما تيسّر له من النعيم وأعظم ، فَشغَله عن حاضره بقابله ، وصَرَفه عن عاجله بآجله . وهكذا تتصرّم الأعمار ، في الارتقاب والانتِظار ! . . . .

آمنت يا دنيا أنك سارقةٌ ماكرةٌ فاجرة ، تَمكُرين بالناس وتَخدَعينهم على أعمارهم حتى تَنشُليها منهم نَشْلاً . ولا والله ما يُعينك على فجورك هذا إلاّ غفْـلةُ الناس ! ! ! . .



وبعد ، فلعلّك عرَفتَ لماذا يُخادِع المرء الناسَ على سِنّه ، بل إنه لَيُخادِع عليها نفَسه . ولعله في هذا حَقٌّ معذور . فلقد طالما وَصَل المستقبَل بسَعادات وارتَبَطه بها ، حتى ما يَستطيع تصوُّرَه بغيرها ، ولا تَمثُّله متجرِّداً منها ، فكلّما مرّ عليه يومٌ لا تُواتيه تلك السعاداتُ لا يراه مما يَنبغي أن يُحسب في مُدَّة العمر ، ولا مما يجوز أن يُعَدَّ عليه فيه ! فهذه عِلّة تَعاظُمِه لدخوله في السِّن واستثقاله لتذكيره إيّاه

(١) الغدى جمع غدوه بضم الغين : أول النهار . والآصال جمع أصيل . آخر النهار

اللهم إننا لَنتهاوَن شأنَ الذُّبابة ، و نَستحقِر هذه الحياةَ التى نَحياها . ولو قد تَفطنَّا إلى الحقّ الواقع لعرَفنا أنها أسعدُ منَّا عَيشاً وأنعمُ حالاً ، لأنها لا تَشتغِل إلاّ بالحاضر، وهو الحقُّ المُحَسُّ الذى يُذاق و يُستشعَر حقًّا ، فلا يتفرّق حِسُّها بين الأسَى على ما فات فى سالف الأيام ، و بين التعلُّق فى المستقبَل بكَواذب المُنَى فى كَواذب الأحلام !

فيا لله ما أخَسَّ حياةً تَنتهى بالإنسان إلى التُّراب ، وهو لا يَتذَوّق منها بعضَ ما ينال هذا لذُّباب !

و إذا كان لنا معشَرَ الناس أن نَأْسَى على شىء فى هذه الحياة الدنيا ، فلْيكنْ أسانا على أننا نُنفقها فى الأَسَى على ما قد فات ، وطول التأميل فيما هو آت . وهكذا نجوز بالدنيا فلا نَستشعِر منها إلا آلاماً ، ولا نذُوق إلا مُنًى وأوهاماً ، وصَنَع الله لهذا الشاعر فى كَذِبه على كذب الآمال :

مُنًى إن تكُنْ حقًّا تكُنْ أعذبَ المُنى　　و إلا فقــد عِشْنا بها زمناً رَغَـدا

لا صحة إلا فى المرض* ! . . .

لستُ أدرى لماذا لا نتذوّق صحةَ الأبدان ولا نستشعرها ما دُمنا فيها ؟ أتُرى لأنها شيءٌ سَلبيٌّ لا يُذاق ولا يُحَسّ ؟ أم لأنها كسائر نِعَم الحياة قلّ أن يَقدِر المتقلّبُ فيها قدرَها ، أو يُعظِم المتمكنُ منها خطرَها ؟ أم أنّ ما تُجِدُّ الأيامُ من أشغال الدنيا وهمومها ومطالبها مما يَحُول بين المرء و بين تذوّق الصحّة والالتذاذ بالعافية ؟

اللهم إننى لا أَقطَع فى هذا بشىء من وُجوهِ التّعليل ألبتّة . ولـكن الذى أَقطع به ولا أرانى أتحوّل عنه أن الإنسان لا يَرَى أن هناك نعمةً أَجلّ وأعظم من نعمة العافية يوم يَضربُه المرض و يَسلبُه السَّقامُ هذه العافية . بل إن بحَسْبِه أن يَرَى امرءًا مُعافًى فى بدنه ليُقَدّرَ له من الشعور بالسّعادة والإحساس باللّذة ما لا يَتعلّق به وصفُ واصف ، ولا يَتصوّر مَبلغَه إلّا هؤلاء الأَصحّاء !

لقد كنتُ فى العافية فما قَدرتُ لها قطُّ قَدراً إلّا إذا ذكرتُ المرضَ وأَوزارَه . و إنى لأكره بالطبع أن يتداخلنى السّقم ، و ينتابنى الوجع والأَلم ؛ وأن يَكُفَّنى هذا عن وِلاية عملى ، و يُثقِل(١) بشأنى أَهلى وولدى ، و يَحُول بينى و بين الإصابة من متاع الدنيا إذا كان فى الدنيا متاع !

ومهما يكن من شىء فإننى ما رجوتُ العافيةَ لذاتها . وكيف لى برجاء ما لا أُحِسّ ولا أشعر ؟ و إنما أرجو ألّا أُبتلَى بالأَسقام والعلل ، فإذا لم أذكر المرض فهيهاتَ أن يَجرى ذكرُ الصحّة لى على بال !

---

* نشرت فى مجلة « المصور » فى ابريل سنة ١٩٣٥

(١) أثقله : حمله حملا ثقيلا

ثم إني ذاتَ صباح لأحسّ وجعاً فى بطنى ، فلا أُوجِّه الأمرَ باديءَ بدء إلاَّ على أن أحشائى مَغِصَة من أثَر بَرد أو من فَعلة طعام تجهّمت له الامعاء ، فلم يجد له من خلالها لطف مَسَاغ . فاحتَميتُ على عادتى وتحرّمتُ الطّعام ، أرجو أن يزول عنى مغصى إذا انقضى النهار

ويذهب النهارُ ويُقبل الليل ، فإذا المَغصُ مقيمٌ على غمزه ما يَبرَح ولا يَرِيم . ثم يكون الغدُ فإذا هذا الغمزُ فى الحَشاَ يَستَحيل وَخزاً ، فأطَلّ على تحرُّمى واحتمائى ، وجعلت أختلف على ألوان الوَصْفات تُبتَغَى لمثل ما أنا فيه . ولكنّ الألم يزيد على هذا ولا يَنقُص ، ويَنبَسِط فى بطنى ولا يَنقبِض !

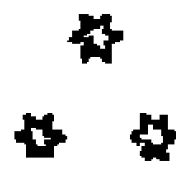
وتجوز بى على ذلك بضعةُ أيام لا يَكرُثنى الأمرُ ولا أراه حقيقاً بالاعتداد به والاحتفال له . حتى إذا رأيتُ أن الألم قد طالت مدّتُه ، واشتدّت وَقدتُه ، لم أرَ بدًّا من العياذ بالطبّ بعد أن أعْيا علىّ ما تعوّدت الاستراحةَ به من ألوان العلاج

ولكن لقد أخطأ الطبيبَ شَخصُ الداء ، فَسَرعان ما استفحلت العِلةُ وتمرّدت المِعَى على الدواء . فما أولاها على التمرّد إلاّ عقابا ، ولا أصلاها على الإباء إلاّ تألماً وعذابا !

وبعد أسابيع عِراض نُهُرُها ، طوال لياليها ، يَنحسر الشكّ عن داء عُقام ، وعلّة لا يرتقى إلى خَطَرها كثيرٌ من الأسقام

وهنا أرجو أن يُصدِّقنى القارئ إذا زعمتُ أن الوقوع على حقيقة المرض ومَبلغ خطره لم يَتَعاظَمنى ولم يُدخل على نفسى الذُّعر بقَدر ما يَتَصوّر . فإن كان قد مَسنى شيءٌ من هذا فلعله قد ذهب به أو خفّف من وقعه استراحتى إلى حقيقة شأنى بعدَ تلك الحيرة الطويلة المملّة العنيفة ، وإذا عُرف الداء ، سُهل كما قالوا الدواء . وإذا وقع فى التقدير أن علّتى مما لا يُرجَى منه الشفاء . إذن فقد بَلغتُ حدَّ اليأسُ ، واليأسُ كما قالوا إحدَى الراحَتَين !

إذن لم يكن كلّ همّي إلى علّتي ، فلقد استهلكه دونها همّي بما يُمنّيني من الأوجاع والآلام ، وإن قُصارَى جُهد المرض أن يُرديني ، وأهوِن بها من غاية ، فلكم والله ابتغيتُ هذا الرّدَى فلم يُسعدني به المِقدار !



إذا كان الصباحُ الباكرُ كنتُ كما يكون الناس ، فإذا ارتفعت الشمسُ قليلاً عن الأفق شعَرتُ بغمزَات لِطاف على جَنبي الأيمن، ثم أراها تَنقُل رويداً رويداً وهذا أذانُ النفير العامّ ، يدعو إلى احشائى جَمْهَرة الأوجاع والبُرَح والآلام . فما هى إلا دقائقُ معدودةٌ حتى أُحسّ أن كل ما فى الأرض من مُدًى مسنونة قد اجتمعت علىّ تُقطِّع أحشائى ، وأن كل ما فى الدنيا من رماح ومزاريق قد تظاهرت على الطّعن الدّراك فى أمعائى ما يُفَلّ لها حدّ ، ولا يَكِلّ للطاعنين من دونها زَند. وأن نيرانَ جَهنّم كلّها قد كُوّرت وضُغِطت بقُدرة القادر وقُذِفت فى بَطنى قَذفاً حتى أكاد من وَقدة الآلام أسمع لها حَسيساً ! وكلّما ارتقبتُ الفرَج بتقطع الأمعاء وتفرقها ، وتمزُّعها وتحرقها ، وأن الموت لا محالة آت ، فذلك مما لا قيام للحياة معه ولا ثبات . فإذا آلامى جديدةٌ لا تَبلَى على كلّ أولئك الأحداث ، كأن يد القُدْرة تُسرع إلى جمع ما يتفرّق ، ووصل ما يَتمزّق ، حتى لا ينتهى لى عذاب ، ولا ينقضى ما أُعانى من الحُرَق والأوصاب . ونعوذ بالله من عذاب أهل جَهنّم الذين قال الله تعالى فيهم : « كلّما نَضِجَتْ جُلودُهُمْ بَدّلْنَاهُمْ جُلوداً غَيرَها لِيَذُوقوا العَذَاب» ! اللهم لقد ذقتُ هذا العذابَ فى هذه الدار ، فأَقِلْنى فى الآخرة بفضلك من عذاب النار !

ولا تزال البُرَح والآلامُ تَفرى الفَرِىّ فى أحشائى بلا هَوادة ولا فترة ولا سكنة أبدا . وليتَ شِعرى كيف لا يُدْركها التعبُ والإعياء ، على طول ما تُبلِى فىّ هذا البلاء؟!

وإني لاأزال كذلك تختطفنى الغفوةُ فأَغفُو دقائق ، ثم تتخاذل عنى فتلقينى ثانيةً لما كنتُ فيه من العذاب الشديد . وهكذا كان دأْبى عامّةَ الليل وعامّة النهار !

*
* *

ثم إنى لأتجلَّد للأَلم وأتصبَّر ، فلا آذن لحلْق أن يتنفَّس بالآهة أو بالأَنَّة ، وأكظِم وَجَعى فلا أُترجم عنه بما يُترجِم به عن الأوجاع عامّةُ المُرضاء ؛ وأظلّ على هذا دهراً ، ثم إذا هذا التصبُّر يتقلَّص رويداً رويداً ، وإذا بى أئنّ لو كنت خالياً ، ثم إذا بى أئنّ وأتأوّه وأنا بين الناس !

ثم إننى رجلٌ أعهدُ فىَّ شِماسَ الطَّبع ، وعِصيان الدَّمع ؛ فإذا المرض يَأبى إلاّ أن يذلِّل ذلك الطَّبع ، ويُذِلّ هذا الدَّمع ! وهكذا أُسلِّم للمرض أَنفتى كما يُسلِّم الشجاعُ الكَمىُّ سِلاحَه لخصمه ، ويُنزِله الغَلَب على حكمه ، ما به رِضًى بهذا ولا ارتياح ، ولكنها لقد جرَت به الأقدار !

*
* *

وإننى لأَرجو الطبيب وأخشاه ، وأُحبه وأَرهَبه فى وقت معاً ، كأنه قد أصبح لى أباً وكأننى قد ارتدَدت بين يديه غُلاماً ! ولقد يأمرنى الأمرَ فيما يتَّصل بعلاجى وما يطلب به سلامتى ، فأَعصِيه فى سرٍّ منه فى بعض ما أمرَ ، وأُخالفه إلى بعض ما نَهَى . فإذا ما سألنى عُذتُ بالمعاريض فِراراً من الكذب الصريح ، وهذه من إحدى ذِلّات المرض أذلَّه الله !

وما إن أبصرت إنساناً من أهلى أو عُوّدى ، حتى خادمى ، إلّا تخيلت أنه يَستطيع أن يَدفع عنى بعضَ ما بى ، ويُخفِّف بعضَ ما أجد ، ولولا الحياء لاستجديتُه العافيةَ استجداء ، فشأنى كان كشأن الغريق يصارع الموجَ أكثرَ ما يُصارعه بالتأميل فى نَجدَة مَن على الشَّطّ من الناس ! وتلك أُخرى للمرض أخزاه الله !

هؤلاء الأصحّاء الأجسام ، وليكونوا من أولئك الباعة المترقّين بأبدانهم[١] ، وليكونوا من كَنّاسى الشوارع ؛ بل ليكونوا ممن ضَمِنتهم[٢] السُّجونُ فى أفظع الجرائم . يا لله ما أسعَدَهم جميعاً وما أنعَم حالَهم . إنهم ليكادون يَطيرون طَيراً بما يجدون من لذّة العافية فى الأبدان ! من لى بيومٍ واحدٍ أو بساعةٍ واحدةٍ أُراجع فيها العافيةَ وأنعم بها، فلا آسَى بعدها على شىء أبداً !

ما لَـكم يا أهلَ العافية لا تَطرَبون ولا تَمرَحون ولا تَطولون الجبالَ الشامخةَ من تَتايُهٍ ومِرَاح ؟ إنه ليخيَّل إلىَّ أنكم تجاهدون فى كَظم أفراحِكم أشدَّ الجهاد ! فلو خلعتم علىَّ شيئاً مما تجدون من العافية ؟ إذن لرأيتم أنه لا يتَّسع لِمرَاحى كلُّ ما بينَ الأرض والسماء !

الصِّحة ، الصِّحة وحدَها ، ففيها عن كل عَرَض غَناء

ما عَزَبتْ عن الإنسان نعمةٌ من نعم الدنيا إلّا اقتَصر حِسُّه على ألم فِقدانها والحِرْمان منها . أما فقدُ الصِّحة فإنه يُشعِر الحِرمانَ من كلّ شىء ؛ وقد صدق من قال : « يا أهل العافية لا تَستقِلُّوا النِّعم ! »

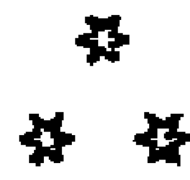
أستغفر الله ! بل إن فِقدان الصحّة لما يُزهّد فى أنعُم الحياة . وإننى لأذكر ، وأنا فى مَرْضتى هذه ، أنه ما عَرَضَتْ لى مُنيةٌ من المُنَى التى طالما هَفَت نفسى إليها وسألتُ الله فيها جاهداً ، إلَّا دَقَّت فى عينى ، وهانت على نفسى ، حتى لَأَرانى فى تَشهِّيها والاحتفال لها إنما كنتُ سخيفاً كلَّ سخيف !

هذا جرحى قد اندمل ، وهأنذا أمشى وئيداً إلى العافية ، وإنى لأشتهى بعضَ الطعام ولكن هيهات أن يُنوِّلنى الطبيب . فآه ! هـذا اللّون ما أحسنَه وأسوَغَه وأحلاَ مذاقَه ، وما أنعمَ الآكِليه وأسعدَهم ؟ فلو رجعتُ إلى العافية لَكسرتُ عليه عشرَ وجباتٍ مُتتابعات !

(١) المراد بهم الباعة الجوالون (٢) ضمنتهم : احتوتهم

هذه الرُّقعة من القاهرة أو من غير القاهرة ما أجملَها وما أبدَعها ، وما أبهَى خِططَها وأحلَى موقعَها ! لئن رُدِدتُ إلى العافية لأتخذنَّ منهـا مُنتَجعى ومَثَابِى ، ومَذهَبِى فى غدوِّى ومآبِى !

وهذا كَيتَ وهذا كَيت ، ممـا يُصابُ بـ (لعلّ) وما يُصاد بـ (ليت) ، ما دام فى مِصباح هذه الحياة زَيت !



ويشاء الله تعالى بعد هـذا البلاء كلِّه أن أَصِحَّ وأسلَم ، ويعود إلىَّ ما كان لى من العافية . وإنى لَأستعرض ذلك الذى كنت أشتهيه وأُنْظِره للعافية ، فإذا النفسُ منصرفةٌ عنه ، زاهدةٌ فيه ، لا تراه يَستحق من هموم الشهوة كثيراً ولا قليلا !

هأنذا أعود إلى العافية فأعود إلى ألَّا أذوق لها طَعماً ، ولا أشعر بها إلّا وَهماً ، ولا أجد لها من أسباب النَّعْماء ، بعضَ ما يُقدِّره العليلُ للأَصِحَّاء . أفترانى أرجو دوامَ السَّقَم ، لأستديم الشعورَ بما فى العافية من النعَم ؟ إذن فيالها نِعمةً لا يَقوم وجودُها إلّا فى العدَم ! وصـــدق من قال : « الصحة تاجٌ على رؤوس الأصحَّاء ، لا يراه إلّا المرَضاء » ورحم الله القائل : « وبضدِّها تتميَّزُ الأشياء »

وعلى هذا أسأل اللهَ ألاّ يُشعِرَكم هـــذه النعمةَ يا معشر القرّاء ، إنه تعالى سميع الدُّعاء !

فى الطيـارة

بين المـــاظة والدخيلة *

لقد كان بينى و بين صديقى وأستاذى المرحوم محمد بك المويلحى اتفاقٌ وثيقٌ على أن السيارة لم تصبح بعدُ مَركَباً عاديًّا سائغاً يجوز للناس أن يتّخذوه فى سَرَاحٍ وَرَواح[1] آمنين . فإذا كنتَ ترى فى ملاعب (البهلوان) من يَمشى على السِّلك الأرفع ، ومن يُصارع الوَعْل ، ومن يُعفِّر الليثَ الخادِر بالسَّوط ، فَصِلْ ركوبَ السيَّارة بهذا . فإن كنتَ بَطلاً فتقدَّم إليهـا فى غير حاجة ، و إلاَّ تَكُن فلا يَضطرك إليها إلاّ الضرورةُ المُلحّةُ من طُول مَدًى وضيق وقت ، وخوف فَوْت ونحو هذا . والضرورات ، كما قالوا ، تُبيح المحظورات . وقَضَى المويلحىّ رحمه الله على هذا ؛ وبَقيتُ بعدَه هذه السنواتِ الثلاثَ حافظاً لعهدِه ، قائماً على مِيثاقهِ . ولستُ أدرى بعدَ إذ تَرقرَق فى عالَم الأرواح : ألاَ يزال ثابتاً على رأيه ؟ أم تكشَّف له من مكنون الحقائق ما حَرَفه عنه ؟ ومهما يكن من شىء فسنَلتقِى فى يومٍ قريب أو بعيد ، وحينئذ يَتهيَّأ لنا أن نُعيد النظرَ فى ذلك الاتفاق !

هذا رأيى ، إلى أن أموت على الأقلّ ، فى اتّخاذ السيَّارة ؛ على أننى لا أفتأ أتّخذها على علمى بأن جانب التّلَف فيها يَغلِب جانبَ السلامة . ولكنها كما زعمتُ الضرورة . و إننى لأُخاطر من شاء على ما يشاء ، مما يَدخل فى طوقى ، إن كان أحدٌ رآنى قطُّ أقرأ فى السيَّارة جريدة ، أو أنقُد دراهم ، أو أُلقِى بالاً إلى حديثٍ

---

* نشرت بجريدة الاهرام فى عدديها الصادرين فى غاية يوليو وأول أغسطس سنة ١٩٢٣

(١) فى سراح ورواح : فى سهولة

رَديف ؛ بل إن شأني معه إذا هو أقبل بالحديث عليّ لَكَشأن القائل :

وأُطيلُ لحظَ مُحدِّثي لِيرَى ... أنْ قد فَهمتُ ، وعندكم عَقلي

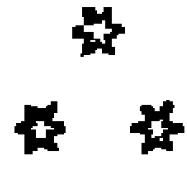
وكيف لى بهذا وأنا فى أعظم شُغل من رَجَفان القلب وضَرَبانه . ومن عينٍ شائعةٍ بين يَدَى السائق والترام المقبِل من هنا ، والسيَّارة المنطلقة كالسَّهم من هنا . وهذا الغلام الذى يَحجل بين يدى العَجَل من هنا . وهذا الحافى راكب الدرَّاجة يَعترِض السيَّارة فى تمام سُرعتها ، فيلوِّح لسائقها بيُسراه ليَتلبَّث حتى يقطع هو (بسلامته) الطريق ، وغير هذا من ألوان العذاب الأليم والبلاء المُحيق ! ! !

أما السَّاقَةُ فوالله ما أدرى ما حظُّ أكثرهم الكثير فى أن يَطيروا بك على أديم الأرض طيراً . وإنى لأسأل الرجلَ منهم أن يتريَّثَ فلا يَسمع . وإذا فعل طَوعاً لرجائى أو لزَجْرى فلثانية أو اثنتين ، ثم عاد أجْرَى وأسرعَ مما كان . وإنى لأقول له : يا سيدى لستُ مستعجِلاً أمراً . والله ما أنا ذاهب لإطفاء حريق ، ولا لإنقاذ غريق . صدِّقنى والله ما أنا ماضٍ لقيادة الجيش فى المعركة الحاسمة ، ولا أنا مدعوٌّ لتأليف الوزارة ، ولا لشراء (النمرة) الرابحة فى سِبَاق الدِّربى . كل هذا ولا حياةَ لمن تنادى !

ولقد قلتُ لسوّاقٍ مرَّةً ، وقد عنَّانى فى هذا الباب أمرُه : أتعلم يا سيدى أنك بإسراعك هذا ستُفقِدنى مائةَ جنيه كاملة ! فقال لى : وكيف هذا ؟ قلت : إنى خاطرتُ صديقاً على أن من يَسبق منا إلى الموعد يَدفع لصاحبه مائة ! فأَشفَق على مالى ، وليْتَ الخنزير لم يَفعل . فلقد أقبل علىّ وولّى الطريقَ قَفاه ، وجعل يُلقى علىّ محاضراتٍ شائقة فى مَضارّ المراهنات !

وآخر ، لقد أسرع بى ، وأنفِي راغِم ، إسراعاً مُرعِّباً ، فسكتُّ وأسلمتُ أمرى لله . وبعد لأْيٍ ، إذ افترقَت مسالكُ السبل ، التفت إلىّ وقال : أين البَيت ؟

قلتُ : أجادٌّ أنت فى أنك ذاهبٌ بى إلى البَيت ؟ قال : طبعاً ! قلت والله يا أخى لَحَسِبتُ أنك عدَلت بى إلى قرافة المجاورين !



هذا حديثى مع السيارة ، وهذه علاقتى بها ، لعنةُ الله عليها . أما الطيَّارة ، كان الله لراكبيها ، فلم يَلحَقنى ولن يلحَقنى منها بعون الله أىُّ أذى . وكيف لها بذاك ؟ ولو قد دُعيتُ إلى ركوبها على أن تُحلِّق بى إلى موطن إجابة الدعوة ، أو تتقرّى بى مَسقِط الغُنْم من ليلة القَدْر ، فيكون لى ما شاء اللهُ من العافية فى النفس والولد ، وطول العمر ، وسَعَة الرزق ، ونفوذ الكلمة ، وبَسطة السُّلطان ؛ لآثرت ما أنا فيه من الجهد على كل تلك العافية !

إذَن فأمر هذه الطيّارة مفروغٌ منه عندى إلى غايةِ الزمانِ إن شاء الله ، فإن بَدَا لولدى أو لِحَفَدَتى ، إن كان يكون لى حَفَدَة ، فليفعلوا فلهم زمانُهم !

ولكنّ هناك قدَراً يُرغمنا ولا نُرغمه ، ويُلجمنا ولا نُحكِمه[1] . وإنه ليدَعنا نُصوِّر ونُفكِّر ، ونُدبِّر ونُقدِّر . وهو منّا ضاحكٌ وبنا مستهزىء ! وإنا لَنريد اليمين ، فإذا هو يَطرَحنا إلى الشِّمال ، وإنا لَنطلُب قُدَّام ، فإذا هو يَركُلنا[2] إلى وَراء . وكيف لنا بالفِرار ؛ والهاربُ ، إنما يتقلّب فى يد الطالب ؟ !

صدّقنى يا سيدى إذا أكّدت لك أن العلم كله ليَضيق بشأنى ، وأن مركونى والمرحوم إديسون ، والعالِم اينشتين ، وأضرابهم من فحول العلماء والمستكشفين ، لأعجزُ جميعاً عن أن يَهتدوا إلى (نظرية) تَطْيير هذا الكاتب . ألا فليبذُلوا الجهدَ فيما هو أجدَى : من إحالة الحَصَى ذَهباً ، والهواء حطباً ، ومن إطالة العمر إن استطاعوا ، ومدافعة الموت إن أطاقوا ، والاصطلاء بالثلج ، والابتراد بالنار ، والمشى على أديم

(١) نحكمه بمعنى نلجمه (٢) ركله : ضربه برجل واحدة

الطَّيف ، واستخراج القُرّ(١) من وَقْدَة الصَّيفِ . ليُعالجوا ما طاب لهم من هذا ، وليَعدِلوا عن ذاك ، فقد جَفّت عنه الأقلامُ ، وطُويَت من دونه الصُحف !

ولقد حدثْتك عن القَدَر ، فانظر بعد هذا كيف يَصنع القَدَر :

لى صديقٌ من شياطين الإنس لا تُعجِزُه وسيلة ، ولا تُعيِي عليه حيلة . لا أدرى أيّ رصفائه من شياطين الجن زيَّن له أن يُطيِّرنى أنا ! والعياذُ بالله تعالى . سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ! و إليك الحديث :

من بضع ليالٍ غَشيتُ سامِرَ الأصدقاء ، وما إن كدتُ أستوِى فى مجلسى حتى ابتدَرنى صديقى الأديبُ الظريفُ الأستاذ حسنى نجيب بهذا الكلام : يا فلان! نُسافر معاً فى الطيارة إلى الإسكندرية ! فلم يَعْدُ الأمرُ عندى أن يكون من إحدى مُزحاته . على أنه كرَّر هذا وأعاده ، وأعاده وكرره ، حتى لم يبقَ فيه فضلٌ لنكتة . فقلت له : ويلك ! أجادٌّ أنت ؟ فقال : إى والله لا أقول إلاَّ جِدًّا ، وستكون نزهة جميلة تَظَل تذكرها على الأيام . وجعل يُبدىء ويُعيد فى هذا ودَمى يَغلى فى عُروقى ، والغيظُ يذهب بى كلَّ مَذهب ، حتى كدتُ أخرج من جِلْدى . فقلت له : ما الذى أصابك ويحك ! أُسافر فى طيارة ! لَعَمرِى لو أمكنْتَنى من خزائن ركفلر ومن سلطان موسولينى ما فعلت ! فقال فى جِدٍّ وتصميم : بل تسافر !

ولما رأيتُه قد أطال فى هذا وأفرط ، قلت : لن أُسافر ألبتةَ ، فإن كان لك من الحول والسلطان ما تَستكرِهنى به على هذا السفرَ ، فاصنع ما أنت صانع ! وأمسكتُ بعد ذلك عن مُراجَعته ، فلم يسكُت ، بل جعل يدخُل بنا فى تفاصيل السفر ، ويَقترح ألوانَ الثياب التى آخذُ والتى أدَع ! والفُنْدُق الذى نَتدلىَّ فيه عند مَهبِطنا الإسكندرية ! و . . و . . و ، حتى أضجَرنى وأبرَمنى وَطَيَّر لبىّ كل مُطَيَّر . فقمت عن

(١) القر بضم القاف وتشديد الراء : البرد

المجلس وأنا لا أكاد أرى ما بين يدىّ، غيظاً وحَنَقا. ولم يَفُتْه أن يُشيّعني بالتعجُّل فى إعداد العُدَّة واتِّخاذ الأُهْبَة لأن الوقت قد أزِف ! فعدتُ إلى بيتى وقد جعلتُ على نفسى ألاّ أغشَى سامِرَ القوم إلاّ بعد أن يسافر حسنى (على الطائر الميمون) !

لم يَرُعنى فى ضُحَى اليوم الثانى إلا أن يسألنى حسنى فى (التليفون) عما إذا كنتُ قد فرَغتُ من إعداد العُدَّة للرِّحلة الجوية (يا فتّاح يا عليم) ! وأسأله أن يَكُفَّ عنى فلا يَكُفّ ، وأستحلفه أن يَدعَنى فلا يَعطِف ولا يرِقّ . وفى المَسَاء عاود المسألةَ فى (التليفون) أيضاً . وجعلتُ أجادله جِدالَ المَغِيظ المهتاج . فلا يَكْرُثُهُ ذلك ولا يَلْويه

وهنا تكلم القدَر فسكت المقدور ، وتزايل الحذَر فوقع المحذور

تَقِفون والفَلَكُ المحرِّكُ دائرٌ وتُقَدِّرون فتضحكُ الأَقْدارُ

فلقد أطلَق علىَّ القدَرُ من كِنانة الغيْب ما قصَف عزمى قَصْفا ، ونَسَف كلَّ تصميمى نَسْفا . فلقد كان ولداى الأكبران بنَجوة منِّى يستمعان هذا الحِوارَ ولا أَراهما . فما إن أطبقتُ فم (التليفون) حتى تَقدَّما وهَتَفا معاً :

إذا كنت يا أبتاه تخاف الطيارةَ فنحن نركبها بدلاً منك ! ! ! فقلت : لقد قتلتمانِى أيها الشقيّان كما قتل خادمُ المتنبّى مولاه ، سامحكما الله وعَفا عنكما . وطلبتُ الأستاذ حسنى من فَورى وسألتُه عن ساعة قيام الطائرة وغير هذا من بعض التفصيل، وسَرعان ما دَعا إلى (التليفون) صديقى المفضال الأستاذ لطفى محمود السكرتير العام لبنك مصر . وهذا أقبَل علىّ بالهناء ، فقد كان بين السَّفْر الكرام . وتبيّن لى بعدُ أنه كان أبلغَ المؤتمرين بى أثرا ! وهكذا يكون رجالُ المال ، صنَع اللهُ لهم !

كان ذلك عَشِيَّةَ الأربِعاء ، والسَّفرُ مُصبَح الجمعة ؛ فيا لها من ستٍّ وثلاثين ساعةً فى انتظار البلاء ! ! !

جعل الرُّعبُ يَشيع فى نفسى ، والفزَعُ يَغمِزُ على قلبى ، وأتلفّت بالخاطر فى كل مَطرَح فلا يَقع إلاّ على وَيل . أما الرجاء فى السّلامة فقد سَكَن صياحُه ، وانطَفأ مِصباحُه

يا ربّاه ! كل يوم وفى كل ساعة تُحلِّق الطيارات حتى تكاد تَحُكُّ قرنَ الشمس وتصكّ وجهَ القمر ، فتغدو سالمة ، وتعود غانمة . فلماذا لا يجرى القَدَرُ إلاّ على طيارتى أنا ؟ ! لم تُسعِدنى كلُّ هذه الأمثالِ ولو بمِزْقةٍ من ظلّ الرجاء . وأخيراً تهدَّيتُ إلى حَلّ ظهر لى باديءَ الرأى مُحكَماً بديعاً . ذلك بأنه إذا كان ولا بدّ من سَقطة ، فأقصَى جُهدها ألفُ متر ، فماذا علىّ لو أدَّيتُها مقدَّماً ، فأتسلّفَ السلامةَ فى تلك الرحلة (العزيزة !) وما علىّ إلاّ أن أثِبَ من سريرى إلى الأرض ألفاً وخَمسَمائة مرة زيادة فى الاحتياط ، وبذلك نُبرِئ الذِّمة من الآن

وفيما أنا أتهيَّأُ لهذا تنبهت فُجاءَةً إلى أن (بنك) الطيران لم يُدخِل بعدُ فى أعماله نظامَ المعاملة بالتقسيط ! ! ! فسُقِطَ فى يدى ، وتركتُ الوهمَ يَسْرِى بين حنايا الضُّلوع مَسْراه ، وفوَّضتُ أمرىَ كلَّه إلى الله ، فبِيَده البَسطُ والقبض ، وعن أمره الرَّفع والخَفض ؛ ولا بُدَّ مما ليس منه بدّ

ويَطول علىّ الانتظارُ من مَساء الأربعاء إلى صُبح الجمعة (والوقوع فى البلاء خيرٌ من انتظاره) كما يقولون . وكان يُسلِّى عنى الفَينةَ بعد الفَينة (تليفونات) أتلقاها من أصحابى سائلين عن الخبر كأنه حدَث فى البلد حَدَث ، وأجيبهم بالتأكيد ، وهم بين مُصدِّق وبين مُكذِّب ، وبين مُشجِّع وبين مُخذِّل ؛ وتَتطارَحُ المفاكهاتُ من هنا ومن هنا . وكلها حوْلَ أن عبدَ العزيز يَطير !

على أنها الأيامُ قد صِرْنَ كلُّها عجائِبَ حتى ليسَ فيها عجائبُ

* * *

يوم الطيران :

وأهُبُّ من نومى فى بعض الساعة الخامسة من صباَح يوم الجمعة . وجَعَلتْ ظلالُ الأحلام تتقاص رُوَيداً رُوَيداً ، والذاكرةُ تَنصَقل رُويداً رُويداً . وجَعَلتْ الذِّكرَيات تَتوارد تباعاً ، وإذا من بينها أننى بَعدَ ثلاثِ ساعاتٍ أطير ! . ورُحْت أُجُسّ أطواء نفسى ، وأتقرّى مَدَاخل حِسّى ، فإذا أنا كلٌّ وادعٍ وكلٌّ مطمئنّ . ومَضَيت أبحث عن الوهم فلا أجده ، وأتحسسُ الفزَعَ فى مَنَابته فلا أُصيبه ! فلو وَفَدَا علىّ ولو ساعة ! فقد أَلِفتهُما وطال الإلف ، وحالفتُهما فاستَوثَق بيننا الحِلف . وإنى فى هذا لحقيق بقول المتنبى :

خُلِقتُ أَلوفاً لو رجَعتُ إلى الصبا   لفارقتُ شيبى مُوجَعَ القلبِ باكيا

ونَهضتُ خفيفاً ، فأصلحتُ من شأنى ، ورَزَمتُ متاعى . ورأيت أنه ما زال بين يدىّ من فَضل الوقت ما يتسع لرياضة الصباح ، وهى تَستهلِك الساعةَ وبعضَ الساعة . وطَلع علىّ حسنى لموْعده ، فمَضَيْنا ، على اسم الله ، إلى المطار . وهو طولَ الطريق يزُيِّن لى هذه الرِّحلةَ ويُبهِّجها لنفسى . وما به ، شهِد اللهُ ، إلّا الخوفُ من أن يُفلتَه صيدُه . فهو إنما يُلقى الحبّ للطائر ، ويَتراءى بالحَمَل للّيث الخادر !

ولمّا رأيتهُ قد أسرف فى هذا أقبلتُ عليه وقلت له : يا سيدى ؛ دُونَ هذا وَينفقُ الحمار ! خفِّض عليك ، فإنى طائرٌ طائرٌ ! سواء أكانت الرحلةُ جميلةً أم زِفتاً وقَطِراناً . وسواء وصلنا سالمين إلى الإسكندرية أم صِرْنا إلى الدار الآخرة . فالمسألة أصبحتْ مسألةَ كرامة ، لا أضحكَ اللهُ أولادى منى ، ولا عَبِث بسيرتى أصحابى . فرأيته يُعالج حَقْنَ الغَيظ ، ويجهد فى هذا جهداً شديداً ، لأننى توسّمت فيه من أول ما دعانى لهذه الداهية أمراً ، فبيننا ثأْرٌ قديم !

وأمسَكْنا كِلانا عن الحديث حتى بَلَغْنا المطار ، وهناك استقبلَنا الشابُّ الكفء الجليل القَدْرِ ، والفاضل ابن الفاضل الأستاذ كمال علوى المدير العام لشركة مصر للطيران . ورَفعونا أولاً إلى الميزان ، فخرجتُ ، والعصَا فى يدى ، بخمسة وخمسين كيلو ، والحمد لله على القِلّة ، فهى كثيراً ما تُخفف من كُلفةٍ وتَعصِم من ذِلة .

ثم مَضَوا بنا إلى الطيّارة . وكانت أولَ طيارة رأيتها فى حياتى من كَثَب ، فَصَفُّوا الرَّكب بجوارها ، والتقط المديرُ بيده صورَتهم الشمسيَّة . ثم دُعينا إلى الصعود ، وأجلسوني وحسنى أيضاً فى الصف الأول مما يَلِى مجلسَ السائق ، وجلس فى الصف الثانى الأستاذان لطفى محمود ، وكمال علوى ، ومن ورائهما ثلاثة من الانجليز . وبَقِى فى الطيارة مكانٌ واحدٌ خالياً

وأطلق السائقُ التيَّار فدار المحرِّك برهةً تزيد على الدقيقة ، والطيارةُ ثابتةٌ فى موضِعها . ثم بَعثها فزحفَتْ على الأرض زَحفاً رفيقاً ، ثم استحال جَرْياً ، وظَلَّت تدور على اليَبَس . ولما طال ذلك منها قلت لصاحبى : لعلَّنا نَبلُغ الإسكندرية على هذه الحال بَرًّا ؟ أفتراها إذن سَيارةً ، أفرغوا عليها هيكلَ طيارة ؟ فضحك صاحبى وقال : أىَّ أرض ؟ لأنت والله على جَنَاحِ الريح . فالتفتُّ وحقَّقتُ النظرَ فإذا أنا حقاً قد صِرت بين الأرض والسماء من حيث لم أشعر !

ولقد كان يُخيَّل إلىَّ أن الطيارة ثابتة فى موضعها من الجوّ ، لولا أننى كلّما تشرّفتُ من النافذة رأيت البيوتَ تَصغُر وتدِقّ ، حتى إذا جُزنا بحيِّنا فى حِلمية الزَّيتون بانت لى المنازلُ فى أَحْجام الرِّجام ، ففسد علىَّ كلُّ ما أعددت لملاعبة أولادى ، وقد واعدونى أن يطالعونا من سَطْح الدار

ونسيت أن أقول لك إننى حينما دُعيت إلى ظهور[1] الطيَّارة ، تفقّدت شيئاً مهمًّا جدًّا ، وخاصَّةً فى هذه الرحلة ، فلم أجده . وكيف لى بإصابة ما لم يكن ،

(١) ركوب

ووجدان ما لم يَخرُج بعدُ إلى الوجود . ذلك بأنني تعوّدت إذا ركبت القطار أو السيارة أن أقرأ حِزبَ البرّ ، فإذا علوت السفينَ قرأت حزب البحر . فمن لى اليومَ بحِزب الهواء ؟ لقد اشـتدّ وجدى لهذا وكَظَّ الهمُّ صدرى حتى كاد يُفرّق أضلاعى !

يا قوم : لا أسألكم أن تصنعوا لنا سيارةً تنهب الأرض نهباً ، ولا طيارةً تطوى الجوّ طيّاً ، فلقد وفّر الغربُ عليكم هذا وكفاكم المؤونةَ فيه ، ولـكننى أسألكم أن تؤلّفوا لنا حِزباً للهواء ، نستعصِم ببركته كلما عَرَجت[1] بنا الطيارة إلى السماء ! ! ! .

شعور :

فإذا طلبتَ شعورى من ساعة استويتُ إلى مجلسى فى الطيارة ، فذلك مما يُعيِى تصويرُه على القلم : خَطْرة خوف ووَهل[2] مرّت كإيماضة البرق ، أو كما قال البُحترى : (خَطْرة البَرق بَدَا ثم اضمحَلّ) . وسرعان ما أحسستُ لوناً من شُرود فى الذّهن يسيرٍ لم يقطع ما بينى وبين ما حَولى ، فإنى لأرى الأرض ، وأُفرّق بين أخضرها ويابسها ، مساكنها وخَلائها . وأرَى الترَع فى اختلاجها وتأوُّدها[3] . فإذا أقبل علىّ أحدٌ بالحديث تَفهّمت ما يقول ، على أن ذلك كان يُجشّمنى شيئاً من حَدّ[4] الذّهن . ولقد أُجيب عما أُسأل عنه فى غير تَتعتُع ، إلاّ أننى كنت أُوجز القولَ ولا أُطيل ، لأن ذهنى لم يكن أكثرُه بِمَلكى ؛ فإن شيئاً قويّاً لَيُنازعنى نِزاعاً عليـه !

فإذا عُدتُ إلى نفسى ، فرددتُ طَرفى إلى جوف الطيارة ، أو أغمضتُ عينى ،

---

(١) ارتفعت
(٢) الوهل : الفزع
(٣) تأودها : انحناؤها
(٤) حدّ السكين حدا : شحذها

وانقطع ما بينى وبين سواى ، لا أعُود أشعر بشىء ، أو أننى أشعر شعوراً غامضاً مُبهَماً ، لا هو بالخوف ولا هو بالأمْن ، ولا هو بالرّجاء ولا باليأس ، ولا هو بالسُّرور ولا بالحزن ، ولا هو بالتفكير فى النفس أو الولد أو أى شىء من تلك الأسباب التى كنتُ من قبلُ أُقدِّر دَوَرانَ الفِكر فيها ، ونُزوعَ الهمِّ كلِّه إليها . بل إننى ، فى هذه الحال ، لا أُفكّر فى أننى على جَناح الرِّيح . وعلى الجملة لقد كان شُعورى فى تلك الساعة أشبهَ ما يكون بشُعور الرجُل تهيَّأ للنوم ولمّا يزل على جَناحِ السِّنَة . هذا شُعورى أدَّيتُه إليك بقدر ما واتانِى القَلَم .

ويتركنى صَحْبِى على هذا فَترةً لا أدرى : أطويلة هى أم قصيرة ، إلى أن بعثَنى حسنى ، حسنى أيضاً ، بحديث (الغراب) ، فعرفتُ أن كِنانة الخبيث ما بَرِحَت حافلةً بالسِّهام ؛ وكان السهمُ هذه المرةَ أمضاها ظُبةً[1] وأصلبَها مكْسراً . فاسمع يا سيدى لا أسمعك الله حديثَ (الغراب) ، وخاصَّةً إذا كنتَ معلَّقاً بين التُّراب والسَّحاب :

يا غراب :

(فلان) الغراب ، وهذا لقبُه ، وهو يَتكسَّب من الترسُّل[2] فى القهوة التى نجلس إليها . ولقــد عُقد الشؤمُ كلُّه والنحسُ أجمعُه بغُرّته (السوداء) . حتى لو قلتَ له : يا غراب علَىَّ بكوب ماء ، لم يَلبَث أن يعود إليك بأن شركة المياه قد أفلسَت ، فهدَّمت أبنيتَها ، وسَدَّت أقنِيتَها ، وباعت عُددَها وآلاتِها ، (خُردة) وتَحمَّلت عن هذه البلاد بسلام ! ولقد تقول له : يا غراب ! اطلُبْ دارى فى (التليفون) واسأل : هل زارنى أحد ؟ فيعود إليك بأنه لم يَزُرك إلاّ مُحضِران وثلاثةٌ من الغُرَماء ، وصاحب البيت فى طلب الكِراء !

---

(١) ظبة السهم : حده (٢) أى أنه يرسل فى قضاء حاجات الناس لقاء أجر

— فهل طلبنى أحد فى (التليفون) يا غراب ؟

— لم يطلبك يا سيدى إلاَّ النيابة ، والقصر العينى ، والإسعاف !

— إذن فامض إلى جريدة الأهرام ، و إليك (نمرة) جلوس ولدى ، واسأل : هل نجح فى امتحان الشهادة الابتدائية ؟

— سقط يا سيدى ، وأغلبُ الظنّ أن ليس له مُلحَق !

— أرجو منك يا غراب أن تراجعَ لى هذه (النمرة) فى كشف سباق الدّربى

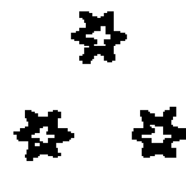
— يا خسارة يا سيدى ! لقد كان بينها و بين (النمرة) التى ربحت الجائزةَ الكبرى رَقْمٌ واحد !

وهكذا ، (أينما يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ) . صَدَقَ اللهُ العظيم

وأنا رجل شديد التطيُّر ، يُزعجنى ما دونَ (نفَحات) الغرابِ بنسبة $\frac{1}{1,000,000}$ ، وأصحابى يعرِفون شدّة ذعرى من هذا الغراب ، و يتَقصَّون حوادثى التى لا تَنقضى معه

على أن من أشدّ ما يُدهشنى حتى يكاد يذهب بلُبِّى ، ولعٌ فى هـذا الغراب شديدٌ بألاَّ يأذن لوجهه الكريم بمفارقة طرفى لحظة واحدة ، ولو جلستُ ثمّةَ عشرَ ساعاتٍ متواليات ، اللهم إلا أن تكون القوةُ القاهرة . فأنَّى جلستُ وقف بإزائى ، و إنى لأجوّل طرفى إلى الشّرق فسرعان ما يُشرّق وجهُ الغراب، فأردّه إلى الغرب فيُغرّب ، وأتحوّل من ناحية إلى ناحية ، فيتمثل لِطَرفى فى أقلّ من الثانية . ولما حزَبنى هذا الأمرُ رُحت أطلب الفِداء ، وألتمس البُرءَ من هذا الدّاء ، فدعوت به وقلت له : يا غراب ! هل تَقبَلنى (مُشتركاً) عنــدك ؟ فقال : وكيف ذاك ؟ قلت : بألاَّ ترينى وجهك فى مقابل (اشتراك) شهرى قدره كذا . وعلى هذا تمّ الاتفاق . و إن بلائى من (قومبانية) المياه وأختها (قومبانية) النور لأهونُ من وَيْلى من الغراب ، فهاتان لقد يُنبِئانى إذا تأخّرتُ عن الدفع اليومين أوالثلاثة ، ثم

يُحبَس الماء ، أو يُقطَع تيَّارُ الكهرباء . أما (قومبانية) الغراب فالبدارَ بإرسال (الاشتراك) البِدار ، و إلاَّ أُطلقَتْ عليك التيَّار ، من غير سابقة تنبيه ولا إنذار ! ! !



و بعدَ إذ تشرفتُ بتقديم هذه الشخصيَّة الفذّة إلى حضرات القراء ، لم يرُعنى وأنا فى تلك الغَفلة اللَّينة إلاّ أن يَهتِف حسنى بأعلى صوته : يا غراب ! وكان بيننا و بين الأرض ما يُنيِّف على ستّمائة متر فقط ؛ فمِقياسُ الطيارة أمامى . والتفتَ إلىَّ وقال : ألاَ تعرِف أننى جئت بالغراب ودسَستُه فى مؤخَّر الطيارة ، وسيَثِب إلينا الآن ، وهذا الكرسىُّ الخالى له ؟ قلت : أتجِدُّ يرحمك الله ؟ قال : بل يرحمك أنت ! وأطلقها الخبيثُ فى تشفٍّ وشماتة ، و نَهضَ يجىء بالغراب . ووالذى نفسى بيده ما شككتُ قطُّ فى أنه قد فَعل ، فصاحبى حاذقٌ مدبِّرٌ فاجر ! فجمعتُ شَمْلى ، وحدَدتُ شجاعتى ، وقلت فى أتمِّ وَداعة واطمئنان : اسمع يا هذا ! إن كنتَ فعلتَ فقد والله أحسنتَ كلَّ الإحسان ، لأننى إن بلغتُ سالماً فقد نجوتُ من الغراب والطيَّارة معاً ؛ ومَن نجا من هذين فقد أمِنَ أحداث الزمان فى طول الزمان . و إن هلكتُ ، وكل امرىء هالك ، فقد أنقذتُ العالم من الغراب . فأنا إذن مُخلِّص هذا الزمان . وهذا مَقَام تتقطَّع دونه علائقُ الآمال ! فضحك حتى تبادر دمعُه وعرفتُ أنَّ حقده علىَّ لم يَبلغ هذا المَدَى ، و إن كنت لا أُخفى على القارئ أن مجرَّد ذِكر الغراب ، ونحن على هذه الحال ، خَطَرٌ لا يَتهاونُ شأنَه إلا المخاطرون !

بعـد هذا تركنى وكفانى عَبثَه ، فرجعتُ إلى نفسى فإذا كُلِّى حاضر : إدراكٌ تامٌّ ، وشعور وافٍ ، ونفس وادعة ، وعصَب مطمئن ، وطَرْف أُوجهه حيث أشاء ، فيعود إلىَّ بألوان الصُّوَر كاملةً واضحة . وكأنَّ الفزَع من رؤية الغراب ، ذهب بالفزَع من ركوب الطيارة . وهكذا تداوَينا من الفزَع بالفزَع . وصَحَّ فينا قولُ الأعشَى :

(وأُخرى تداويتُ منها بها)

وقول أبى نُواس : (وداوِنى بالتى كانت هى الداء)

وتلك عندى يدٌ للغراب لا أنساها له على تطاول الأيام !

على أن شيئاً واحداً حيَّر حسِّى ، وأدخل علىَّ الشكَّ فى صحَّة إدراكى : ذلك بأننى ما شعرتُ قطّ بأن الطيارة هى التى تسير ؛ بل إننى لا أراها إلاّ ثابتةً لا يتحرّك منها إلاّ المحرّك . ولكننى أنظر إلى المقياس فإذا هو يُحدِّث أنها تجرى فى سرعة سبعينَ ومائةِ كيلو متر فى الساعة . ثم ثمانينَ ومائة . ثم تسعينَ ومائة ! . ثم أُرخى نظرى إلى الأرض ، فإذا هى التى تدور فى اتجاهنا ، ولكن فى تثاقُلٍ وشدّةِ هَوادة ، حتى يُخيَّل إلىّ أن ما تقطعه منها أو ما تقطعه هى منا لا يُدرِك كيلو واحداً فى الساعة !

ثم عَلَونا وعَلَونا ، فأشار صاحبى إلى قِطار من قُطُر (السكة الحديد) ، فإذا هو فى لُطف جِرمِهِ ، ودِقّة حجمِهِ ، لا يكبرُ هذه القُطُرَ التى يتلعّب بها أبناؤنا الصِّغار !

أمَّا الأرضُ فكان مرآها عجباً من العَجَب : هذه رقاعٌ سُندُسيّة خضراء ، لا تزيد مساحتُها على متر فى متر . يَفرِق بينها فراغٌ أدكنُ طويلٌ فى مثل عَرض الأصبع . هذه هى التُّرَع ، أو السكك الرئيسية ، وتلك هى (الغيطان) . وكلّما أمعنّا فى الارتفاع ازدادت هذه كلُّها دِقّةً ولطفاً ، حتى لقد خيِّل إلىّ فى بعض الوقت أننا إنما نتشرّف على خريطةٍ جغرافيةٍ كبيرة ، لا على هذه الأرض ، ذات الطول والعَرض !

ولقد جُزنا بالنيل مرّتين ، ولقد أذكر أنه بانت لنا جزيرة صغيرة فى وَسَطه . وحَسبتُ أننى أستطيع أن أتناولها من الشاطئ بخطوة واحدة ، وأتناول الشاطئَ الآخر بالأخرى ! . إيهِ ! ما أصغرَ هذه الأرضَ فى عيوننا ، وما أهونَها على أنفسنا نحن مَعشرَ سكانِ السماء ! !

ما أحلَى مَنظَرَ هذه الأرض وما أبدَعه من عِند السماء ! هى رُقعَةُ شِطرَنج جميلة ، إلا أنه لا يُمـلِّكَ منها اتّساقُ التقسيم ولا تَشابهُ الأجزاء ، ولا هى تقتصر فى تلوُّنها على البياض والسواد : هذه رُقعة خضراء مربَّعة ، وهذه أُخرى تَستوِى فى مثلَّث غير مُستوِى السُّوق ، وهذه رُقعة مستطيلة تحسبها فُرِشَت (بِبَركيه) جديد لم تَمسَّه بعدُ يدُ الصَّقال ، وهذا إطار جميل يَعتدِل ثم يتثنَّى ، ويَستقيم ثم يتلوَّى

وما برِحنا فى شُغُل من تقليب النَّظر فى هـذه الطّبيعة ، وكأَنّنا جالسون فى أحد رَوَاشن الدُّور ، تجوز من دوننا مظاهر الابتهاج والسرور !

ولعلك الآن مُستَشرِف إلى مطالعة شعورى فى هذه الساعة . وإنى لمبادِيك به غير متزيِّد ولا غال : كنتُ أستمتع بمثل نعيم الجنة لم يَلقنى فى طريقها موت ، ولم يُعنِّنى فى سبيلها حساب !

وإن شئتَ وصفاً يَتّصل بأحاسيس هذه الدنيا ، فليس عندى ما أجلو عليك من فُنون التَّشبيه إلاّ أن أُحيلك على الحُلم اللّذيذ فى النَّوم المطمئنّ المَنيء ، تَتَوافَى لك فيه أسبابُ المُنَى وما فى يديك منها كثيرٌ ولا قليل !

ثم دخلنا فى الصحراء ، وكلها شيءٌ واحدٌ لا يَرجع إليك طولُ النظر فيه إلاّ بالضّجر والملال ، فجعَلنا نتشاغل بالحديث وبالقراءة بعضَ الحين . وعاد حسنى ، وحسنى دائماً ، فقال لى : أتحبّ أن أُشير على السائق بأن يعمل (شويّة شَقلَباظ !) فنتمتَّع بهذا اللّون من الطيَران قبل النزول ؟ فشَخَصتُ إلى الأستاذ علوى ، وفى عينىَّ ما لا يخفَى من سؤال وضراعة . فَتجمَّع فى كرسيِّه ، وقال فى جِدٍّ لا أثر فيه للعبَث : لكُما يا صاحبىَّ أن تمزَحا ما طاب لكما المُزاح ، وإنى لأدخل معكما فى بعض هذا كيفما شئتما ، ولكن لا سبيلَ إلى مُزاح مع طيارةٍ ولا مع طيّار !

فتحوّلتُ إلى الشقيّ ، وقد قُلِّمَتْ أظافرُه ، وقلتُ له فى لهجةِ الظّاهرِ[1] المنتصر : (طيّب انبطّ بَقَهْ) ! ! !

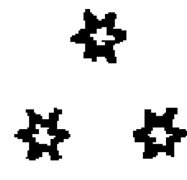
وتراءت لنا من بعيد صَفْحةُ البحر ، فتداخلنى كَثيرٌ من الهمّ معه يسيرٌ من الفَزَع . أما الهمُّ فلأن هذه الرحلةَ البديعةَ قد آذَنَت بانتهاء . وأما الفزعُ فلِمَا كنتُ أعلم من أن الطيارةَ تترجَّح فى مَهبطها حتى لَتَستوِى فى بعض الحين على جنبها . وعلى هذا تمكّنتُ فى مجلسى ، وشَدَدتُ بيدى على حافةَ كرسىّ حسنى ، ولبثتُ أنتظر . وأنشأت الطيارةُ تَتَدلَّى ، ولولا أننى أرى عقربَ المقياس يَتَدلى ما شعرتُ أن الطيارة تَتَهابط . ومال علىّ حسنى وقال : لا يَرُعْك أن الطيارة ستَميل مَيلاً شديداً عند مَهبطها ، وهذا ما لا بدّ منه لنزولها . فقلت : فَلتَمِلْ كيف شاءت ، فليس بيننا و بين الأرض إلاّ مائةُ مترٍ أو دُون . وحدثتك أننى كنت قد جَمعتُ شَملى للتحرُّف لهذا المَيْـل ؛ على أنه لم يَرُعنى ، وأنا فى فَتْرة هذا الانتظار ، إلاَّ أن يَهتِف بنا من الرّكب هاتف : أن تفضلوا ! وأنظر فإذا نحن على الأرض ، و إذا البابُ يُفتَح ، و إذا الرّكْبُ يَتدلَّى ! ! !

وتَسألنى فى النهاية ، كم مرةً أطلقتَ نظرَك إلى يد السائق ! فأقسم لك أننى ما أرخَيتُ إليـه طَرْفى قطُّ ولا مرةً واحدة . ولماذا أفعل ؟ والطريق مُعبَّدة ، ليس على عِذارها طِوار ، ولا عَمَد للترام ، ولا (مزلقان) لسكة حديد . ولا نحن على سِيف[2] نهر ، ولا بمقترَب من سيارة يقودها بعض (الوارثين) . وليس على سكتنا غِلمانٌ لا يَحلُو لهم الحجَلانُ إلاَّ فى بُهرَة الطريق ، ولا (دُغُفٌ) لا تَطيب له قراءةُ الجريدة إلاّ وهو ساعٍ على قدميه فى الساعة الخامسة من يوم الأحد فى وسط ملتقى شارع فؤاد بشارع عماد الدين . ولا ، ولا ، من هـذا البلاء الذى يَأخذ جميعَ المذاهب على ركّاب السيارات !

---

(١) الظاهر هنا بمعى الغالب (٢) السيف : الساحل

نعم ، لقد رَجفَت بنا الطيارةُ فى أثناء الطريق بِضعَ رَجَفَات لا تزيد فى مُدَّتها ، ولا فى خفقَاتها على اخْتلاجَة الجَفْن ، بحيث لو كان المرء مشغولاً بحديثٍ أو قراءة ، فإنه لا يشعر بها أو لا يكاد . وقيل لى : إن هذه إنما تجيء عندَ اختلاف المناطق ، كالخروج من اليابس إلى الماء ، أو الدخول من أحدها إلى الصَّحراء . على أن الطيارة لو ارتفعت فوقَ ما ارتفعنا قليلاً لما كانت هذه الخَلَجات لعلوِّها على تيارات الهواء



ولست أكتمُ سيدى القارئَ أننى ذُعرتُ فى هــذه الرِّحلة ذُعراً شديداً كاد يجيء على نَفْسى : ذلك بأننا بعد أن وصلنا بسلامة الله ، أخذْنا من فَوْرنا سيارةً إلى النُّزُل ، فلبثنا هناك إلى ما بعدَ الظهر ، ثم بدا لنا أن نتغدَّى فى مطعم الشَّاطِبى . وما كدنا نصل إلى رأس السُّلَّم حتى أشار لى صديق حسنى إلى ناحية السماء ، فإذا طيارةٌ تُحلِّق فى الجوّ . وقال لى : إنها التى كنَّا فيها ، وهى الآن فى مَقفَلها إلى القاهرة . فقلت له : وقد اصطَكَّت ركبتاى من الذُّعر والوَهَل ! أفَكنا على هذا الارتفاع ؟ قال : بل لقد كنا فى بعض الطريق على ثلاثة أضعافه ! ولقد والله أحسستُ أن قلبى يمشى فى صدرى حتى بلغ حنجرَتى ، فجعل يتخلَّج فيها تخلُّجاً (لا يَرتقى صَدَراً عنها ولا يَرِدُ) . فلما عاد ريقى فجرى فى مجاريه قلت له : أفَجُنِنتُ أنا حتى أُجازف فى مثل هذا ؟! والله لئن كان حدَثَ لى حدَثٌ فى هذه الرحلة ، ما سَمعتُ لك مرّة واحدةً ، ولا ركبتُ معك بعدها طيارة أبداً

على أننا قد وصلنا بحمد الله تعالى سالمين ، فلَحَى الله أنفُسَ الجبناء !

الرديو*

كما يصفه أعرابىّ قادم من البادية

سيداتى سادتى :

تفضّلت شركةُ مَركونى فدعتنى لأتحدّثَ إليكم أحاديثَ شتّى فى أوقاتٍ متفرّقة . وإنى على ما تَدَاخَلَنى من الزّهو بهذا التّشريف ، لقد تَعاظَمَنى الأمرُ وهالنى ، فليس من اليسير على مثلى أن يقِف بينَ يدَى هذا المِذْياع (أعنى الميكروفون) فيُخاطبَ آلافَ الآلاف من أصناف الناس فى شُعَب الأرض ، بينهم العالِم والأديب ، وفيهم الكاتب والشاعر والناقد ، وسيدات هنالك لا يَنقُصن فى هذه المقامات علماً وفضلاً وأدباً

لقد تعاظَمَتنى هذه الدعوةُ ، فتعذَّرْتُ بادئَ الرأىِ على إجابتها ، ولكننى دُفِعْتُ بعدَ هذا إليها من أولياء مَشُورتى دَفْعاً

إذن لقد حَقّ القول ، ولكن ماذا أقول ، وكيف أتحدّث ؟

خَلَوْتُ إلى نفسى لأَختارَ أولَ حديث لى فى هذه المحطّة ، وجعلتُ أتصفّح وُجوهَ الموضوعات . على أنه كلما سنَح لى واحدٌ منها ، حال بينى و بينهَ همّى وشُغلُ نفسى بما يكون من موقفى فى (الرّديو) ؛ وكفّ ذلك الشغلُ ذِهنى عن أىّ تفكيرٍ فى غيره وعن أىّ تدبير . نعم ، لقد مَلك ذلك علىّ ذِهنى من جميع أقطاره . . . إذن فلأرسِلْ حديثى فى (الرّديو) ولأَقصِر عليه الحديث

---

* محاضرة ألقاها الكاتب من محطة الإذاعة الحكومية فى حفلة افتتاحها ، وكان ذلك فى يوم ٢ يونيه سنة ١٩٣٤

الراديو :

سيداتى ، سادتى :

لعله قد هَجَس فى نفوسكم جميعاً أو فى نفوس كثيرٍ منكم هذا السؤال : تُرى لو أن مُخترِعاً عظيماً كالسنيور مَركونى كان قد طالَع سَلفنا الأقدمين بهذا (الراديو) فماذا كانوا يظنُّون ، وكيف كانوا يقولون ؟

أما أنا ، بالذات ، فقد غُمّ علىّ الأمر ، وتقسّمتْ ذِهنىَ ألوانُ الفُروض ، ولكننى لم أستقِرَّ منها على واضحٍ صريحٍ ، فضلاً عن حقٍّ يقين !

ولكن ، ولكنّ للمصادَفات ، المصادَفات وحدَها فى كثيرٍ من الأحيان ، آثاراً تُعْيِى على أشدّ عقل ، وأعظم جُهد ، وأحكم تدبير . بل إن للمصادَفات ، المصادفات وحدَها ، فى كثير من الأحيان ، الفضلَ الأولَ فيما هُدِى إليه أعلامُ الناس من اختراعٍ عظيمٍ ، وما وَقَفوا عليه من استكشافٍ جليلٍ !

هذه المصادفات ، أو على الأصحّ هذا القَدر ، لقد ساقنى يوماً ، وكان ذلك من نحو عامين ، إلى زيارة صديق جمع اللهُ له إلى النعمة والترف ، حليةَ الظَّرف والذكاء . وما إن كِدتُ أطالعه بالسلام ويتلقانى بالتحيّة ، حتى قال لى : إنى سأريك الساعة شيئاً عَجَبا لعلّه لم يخطُر لك على قلبٍ أبداً ! قلت : هات ما عِندَك . فتقدَّم إلى خادمه بأن يدعو الشيخَ عَدلان . وما لَبِثنا غير قليل حتى أقبل علينا شيخٌ من الأَعراب أسمرُ اللَّون شديدُ السُّمرة ، خفيفُ اللَّحم ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردِّد . أمْلَى علىّ شَكلُه الستّين ، ثم علمتُ أنه قد أطَلَّ على الثَّمانين . وهو مع هذا مُستوِى القامة ، حتى كأنّ قامتَه الرمحُ المُثَقَّف . فحيَّا بتحيَّة الإسلام ، فرددنا التحيةَ بالتحيَّة

وأقبل عليّ صاحبي يعرّف لي الرجلَ . قال : إنه من إحدى بَوَادِي نجْد ، وهو يتنخَّس في الدوابّ[1] . على أنه لم تُهيَّأ له رؤيةُ الحَضَر من قَبْل ، بل لقد كان يُرسِل على إبله وخَيله إلى مصر وغيرِ مصر ولدَه وبعضَ مَعشره . ثم بَدَا له أن يَفِد معهم هذا العام ، لِيَشهد عَيْش الحضَر قبل أن يُدركه الأجَل . ووافق مَقدَمه حاجتي إلى بعض الجياد ، وسألتُه أن يُقيم عندي ما أقام في مصر ، لِمَا رأيتُ من ظَرفه ، وخفّة رُوحه ، ولطف حديثه ، وحُسن بَديهته

ولقد بَعَثتُ (الرديو) ذاتَ عَشِيّة في حَضرته ، فارتاع وشُدِه ، وذهب الرُّعب بِلُبّه كلّ مَذهب . ثم اطمأنَّ صاحبي فترةً قصيرةً وقال : وعلى الشيخ عَدلانَ أن يَقُص بقية الحديث . والتفتَ إلى الرجل وسأله أن يَتكلّم ، فتعذّر وتمنّع . فَعَزم عليه إلاّ تكلّم ، فأكرمَ الضيفَ وأومأ إليّ

تنحنح الرجل ، وسَعَل سُعالاً رفيقاً ، ثم أنشأ يتحدّث في لهجة بَدويّة كثيراً ما كان يَلتوِى عليّ فيها اللفظُ ، فيُسوّيه لي بعضُ مَن حَضر

سيداتي ، سادتي :

الآنَ أنقل إليكم حديثَ ذلكم الأعرابيّ بعد أن عَلّقتُه وقيّدتُه بقدر ما واتاني الجُهد . فإن كنتُ قد عالجتُه بعضَ العلاج في شيء من الصِّياغة بتقويم ما لا يستقيم في آذاننا من لهجة أولئكم الأعراب ، قال :

دعاني صاحبُك ذاتَ عَشِيَّة إلى أن أصعَد إليه ، فلما استوَينا في مَجلسنا من إحدى الغُرَف ، أومأ إلى رُكنها ، فحوّلتُ بصري فإذا دُمْيةٌ[2] من خَشَب بُترِ ساقاها فأقعدوها على مِنضَدة[3] . لها أنفٌ صغير ، ولها أذنان دقيقتان . وقد توسّط

(١) يتنخس في الدواب : يتاجر فيها

(٢) الدمية بضم الدال وسكون الميم : الصورة المزينة ، والمراد بها هنا التمثال

(٣) المنضدة بكسر الميم : شيء له أربع قوائم يوضع عليه بعض متاع البيت (الترابيزة)

ما دون الجبين عينٌ لها ، واعجباهُ ، واحدة . تمزّقت حدَقتها فتناثرت فى بياضها تناثُر أكارِع النمل ، على صَفحة الرمل . ولها فمٌ ، يا حفيظ ! قد استهلَك نصفَ وجهها ، سَجَّوه بديباجةٍ من حرير ، وليتهم سدُّوا عليه مساميرَ من حديد ! وما أحسبُ واللهِ هذه الدُّمية إلاَّ صُنِعتْ على صورة الجنّ لم تُطبَع على صورة الإنسان !

ثم قام صاحبُك إليها فعَرك أُذنها ، وسَرعان ما احمرّت حدَقتها فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم ! ثم سمِعتُ لها حَسيساً[1] ما لَبِث أن استحال زَمزَمةً وهمهَمة[2] . نِخلتُ واللهِ أن الأرض قد زُلزِلتْ علىّ ، وأحسستُ قلبى يتمشّى من الرَّوع فى صدرى حتى يَصُكَّ حنجَرتى . فجمعتُ ثوبى للهرَب . فجذَب صاحبُك فضلَ رِدائى ، ولو قد أطلقَنى ما أصبتُ المهرَب ، فلقد تخاذَلت عنّى ساقاى ، وأظلَم ما بينى وبين وجه الطَّريق . وجعلتُ ألتمِس آيةَ الكرسىّ أستعصِم بها من هذا الشيطان ، فأذهبها الرعبُ عنى ، وكأنى لم أحفَظ منها فى دهرى الأطوَل كلمة واحدة ! ولما رأى صاحبى ما بى قال لى : خَفِّض عليك يا شيخ ! قلت : وهذا العِفريت ! قال : لن يَنالك منه مكروهٌ إن شاء الله ، فلقد قَيَّدوا ساقَه ، وشَدُّوا وَثاقه ، فما يَجد له من إساره فَكاكا ، ولا يستطيع فى مَحبِسه حرَاكا . قلت : أفيسجُن سُليمان المرَدةَ فى قماقمَ من نُحاس أو من ذهَب ، وأنتم لا تُبالون أن تَسجُنوها فى جَماجمَ من خَشَب ؟ . . . فانثنَى عنى إلى الدُّمْية فعَرَك أُذْنها الثانية ، فسَرعان ما سكن هَديرُها ، وبَطَل زئيرُها ؛ وإذا العِفريتُ يتحدَّث فى لِين صوتٍ واطمئنان نَبرَة كما يتحدّث عُرَفاء القوم[3] إذا اجتمع لهم فى الهيِّنات القوم . و إذا

(١) الحسيس : الصوت الخفى

(٢) الزمزمة ضجيج الرعد وصوت النار فى الوقود . والهمهة بفتح الهاءين : مصدر همهم الرعد ، سمع له دوى

(٣) عريف القوم : المتقدم فيهم

هو يَنطِق بالحِكمة بَعد الحِكمة ، ويُرسِل العِبرَة فى عقِب العِبرَة ، فأفرخ ذلك من رُوعِي[١] حتى كادت تَرتدّ إلىّ نفسي . ووالذى نفسي بيده لو كان حديثُ هذا العِفريت مما يُطعَم لكان أحْلَى من الجُلاَّب[٢]، أو لو كان مما يُبصَر لكان أصفَى من العَسْجَد المُذاب[٣] .

على أن صاحبَك لم يُلبِثه حتى يأتى على غاية حديثه ، فلقد قام إلى دُمْيَته فحرّك هذه المرّةَ أنفها ، فجعلَت عينُها تدور فى مَحجِرِها ، ثم تركها فاستقرّت ، ولم يَرُعنى إلاّ أن أسمَع من جوفها عزِيفَ عود ، وصوتَ مِزمار كأنما يَنفخ فيه داوود . وهما يتعطّفان على نَقر دَفّ أحسبُهم قد علّقوا فيه صُنوجاً دِقاقا[٤] . ووالله قد حَسُن إيقاعُه وحَلاَ نَبْرُه ، كأنما وُكِلَ إلى طُوَيس[٥] نَقْرُه . وسمعتُ مَعَازِفَ أُخرى جَعلتْ تَتنغّم وتَترنّم ، حتى خِلتُها من جَودة الإيقاعِ تَتكلّم . فشاع فىّ الطرَب ، بقدر ما تداخلنى من الدهَش والعَجَب !

ثم ارتفَع صوتٌ لولا البيَانُ لقلتُ : سَجعُ كَنار ، أو شَدْوُ هَزَار . ولقد راح يشتدّ ثم يَلين فيَشِفّ ، ويُحلِّق ثم يَهبِط ويُسِفّ . وآناً يطّرِد ويَستوِى ، ثم إذا به يَنثنى ويَلتوِى ، ويَسترسِل ثم يَتعرّج ويَتعطّف ، ويَتقدّم ثم يَنحاز ويَتحرّف ، والكَبِدُ تَتياسَر معه وتَتيامن ، والقلبُ يَتطايَر ثم يَتجمّع ويَتطامَن . والنفسُ يَرتفِع كلما ارتفَع ، ويَقع معه حيثما وَقَع !

---

(١) أفرخ روعه : أذهب الفزع عن قلبه

(٢) الجلاب : العسل أو السكر عقد بماء الورد

(٣) العسجد بفتح العين والجيم : الذهب

(٤) الصنوج جمع صنج بفتح الصاد وسكون النون : المراد بها هنا الصفائح الصغار التى تجعل فى إطار الدف الصغير المعروف فى مصر (بالرق)

(٥) طويس بصيغة التصغير ، ولد فى صدر الاسلام ، وكان من أحذق الناس نقراً على الدف

وما بَرِح العِفريت فى شَدْوه وتَسجيعه ، وتَرديده وتَرجيعه ، حتى ذهب الطربُ بى كلَّ مذهب وغَلب علىّ ، ولم أقوَ على شَقّ ثوبى فجعلتُ ألدِم صدرى . وليت شعرى أفأمسَى هـذا العِفريتُ يَرُدّ على المسامع ، صَنعةَ إسحاق وغِناء ابنِ جامع ؟[1]

وما فَرَغ العِفريتُ من غِنائه ، حتى أنشأ يقصُّ علينا أحدثَ الأحداث فى قواصى الأرض وأدانيها : صينها وهِندِها ، وشِينِها وسِندِها . وعِراقها وحجازِها ، ونجدِها وأهوازِها . ومصرِها وسودانِها . فقلت لصاحبك : كيف للجنّى بهذا وهو قَيدُ أسْرِه ، ورَهنُ محبسه ؟ فقال : إنما يُوَسوِس له بهذه الأنباء إخوانُه من المَرَدة والشياطين . قلت : الأمر لا بدّ أن يكون هكذا !

سيداتى ، سادتى :

لقد تعاظَمنى أن أدَع الرجلَ سادراً فى ضَلّته ، فقلتُ له : اسمع يا أخا العرب ! والله لقد كَذَبك وهمُك ، وماصَدَقك صاحبى ! فنظر إلىّ الرجلُ نظرةَ المأخوذ ، وعلّق نفَسه وفغَرَ فاه . ثم قال لى فى لهفة وَدَهَش : وكيف ذلك يا بن أخى جُعِلتُ فداءك ؟ قلتُ : إن الذى رأيتَ إنما هو من صُنع مَرَدَة الإنس لا من صُنع مَرَدَة الجنّ ! . . . ورُحتُ أبيِّن له حقيقةَ (الرّديو) على قدر ما يَتعلّق منـه بعلمى ويتّسع له فَهمُه . وطَفِقتُ أضرب له ما حَضَرنى من الأمثال، والرجلُ بين مصدِّق ومكذِّب . فلما أعيانى أمرُه دعوتُ (بالرديو) وأظهرتُه على خَلفِه . ليرى بعينه ما فى جَوفِهِ . فلما قَطَع اليقينُ عنده عَلائقَ الشكّ ، زَفر زَفرةً طويلة ، ثم تمثل ببيت البُحترىّ فى وصف إيوان كِسرَى :

لَيْسَ يُدْرَى أَصُنْعُ إِنْسٍ لِجِنٍّ ‌ ‌ ‌ ‌ سَكَنُوهُ ، أَمْ صُنعُ جِنٍّ لإِنْسِ

(١) إسحاق الموصلى وابن جامع : كلاهما من أحذق المغنين فى عصر الدولة العباسية

وليس هذا بأول بدوىّ بَهرتْه أسبابُ الحضارة فأشاع فيها الظُّنون ! فلقد قرأتُ مثلَ هذا عن أعرابىّ لعلّه انحدر إلى بَغدادَ فى عهد العباسيِّين ، وأقول (لعلّه) لأن عهدى بهذه القصَّة عهدٌ طويل .

سيداتى ، سادتى :

أفرأيتم أن المصادَفَة ، المصادَفة وحدها ، هى التى هَيَّأَتْ لى الحديثَ إليكم الليلة ؟

وبعد ، فإذا كان العَجَب لم يأخذ فينا بعضَ ما أخذ فى ذلك الاعرابىّ حين طلع علينا هذا (الرّديو) أولَ مَطلعِه ، فذلك لأننا نعيش فى حضارةٍ ممدودةِ الرُّواق ، مبسوطةِ الآفاق . وقد جازت بنا ألوانٌ من المختَرَعات لم تكن تَخطُر على القلب ؛ فوقَ أن المجموعةَ قد أحرزت ، على الأقلّ ، أطرافاً من علوم الحياة تُسلِس لها فى هذا وأشباهِهِ وجوهَ الفَهمِ والتعليل . إلى أن الأخبار تتقدَّم عادةً بخروج هذه المختَرَعات وشيوعها فيُطامِن ذلك من الانبهار بها . ولو لم نُصِب شيئاً من هذا لكُنا وذلكم الأعرابىّ فى تصوُّر (الرّديو) بمنزلةٍ سَوَاء !

ولقد يكون أبناء هذا العصر قد دخلهم شىء من العَجب أو الدهَش يومَ أضاءت لهم الكهرَبا ، ويومَ تَغَنَّى لهم الحاكى (أعنى الفونغراف) ، ويومَ حلَّقت فوق رءوسهم الطائرات ، ويوم غَنّاهم (الرّديو) وخَطَبهم وحدَّثهم . ولكن الطِّفل الذين دَرَجوا وهذه الاشياء قائمةٌ ، لم يَلحَقهم منها ، إن لحِقهم ، إلاّ يَسيرٌ من العَجب . بل لقد يَحسَبُونها من إحدَى البَسائط فى وسائل الحياة . وهكذا كلما زَكاَ العلمُ ورَبا واطَّردت الحضارةُ بنى الإنسان !

صوم مزايا (الرديو) :

سيداتى ، سادتى :

دعُونا الآن من العَجب والدهَش فى حديث (الرّديو) ، فلم يَبقَ لهذا موضِعٌ

الآن . وصَدَق المثل : إذا عُرف السَّبب بَطَلَ العَجب . حتى إذا لم يُعرَف للأمر سببٌ ، فإن ذلكم الانفعالَ ليَسكُن وحدَه بالإلف وطول الاعتياد . ومن حق (الرّديو) علىَّ بعدَ ذلك ، وهو وَسيلتى إليكم الآن ، أن أتحدَّث عن شيء من آثاره ؛ ولـكننى لن أتحدَّثَ إلاّ يسيراً :

كان للأصوات ، على العموم ، مَدًى تنتهى إليه ، وهذا المَدَى يَختلف بُعداً وقُرْباً باختلاف الأصوات من جهة ، والأسماع من جهة أخرى ، قوةً وضعفاً . كما يَختلف باختلاف الجوّ ضوضاء وجَلَبة ، أو هَدْأةً وسُكونا . وعلى أىّ حال فإن هذا المَدَى لم يكن يتجاوز الصَّدْرَ فى رقم المئات من الاميال ، كما يكون من هَزِيم الرُّعود وعَزِيف المدافع مثلاً . فلما كان البَرْقُ (أعنى التلغراف) تهيَّأ له أن يَحمِلَ نَقرَ النَّاقِر إلى آلاف الأميال . فلما كانت المسرّة (أعنى التليفون) سافرتْ أحاديثُ الناسِ كذلك مُبينةً واضحةَ اللَّفظ . على أنه لا يتهيَّأ الاستماعُ إليها إلاّ لواحدٍ أو لآحاد .

ويَأذَن الله باللاَّسلـكى ، وقِوامُهُ ، كما تعلمون ، إشاعةُ الأصواتِ فى الأثير . ولِمَنْ شاء بهذه الأَداة التى بين أيديكم الآن ، استَمع فى حدود المسافة التى يَبلغُها جُهدُ المَصْدَر ، وهو المحطةُ التى تتولّى الإذاعةَ من جهة ، وجُهد الاداة التى تتلقّاها من جهة أخرى .

بهذا أصبح أثرُ (الرّديو) فى باب الإذاعة أشبهَ ما يكون بأثر المطبعة . غير أن ذلك يَتَّصل بالآذان ، وهذا يتعلَّق بالأعيان ، والجامعُ بينهما واحدٌ على كل حال ! فكلاهما يَستخرِج من الشيء المحدود ما لا يَحصُره عدٌّ ، ولا يُحيط به حَدٌّ !

فمهما يُفسَحْ بين يدى الخطيب أو المغنِّى ، ومهما يُؤتَ أحدهما من قوة الصَّوت وجهارته ، فإنه ليس ببالغٍ من الأسماع إلا بِضعةَ الآلاف على أوسع تقدير .

أمّا (الرّديو) فيستطيع أن يُبلّغ آذانَ الملايين فى شِعاب الأرض المختلفة دونَ مُطاولة جهد ولا تجشُّم عَناء !

سيداتى ، سادتى :

ليس (الرّديو) أداةَ لهوٍ فحسب ؛ على أن شأنه فى هذا الباب جليل . ومن الفُضول أن أُحدّثكم عن شىء تَستمتِعون به وتَطرَبون عليه أكثرَ لياليكم إذا لم يكن فى لياليكم جميعاً . ولكننى أُلفتكم إلى شىء واحد : ذلكم بأن هذا (الرّديو) قد اعتَمدَ ناحيةً من نواحى (الأَرِستقراطية) ، وإن شئتم قلتم ناحية من نواحى الأَثَرة الإنسانيّة ، فحطَّمها تحطيماً . ولقد أدركتُ العصرَ الذى لم يكن يُؤذَن فيه لصُغرَى الطبقات ، بل لبعضِ وُسْطاها فى سماع المرحوم عبده الحمولى وأضرابه إلاّ بخَوض المشقّات واقتحام الأهوال . فلقد كان يقف بأبواب السُّرادِقات فى أعراس عِليَة القوم غِلاظ الجُند فى أيديهم غلاظُ الهِرَاوات[1] ، فما يتهيّأ لمستمعٍ مسكينٍ أن يَدنوَ لِينشُر أذنَه إلاّ مُشِق[2] بالعصَا العَشْرَ والعشرين ، وهو يَصيح فى ظاهرِ السُّرادِق آهٍ آه . ووالله ما أدرى أيتأوّه الرجلُ من لذّة النّغم ، أم من حُرقَة الألم ؟

والآنَ ، وبفضل هذا (الرّديو) تيسّر لكلّ إنسان أن يَسمع أعلامَ المغنِّيَات وأقطاب المغنِّين فى أقطار الأرض، وهو وادعٌ فى كِسر بيته . فإذا أعوزه (الرّديو) استَمَع فى المقهَى ، وإلاّ فعلى ظَهرِ الطّوارِ متّسَعٌ للجميع !

سيداتى ، سادتى :

قلت لكم إن (الرّديو) ليس أداة لهوٍ فحسب . والواقع أنه كذلك وَسيلةٌ نافذةٌ أبلغَ النُّفوذ لِبثّ العلومِ والفنونِ والآداب، ونشرِ ألوان الثّقافات على العموم،

---

(١) الهراوة بكسر الهاء : العصا الضخمة (٢) مشقه : ضربه

وكلٌّ أولئك من شأنه أن يرفع من مستوى الجماهير ، حتى ليُزيل كثيراً من الفروق الثّقافيّة بين الطبقات

هذا إلى أنهم لو تجاوزوا به المدن إلى القرى لرفّهوا الفلاّحين المساكين وسلّوا عنهم ، وخففوا من آثار كدّهم فى يومهم الأطول . إلى ما يُغذّون به من ألوان التعليم والتّثقيف ، والإرشاد إلى كل ما هو نافعٌ فيما يتّصل بصحّتهم ، وزروعهم ، وتربية بنيهم ، وتدبير أموالهم ، وغير ذلك من أسبابهم . وموافاتهم بما يعنيهم من أنباء بلادهم وسائر بلاد العالم

ولا تنسوا بعدَ ذلك أن (الرّديو) سيكون من العوامل البعيدة الأثر فى التقريب بين الثقافات العالميَّة ، وتقارُض بعض الفنون بين الأُمم المختلفة من غير عُسر ولا تجشُّم عَناء

ولقد كنا وما زلنا ، فى الموسيقى بوجه خاصّ ، نأخذ ولا نُعطى . وإنى لأرجو أن يُضاعِف أولو الشأن من قوّة هذه المحطة العظيمة ، حتى يتكافأ الأخذُ والعَطاء بفضل حُذّاق الموسيقيين المصريين ، فلا نعيش عِيالاً على غيرنا أبدَ الآبدين !

*
* *

هنالك مزيةٌ أُخرى جَليلةٌ (للرّديو) اسمحوا لى بأن أفخَر وأتَتايه بأننى — بفضل الله — أولُ من استكشفها ، وما كان ليُفكّر فيها من قَبلى إنسان : إن المغنّىَ إذا جَلَس للناس فنشَز عليه النغَم ، والخطيبَ إذا تراءى للجماهير فأَخطأه التوفيقُ والتوتْ عليه الكلِم ، كان شأنُه بين حالَين أحلاهُما مُرّ ، وأيسرُهما عُسر : فإمّا أن ينفضُّوا عنه بسلام ، وإمّا أن يَثبُتوا فيُسمِعوه مُوجِعات الكلام . أما وهو قائم بين يَدَى المِذياع ، فإنه لا يَرى ما يُصنَع له ، ولا يَسمع ما يقال فيه . وعلى هذا فإننى أُسامحكم يا سادتى من كل قلبى فى كلِّ ما قلتم الليلةَ وفى كلِّ ما صَنعتم . وأسأل اللهَ المغفرةَ لى ولكم !

مجـــــدولين*

أخى السيد الجليل :

هل لك إلى أن تُعيرنى قلمك ساعةً واحدةً ، فأصفَ به تلك (الروايةَ) الرائعةَ التى أدّيتها إلى أبناء العرَب ، فإنه ليس حقيقاً بوصفِ براعةِ « مجدولين » إلاّ معرِّب « مجدولين » !

قرأتُ كتباً وأقاصيصَ لأعيانِ الـكتّاب والمؤلّفين متقدّميهم ومَن تأخّر منهم ، وليس شىءٌ منها يَقلّ عن « مجدولين » غرابةَ حوادث ، وقوةَ خَيال ، وصحةَ معان ، ونصاحةَ أُسلوب ، ورشاقةَ لفظ ، وصفاء ديباجة . فلم تُثِر من شجونى ، ولم تَنَل من شُئونى بعضَ ما نالت (روايتُـك) . فعَمرَكَ اللهَ كيف صَنعتَ حتى برَعْتَ هؤلاء جميعاً ، و بلغتَ من نفوس القارئين ما تَثلّمت دونَه كلُّ أولئك الأقلام ؟ !

إنى محدثُك الحديثَ وأنت به أخبر ! لقد كان ظنُّ كثيرٍ باللغة أنها لا تَنبسِطُ إلاّ لما يَتحرّكُ فى أذهانهم ، وما تجول به أفكارُهم ، وما تناله حواسُّهم . وحسبُهم بهذا القدْر الذى تستقيم به أمورُهم ، وتنتظِم به معايشُهم ، وتتّسق لهم به أسبابُ اجتماعهم فى هذه الحياة

أما تلك المعانى التى تَعتلِج فى قراراتِ النفوس ، وتترَقرَق فى أطواءِ القلوب ،

---

* كان الـكاتب القدير المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى قد صقل رواية « مجدولين » المترجمة عن الفرنسية ، وجلاها فى عربية بديعة ، فنشر الـكاتب هذا التقريظ فى جريدة الأهرام فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٧

وتَضطرم فى حنايا الضُّلوع ، فهيهاتَ أنْ يَنتظِمها الكلام ، أو تَشْكَّها أَسَلاتُ الأَقلام !

تلك المعانى التى يَبعثُها فى نفس الفتَى مَرآى الشمس إذا برزَت من خِدرِها ، والوردة إذا خرجَت من كِمّها ، والبدر إذا تألّق فى كَبِد السَّماء ، والآل إذا تَرقرق على مَتن الصحراء ، والبرق إذا لَمع ، والسَّحاب إذا هَمَع ، والحمام إذا سَجَع ، والعَبير إذا سَطَع ، والزَّهر إذا طَلَّه الندَى ، فأَقبل النسيمُ يَحمِل إليك منه عَرفَ الشذا ، والجوزاء إذا تبدَّت فى عِقد مؤتلِف النِّظام ، والحسناء إذا افترَّت عن مِثل حبِّ الغَمام — وما إلى هذا من ألوان المعانى وفنون الأَحساس التى يُدركها أولئك الذين صَفَت طباعُهم ، ورَهُفت مشاعرُهم ، فى حال عشقهم وصَبوتِهم ، وفى سعادتِهم أو فى شِقوتِهم ، وفى مِراحهم ولهوِهم ، أو فى حزنِهم وشَجوِهم

لقد عَيَّت لُغةُ الناس بأداء كل ذلك وانخذلَت دونه . وتقدَّم للتعبير عنه ما تراه من فُتور النَّظرة ، وانهمار العَبْرة ، وانعقاد ما بين العينين ، وانبساط الأسارير ، وتَربُّد الوجه ، واحمرار الوَجنة ، وانتقاع اللون ، وما تَسمعه من نَفثَة مصدور ، وأنَّة مَهجور ، وآهة عان ، وزفرة غيران . ومثْل هذا مما يدعوه أصحاب المنطق بالدلالة الطبيعية

هذا ظنُّ الناس باللغة ؛ و بخاصَّة لغة العرب ، حتى أُخرجتَ لهم « مجدولين » فإذا قلمٌ لم يَتعذَّر عليه معنى ، ولا تَحرَّج عليه مَذهب من مذاهب الكلام ؛ وكأنى به وهو يَتدسَّس فى القلوب تَدسُّساً ، فلا يزال يَتعطَّف حتى يَبلغ منها مجامعَ الإحساس . فما طَلب فى صميمها معنًى إلا أصابه ، ولا أراغَ فى قَرارها عاطفةً إلا شكَّها ، ثم استلَّها فجَلاها فى « مجدولين » ، بلسانٍ عربىٍّ مبين !

فإذا بَهرَتْ قرّاءك « مجدولين » فلأنهم يسمعون فيها أحاديثَ عواطفهم ،

ويَرون فى أثناء سطورها عُصارةَ قُلوبهم ؛ فما يدرى أحدُهم إذا اطَّرَدَ فى قراءتها : أهو فى حديث نفسه أم أنه يَتلو قَصَص غيره فى كِتاب ؟ !

ذاك ، أيها السيد ، سِرُّ رَوعتى و إعجابى . ولئن سَقَطت إلى الكتاب هَناتٌ قليلةٌ لا تَطمئنّ إليها قوانين اللغة ، فحسبُك أنك أتيتَ فيها بما قُطَّت دونه أناملُ كثيرٍ من الكتّاب ، على تطاول الأزمان والأحقاب ! !

إنى أُهنئك يا أخى ، وأُهنئُ هذه الأُمّة . فلقد كانت « مجدولين » فتحاً جديداً للغة العرب

إفـلاس* !

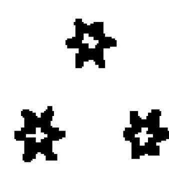
لا أكذب القُرّاء الخبرَ ، فلقد اجتمعتُ اليومَ لأكتب (حديث رمضان) فإذا بى مُفلِس لا أُصيبُ زاداً ، ولا أجد لشأنى عُدَّةً ولا عَتاداً . ولست أعنى الإفلاسَ من المال، فهذا شيء قد أزمَن وطال ثَوَاؤُه ، حتى نَزَل منّا ، والحمد لله ، منازل العادة ، بحيث لو فارقَنَا لالتمسناه وتفقّدناه ، ووجدنا له من الشوق والحنين ، ما لا يجد فى وحدته مالك الحزين[1] . ورحمة الله على المتنبى حين يقول :

خُلقتُ أَلُوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شَيبى مُوجَعَ القلبِ باكيا !

وبهذا ارتقينا ، بفضل الله تعالى ، عن مرتبة الرِّياضة على الصَّبر ، إلى مقابلة المكروه بالحمد والشكر . فبتنا خيراً من كُثَيِّر عَزَّةَ حين يقول :

فقلتُ لهـــا ياعَزُّ كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنَت يوماً لها النفسُ ذلَّتِ

فليس الإفلاسُ المَعنِيُّ إذن إفلاسَ مال ، ولكنه إفلاسُ مقال !



لقد فَضَحنى النهار ، وعلىّ أن أكتب (للجهاد) حديثَ رمضان . وأنبعث إلى مكتبى فأستوِى له ، وأبسُطُ القِرطاسَ بين يدىّ ، وأشْرَعُ اليراعَ ثم أهوِى به ، فإذا هو يتعصَّى علىّ ويركبُ رأسَه ، ويَشرُد تارةً إلى اليمين وأُخرى إلى اليسار ، ما يُكَفُّ له جِماحٌ ولا يُطامَن مِن نِفار !

يا ويلتا ! ماذا أكتب (للجهاد) اليومَ وكيف أقول ؟ . اللهم لا شىء !

---

* نشرت فى جريدة الجهاد الصادرة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ، فى يوميات تحت عنوان (أحاديث رمضان)

(١) مالك الحزين : طائر بحرى

أترى الأرض كلها قد أقفرت من موضوع يكتب كاتب فيه ، ولو بالإصابة من أطرافه ومس حوافيه ؟ اللهم لا !

و إنى لأبسط العزم وأشده ، وأذكى الذهن وأحده . وأمد الفكر وأثنيه ، وأنشره ثم أطويه . وأتصعد به إلى السماء ، ثم أغوص به فى جوف الدأماء[1] ، فلا يجذينى ولا قطرة ماء !

ثم إنى لأرمى بالقلم وأتطاير عن مكتبى ، وأنفر إلى حديقتى الصغيرة ، فأتفقد أشجارها ، وأتوسم أزهارها . وأهرول من ها هنا ومن ها هنا ، لعل خاطراً يعترينى فأصيب به كلاماً . فإن ظفرت ، بعد هذا بشىء ، فظفر القابض على المزقة من الفىء[2] !

ثم أعود فأستوى إلى مكتبى فأستندى ذهنى فلا يندى ، وأروضه على القول فلا يطيع ولا يرضى . وأستبينه فلا يبين ، وأستعطفه فلا يرق ولا يلين . وأستمنحه فلا يمنح ، وأستعطيه فلا يعطى ولا ينفح . و إنى لأهز القلم هزة الكمى[3] ساعة يخرج للنزال ، ويبرز لقراع الأبطال ، فإذا هو يتعايا فى يدى ويتثاقل ، و إذا هو يتراخى ويتزايل . و إذا بى أراه قد تفلل من غير حرب ، وتثلم من غير طعن ولا ضرب !

و يلى عليك وو يلى منك يا هذا القلم !

هذا ميزان النهار قد اعتدل ، وهذا البريد يتهيأ للسفر . فإن لم أرسل على جناحه حديثى (للجهاد) فبأى وجه أطالع القراء من غدى ؟ إذن فلأبعث بهذه الشكوى العاجلة ، لعل فى معشر القارئين من يعذر الكاتب إذا ونى أو قصر ، ويرثى له إذا تعاصى عليه البيان وتعذر !

(١) الدأماء : البحر (٢) المزقة من الفىء : القطعة من الظل
(٣) الكمى : الشجاع أو لابس السلاح

فى الجمـــــال*

لا أعرِض لتَعريف الجَمال ، لأننى عاجِزٌ عن تَعريفه . وما الحاجةُ إلى ذلك وهو حاضرٌ فى كل نَفْس ، مَوصولٌ بكل حِسّ ، يستشعِره الإنسان ، كما يستشعِره الحيوان ؟

والجمالُ يَتجلَّى فى الإنسان ، وفى الحيَوَان ، وفى النّبات ، وفى المـاء ، وفى كواكب السَّماء ، وفى الجبل الأشمّ ، وفى الصَّخر الأَصمّ ؛ بل إنه لَيتَجَلَّى على مَتن الصحراء الموحِشة ، ما تَبِضُّ[1] من المـاء بقَطْرة ، ولا تتفرّج من النبات عن زَهْرة . فالجمالُ ماثلٌ فى كلِّ خَلْق من خَلْق الله لو تفقّده المتأملون !

وفى كلِّ شىء له آيةٌ تَدُل على أنه الواحِـدُ

و إذا كان القَدَر قد جَرَى على أهل هذه الأرض بألوان المشاقّ والمتاعب ، وأنواع الرّزايا والمصائب ؛ فقد سوّى اللهُ الجمالَ فى كلّ شىء و يسّره لكل طالب ، وهيَّأه لكل حاسّة ؛ حتى إذا حزَب[2] الناسَ الأمرُ تفرّجوا[3] بالجمال ، و إذا اعتراهم المـكروهُ عاذُوا به ، فكان لهم فيه خيرُ العزاء ، وكان لهم منه نِعْم الجزاء

هذه الشمسُ تصحو بِسُحْرة[4] من رُقادها ، وتتثاءب وتتمطَّى ، وتأخذ زينتَها لتطلُع على الأرض ، وهى لا تَتبدَّى للافُق قبل أن ترسِل من أشعّتها رُسلاً خِفافاً يكشِفون لها وجهَ الطريق ، حتى إذا رأَوا أن جيوشَ الظلام تركب مناكبه ، وتسُدّ مسالكه ، فتحيَّروا بينها ولم يجدوا لها مَدْفَعا ، استنجدوها فأنجدتهم من

* نشرت بجريدة المساء التى صدرت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠

(١) بض المـاء : سال قليلا قليلا (٢) حزبه الويل والغم : أصابه واشتد عليه

(٣) تفرج الرجل من الكرب : تخلص منه (٤) السحرة بالضم : ماقبل انصداع الفجر

أشعتها برُسل، ويقوم النزّال، ويستحرُّ القتال. وكلما قدِم من ضَوء النهار مَدَد انقبضت أجنحةُ الليل، وكلما أقبلَت من جيوش الشمس نجدة، انحازت بين يديها جيوشُ الظلام، حتى إذا هى شمّرت ذيلَها وولت، وكُسِىَ أديمُ الأرض بذلك الضَّوء اللّين الرقيق، بَدا من الشمس حاجبٌ لعلها تَستوثِق به من أمْن الطريق، ثم جعلت تتثاقل فى مطلعها وتتجنّى، وتتهادَى فى مشرقها وتتأنّى، والطيورُ تلاغيها بترجيعها وشَدْوها، والدوابُّ تحيّيها بوثبها وعَدْوها، إلى أن تركب فى فُلكها، وتستوى على عرش مُلكها. ولا تزال عامّةَ نهارها تُصدر توقيعاتِها فى حياة هذا العالم: فيا ضَوء أنِر للخَلق سُبلهم حتى يستطيعوا أن يسعَوا فى مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله، ويا أرضُ أنضجى بَذْرك ليزكُوَ زرعُه، ويَبسُق[1] فرعُه، ويطيبَ للآكلين ثمرُه ويَنعُه[2]؛ ويا سُحب جُودى بالأمطار، لتُخصِبَ الأوديةُ وتحتفَل بالعذْبِ السائغ الأنهار

ولا تزال فى جهدها ونَصَبها حتى تعلوَ بها السنّ، فتترقرق صُفرة الأصيل، فى ذلك الخد الأَسيل[3]. ويُبدِّلُ جلالُ الشيخوخة من رونق الشباب، وتُصرِّف نَضْرةُ اللُّجين بالعَسجَد المذاب. وماذا تراه يُجدِى فى نضارة السنّ أو يُغنِى عن بَضاضَة الإهاب؟

ثم تَمشى متثاقلةً إلى خِدْرها، لتتوارَى عن العُيون خلفَ سِتْرها، وهى تعتمد من شُعاعها على عكازة، كأنها شيخةٌ أجهدها طولُ السُّرَى فى مَفَازة، حتى إذا حاذت الأفق، جعلت تتدلّى وراءه رويداً رويداً، كأنها تتزوّد ليومها من العالم بآخر نظرة، أو لتنفُث من شعاعها المهزول ما أجنت على الصبا من لَوعة وحَسرة، حتى يَغشاها الذُّبول، ويُدركها الأُفول، مُخلِّفة وراءها فُلولاً من جيشها الأحمر،

---

(١) بسق الزرع: طال (٢) الينع: الذى طاب وأدرك من الثمر

(٣) الأسيل: المستوى الأملس

ما تفتأ تجتاحُها جيوش الظلام . وكذلك الأيام دُوَلٌ وسبحان من تفرّد بالدوام !

*
* *

وهذا القمرُ يَبدو لك أولَ الشهر خيطاً دقيقاً ، ثم يبدو لك فى ثانيه كحاجب الأشْيَب ، ثم يَستوِى قَوساً ، والنجومُ تحفُّ به وتدلِّلُه ، وتَسهر عليه فى سُقمه وتُعلِّله . ولله دَرُّ ابنِ المعتزّ إذ يُشبِّهُ الهلالَ بقوله :

انظُرْ إلى حُسْنِ هِلالٍ بَدَا ... يَهتِكُ من أنوارِهِ الحِنْدِسا(١)
كمِنْجَلٍ قد صِيغَ من فِضَّةٍ ... يَحْصِدُ من زَهرِ الدُّجَى نَرْجِسا

وقــــوله :

أَهْلاً بِفِطْرٍ قد أنافَ هِلاَلُه ... الآن فاغْدُ على المُدامِ وَبكِّرِ
وانْظُرْ إليه كزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ ... قد أثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ من عنْبَرِ

ولا يزال ينمو ويُدرِكُ حتى يَستوىَ بَدراً كاملاً ، والنجومُ حافَّةٌ من حَوْله منها الثابت ومنها الرَّجْراج ، ومنها ما أثبتته الهيبةُ ومنها ما ألهَبَه الوجدُ فهو دائم الاختلاج . وكيف لا تحتفِل النجومُ لابنِ الشمس ووليّ عهدها ، وحارس ليلها وقائد جُندِها فى بُعْدِها ؟

والقمرُ فى أول مَولِده ، وفى طفولته ، وفى فُتُوَّته ، وشباب سنِّه ، وفى شيخوخته وهَرَمه ؛ رفيقُ النفس ، رقيقُ الطَّبع ، كريمُ الجوهر ، حُلوُ الشَّمائل ؛ ما حضَر إلا أهْنأَ وهَدَى ، وما غاب إلا أضَلَّ وأشقى ؛ وما تألَّق إلا كسا الأرضَ بُرداً من لُجَيْن ، إذا أنكرته اليدُ فهيهاتَ أن تنكِره العَيْن !

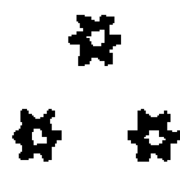
*
* *

وهذا الرَّوضُ الأريض : لقد انسَرَح بانُه ، وفرَعَت(٢) فروعه وبَسقَت

(١) الحندس بكسر الحاء والدال : الظلام (٢) فرع الشىء : طال

أغصانُه ، وزَكَت أوراقُه ، وَرفّ(١) بوَحْي النسيم نَبْتُه وجَلجَل اصطفاقُه ، وأشرقَت أنوارُه ، وتَطلَّعت من أكمامِها أزهارُه . فعاجلها الندى ، وانتثر من قَطره بين طيَّاتها مثلُ عيون الدُّبى(٢) . والجداولُ من دونها تَتعطَّف وتَتمايلُ ، والبلابلُ على أفنانها تَتشادَى وتَتزاجل(٣)

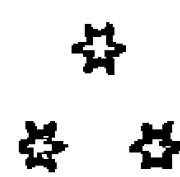
وهكذا ، فإنك واجدٌ الجمالَ في الكثير مما جَلَت الطبيعة ، وفى الكثير مما جالت به يدُ الإنسان



على أن الناسَ ليسُوا على حظٍّ سواء فى الشعور بالجمال ومبلغ إصابة اللَّذة منه ، كما أن مظاهرَ الجمال المختلفة ليست عندَ الناس بدرجةٍ سواء : فمن الناس من لا يَروعه إلاّ منظرُ البحر قد اشتدّ التجاجُه(٤) ، وتدافعت أمواجُه . ومنهم من لا يَبْهرَه إلاَّ الزَّهر قد اختلفت ألوانهُ ، ورُصِّعت به بَانهُ ، وسطَعت بالعبير أردانهُ. ولله در ابن المعتزّ حين يقول :

وعلى الأرضِ اخضِرَارٌ   واحمِرَارٌ واصفِرَار
فكأنَّ الروضَ وَشْيٌ   بالَغت فيه التِّجار
نَقشُه آسٌ ونِسْرِ   ينٌ وَوَرْدٌ وبَهَار

ومن الناس من لا تخلِبُه إلاَّ الموسيقى ، فهى تُريه من آى الجمال بأُذْنِهِ ، ما لا يستطيع أن يَشهَد بعينِه ، وهى تُشفّه حتى يحسبَ نَفْسَهُ صفحةً من الماء ، وتُرِقّه حتى يخالَها قطعة من الهواء ، وتُخفِّفه حتى يُحلِّق فى جَوّ السماء . وما هو أنَّ حَلْقاً صَلْصَل أو أن وَتَرًا تَنغَّم ، ولكنَّ نَفساً صبَتْ وقلباً تكلَّم !

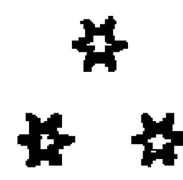


(١) الرفيف : صوت النبت إذا طاف به النسيم (٢) الدبى بضم الدال المشددة وفتح الباء : الجراد (٣) الزجل : صوت الحمام (٤) التجاج البحر : اضطرابه

ولقد قلتُ لك إن الناسَ ليسوا على حظٍّ سواء فى إدراك الجمال ومَبلغ إصابة اللّذة منه . والواقعُ أنهم فى هذا متفاوتون كلّ التفاوت : فمنهم من يسمو فيه إلى حدّ الافتتان والانبهار ، ومنهم من يُسِفُّ إلى حدّ جمود الحسّ وصَمَمَ الشُّعور . و بين هذين الحدَّين مراتبُ بعضُها فوقَ بعض .

هذا وليست نغْمةُ الشُّعور بالجمال مقصورةً على إصابة اللّذة وتنعيم النفْس ، واستراحتها من العَناء ، وتفرُّجها من ألوان الهموم ؛ بل إن لها وراء ذلك أثراً بعيداً فى ترقيق الحسّ ، وتهذيب النفس ، والمطامَنَة من جِماحها ، ورياضتها على العَطف والرَّحمة وحبّ الخير ، كما أن لها أثراً بعيداً فى تهذيب المدارك ، وتعويدها دِقَّةَ الملاحظة ، وشدّةَ التفطّنِ لما يُعيِي على كثيرٍ من الناس .

و إدراكُ الجمال ، مهما يجفّ الطّبع ، يمكن أن يُكتَسب بالتنبيه وترديد الملاحظة ، ولفت الشعور بإظهار الإعجاب والافتتان ؛ حتى إذا أوْمض فى نفس الناشئ برقُه ، نبَض له عِرقُه ، فأَقبل على التماسِه ، فإذا أصابه جعل يتأملُه ، و يُجرِّدُ له الحاسّةَ التى تُدركه . ولا يزال هذا دأْبه وَوَكْدَه حتى تَستوىَ له مَلَكةُ إدراك الجمال . وله منها بعد ذلك ما شاء اللهُ من اللّذة ومن تهذيب النفس أيضاً .



ولقد كان أكثرُنا ، نحن المصريين ، إلى زمن قريب ، لا يُعنَى بهذه المَلَكة ولا يحتفل لها ، بل إن بعضنا قد كان يَعُدّ تفقُّد كثيرٍ من مظاهر الجمال ضرباً من العبَث ، بل ضرباً من الفتُون .

و إن أنْسَ لا أنسَ أننى من نحو خمسَ عشرةَ سنةً كنت أسايِر بعضَ كِبار الأعيان فى بعض الرياض ؛ فلَمَحَ على عِذَار الطريق وَردة كُمَيْتَة(١) ، فسرعان

(١) بضم الكاف وفتح الميم : المشوبة حمرتها بالسواد

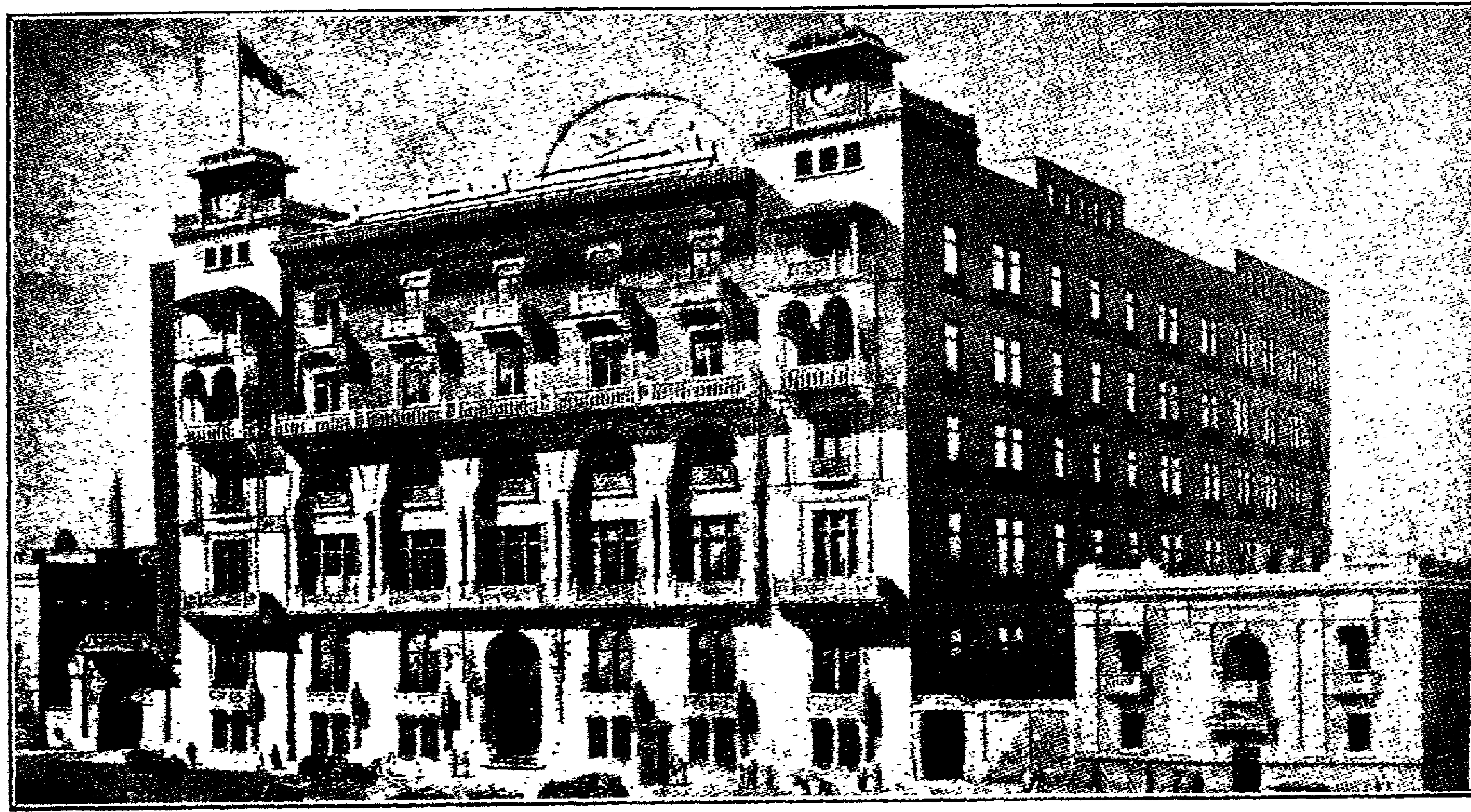
ما أهوى اليها بيده ، فغطى رأسها ببعض راحته ، وزر أصابعه على أصلها ، وما زال يشدُّ عليها حتى فرّق شملها ، وجعل يحدّثني وهو يعرك ورقها بيديه ، حتى إذا فراها وبراها ألقى بعظامها على جانب الطريق . ولا والله ما ألقى عليها فى أثناء هذا الصيال نظرة واحدة ، حتى خُيِّل إلىّ أن بين الرجل و بين هذه الوردة المسكينة و ترًا قديماً ! ! !

وأعرف رجلاً من الأغنياء المتعلِّمين المُترَفين أيضاً ، ما خلت دارهُ من سيّارة أو اثنتين أو ثلاث لحاجاته وحاجات أولاده . أفتدرى كيف يقضى هذا الغنىُّ المتعلمُ المترَف كلّ أوقات فراغه ؟

صدّقنى إذا قلت لك إنه يقضيها فى مُقهًى يُحاذيه (موقف) مركبات يَسطع فى الجوّ من رَجيع خَيلها ما يَسطَع ، وهو جاثمٌ على النرْد (الطاولة) ما يَريم ولا يتحلحَل ، ولا يَملّ ولا يَضجَر . إن علمتُ قطّ أنه عدَل بسيارته يوماً إلى الجزيرة ليمتّع الطّرفَ بجمال مناظرها ، ويُريحَ[1] الأنفَ بشذا أزاهرها . أو أنه صَعِد إلى أصل الأهرام ، ليجمَع الى الرّوعة بفخامة البناء ، التمتعَ بطيب الهواء !

ولستُ ، بالضرورة ، أسوق هذين مثلاً لجميع المصريين . وعلى كل حال ، فإن نهضتَنا الجليلةَ تناولت فيما تناولت فُنونَ الجمال ؛ فلقد وثبَت الأُمةُ لمعاضدَتها ، وانبعثَت الحكومةُ لمساعدتها . وتظاهرَت الهممُ من كلّ جانب على تربيَة الأذواق ، و إرهاف المشاعر . فمن تشييد المعاهد للفُنون الجميلة على اختلاف ألوانها ، إلى إنشاء متاحفَ جديدة ، وزيادة العناية بالمتاحف القديمة ، إلى الإكثار من إقامة المعارض لمُفتَنّ الصّوَر ، وأُخرى لمبتدَع الزّهَر . يَتبارَى فيها المتبارُون ، ويتسابق إليها المتسابقون . وسيكون لهذا كلّه أثرُه فى تربية الأذواق ، وفى تهذيب الأخلاق . فإن من البَطَر على فضل الله ألاّ يُقبل الناسُ على إمتاع النفوس بهذه النعمة العظيمة التى لا تُكلِّف الناس من المال أو الجهد ، إن هى كلّفتْهم ، إلا يَسيراً !

(١) أراحه الرائحة : جعله يشمها



واجهة بنك مصر بالقاهرة

بنـــك مصر*

لا أحاوِل فى هذا المقال ، وهَيهاتَ لى ، أن أجلوَ عليك صورةً كاملةً لتلك البَنيَّة العزيزة التى أقامها (بنك مصر) فى شارع عِماد الدِّين لتكون مثوًى له ، ولما يَرفِده من الشركات فى القاهرة . وكيف للُّغة بأن تتناول ما لم يجْرِ على مثال ، ولا وقَعت عليه العيونُ ولا تَعلَّق به الخيَال ؟

ولقد كنا نقرأ أقاصيص (ألف ليلة وليلة) وما افتَنَّتْ فيه من الأَخيِلة فى وصف مجالس الملوك إنْسِهم وجِنِّهم ، وكنا نقرأ ما جاءت به السِّيَرُ من حديث قصر غُمْدان، و إيوان كِسرَى أنو شِرْوان ، وما حوَى الخَوَرْنَق والسَّدِير، وما أبدعَ الفاطميونَ فى القَصر الكبير والقَصر الصَّغير — كنا نقرأ هذا فلا نتمثَّل إلاَّ رُكاماً من الذَّهب والفِضَّة واليواقيت واللآلئ وغيرها من ثمين الجوهر؛ ثم يُقبل البنَّاؤون فيدُوفون[1] هذا بهذا بعد أن يُعالجوه بالطِّيب والعنبر ، وبالمسك الأذفر[2] ، حتى إذا عَلِكت[3] هذه الطينة ، رَفعوا منها قصراً ذا شُرُفاتٍ وكُوًى ومقاصيرَ و إيواناتٍ وأَبْهاء !

هذا الذى تَنفُضُه عليك أخيِلَةُ القُصَّاص من صِفَة القصور الدَّاثِرة ، فى الأَعْصر الغابِرة . فإذا أنت انبعثتَ من النوم ، وشخَصتَ على قدميك ، لا على جَناحَىْ خيالك ، إلى تلك البِنيَّة التى أقامها (بنك مصر) ، فَسرعان ما تتفقَّد نفسَك ،

---

* كان الكاتب دعى لمشاهدة هذا البناء عقب الفراغ منه ، فكتب له هذا الوصف وأرسله فى جريدة السياسة فى ٦ يونية سنة ١٩٢٧

(١) دافه : أذابه فى الماء وخلطه (٢) الذى اشتدت رائحته (٣) صارت لزجة

وتجسّ مواقع حسّك ، لتعرف : أهَبَبْتَ من النّوم أم عقد على جفنك المنام ، وكان حقاً ما ترى أم كان حُلماً من الأحلام !

لم تقُم فى هذا البِناء كله لبِنَةٌ واحدةٌ من الذّهب ولا أُخرى من الفِضّة ، ولا رُصِّعت جُدُره بشىء من الدرّ ولا من اللؤلؤ . ولا ضُمِّخت[1] حوائطه بالعنبر ، ولا تدلّت من سُقوفه معاليقُ الجوهر ، على أنه يتملّأك من روعةٍ وجمال ، لم تستشعرهما دهرَك فى حقيقةٍ ولا خَيال . إنما هو المالُ والعلمُ والذّوق ، تظاهرَ ثلاثتُها على إخراج هذا البِدع كله . وما شاء الله كان !

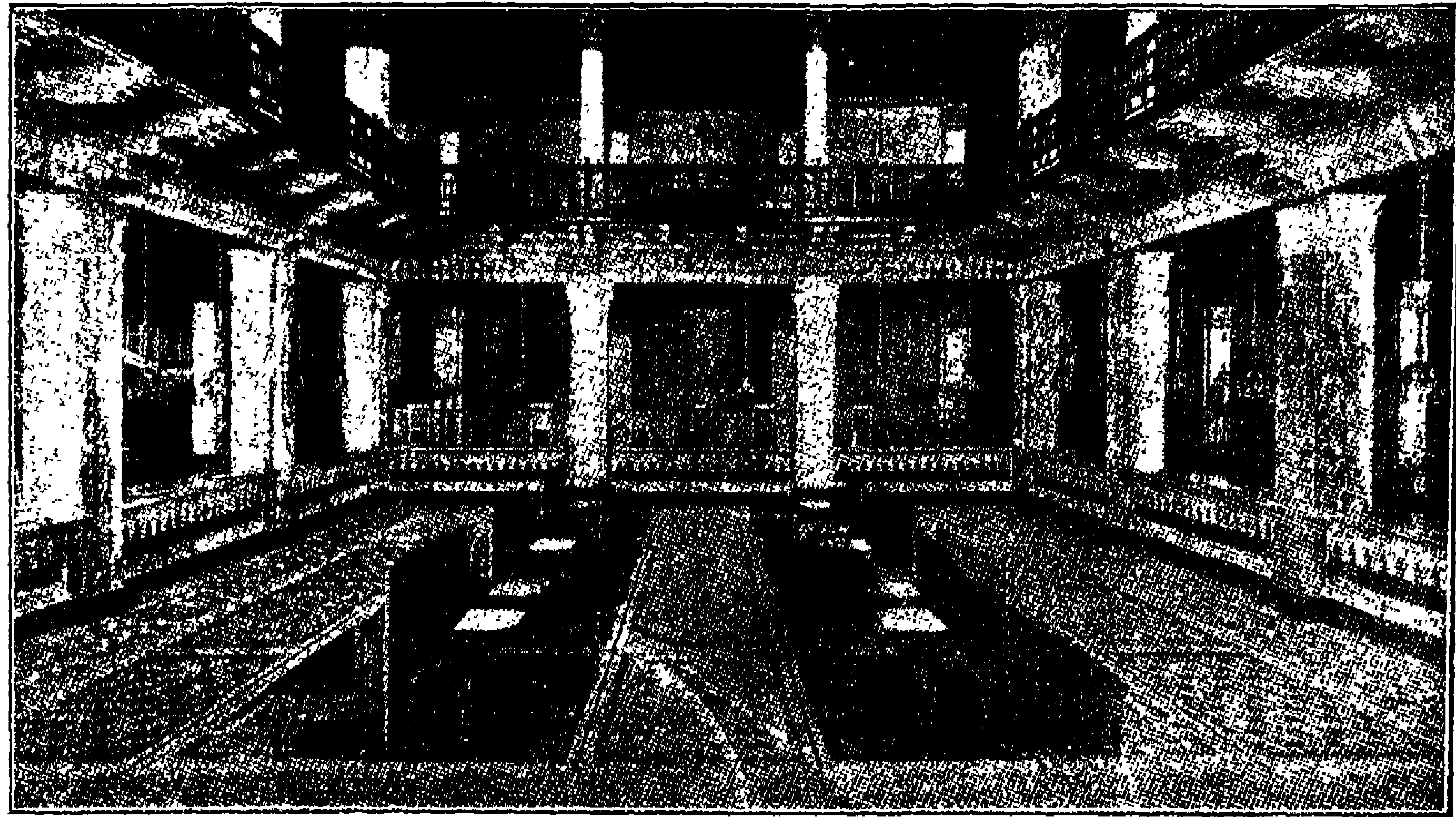
دَعْك من ظاهر هذا البناء ، فلقد تجِد له فى البَنِيّات أشباهاً ؛ على أنه أوْفى على الغاية من الفَخامة والإحسان . وخُذ بنا فى جَوفه ، فهنالك يَنفغِر الفم ، ويَتحيّر النظر ، ويَتعلّق النفَس ، ويَزيغ اللُّبُّ فى هذه الفِتنة .

يَستقبِلك من الباب مِصراعان عظيمان طُبعا من الصُّفْر ، قد جالت فيهما أمهرُ الأيدى بأدقّ النّقش وأحسن التّزيين ؛ فتراه كُلّه قائماً على أشكالٍ هندسيةٍ بديعةٍ مفرّغة فى مَتْن المِصراع تفريغاً . فإذا جُزْته وصرتَ إلى المدخل فرفعتَ النظرَ إلى حوائطه كاد ينزلق عليها ، لشدّة ملوستها ، انزلاقاً ؛ فقد كسيَت بالمرمر الأملَد من الصَّبْح[2] واللؤلؤانىّ ؛ تَتمشّى فى صفحتها جداولُ دقيقةٌ من الخضرة ؛ حتى إنها لَتُمثِّل لك عروساً صقلت عارضَها حتى تمّ إشراقُه ؛ وشفّ جِلدُه فبانت من دونه أعراقُه .

وتجد بين يديك سُلّماً أىّ سُلّم ! لقد اقتلعه (بنك مصر) صخَراً من جبال أُسوان من ذلك (الجرانيت) الأحمر الصُّلْب الذى تراه فى تماثيل قدماء المصريين ، ثم بَعث به الى ألمانيا فنُحِتَ وسُوِّىَ دَرَجاً عظيما مؤطّراً بأبدع النقوش .

---

(١) ضمخ ثوبه بالطيب : نضحه به (٢) الصبح بفتح الصاد وسكون الباء : لون يضرب إلى الحمرة



بنك مصر بالقاهرة — صالة البنك

فإذا أنت ارتفعتَ على هذا السُّلَّم حتى غايته ، فأنت فى بَهْوٍ عظيم يَترامَى فيه النظر . فيكون أول ما ينطق به اللسان : ما شاء الله كان ! وأول ما يجول به الخاطر النَّدامة على أن ليس لك فى كلِّ جارحةٍ عين ، ففى كل شِبْرٍ بِدع ، وفى كل فِترٍ إحسان ! وهيهاتَ أن تَحُطَّ بصرَكَ على موضعٍ فى سقف هذا البَهْو ، أو فى أرضه أو فى جُدُره أو عَمَده وكل ما قام فيه ، فهانَ عليك أن تحوِّله عنه من جمال ومن إبداع !

وقد سُقِفَت حواشى البَهْو الأربع بسُقوف تَعتمِد على جُدره من جهة ، وعلى عَمَدٍ من المرمر الأصفر مربَّعةٍ من الجهة الأخرى . وأما بُهرَته[1] فقد ارتفع سقفُها إلى مَدَى الطَّبَق الثانى . وهذا السقْف كلُّه مؤلَّف من قِطعٍ مربَّعة من البلُّور افتنَّت فيها أيدى الصُّنَّاع بمختلف الأشكال فى مختلف الألوان . فخرج من هذا الاختلاف ، أحسنُ الاتِّساق وأحكمُ الائتلاف . فإذا رفعتَ النظر إليها خُيِّل إليك أنك فى يوم عُرسٍ تبارت فيه الكواعبُ الحِسان ، من كل مَكحولة العين وكل مَخضوبة البَنَان

وإن كنت قد غَشِيتَ دارَ الآثار العربية فاقتطفتَ نظرةً من تلك القناديل الزُّجاجيَّة التى خلَّفها الفنُّ الفاطمىّ ، فإنك ولا شك ستتخيَّل أن هذه القناديل قد صِيغَت من الجوهر قُرطاً ، وأُرسلت فى هذا السقف حِليةً ونُظِمَت فيه سِمْطاً

وأما تلك السُّقوفُ التى قامت على حواشى البَهْو ، فقد قَسَّموها مربَّعاتٍ أيضاً ، بحيث يتناهى عَرضُ كلِّ مربَّع إلى مَدَى ما بينَ العمودَين ، وأجْرَوها كلَّها على الطراز العربىّ ؛ فحدِّث ما شئتَ بلسان الذَّوقِ الجديد عن جمال الفنِّ القديم . فبعد أن أبدعَت الصُّناع فى حفرها وتَكريشها طَوعاً للأشكال الهندسيَّة

---

(١) البهرة من الزمان والمكان : وسطه

المقسومة لها ، عادت عليها تُكَفِّتها بالفضة ، وتُموِّهها بالذهب ، وتُشَجِّرها بأزهى الألوان ، من أخضرَ ناضرٍ وأصفرَ فاقعٍ وأحمرَ قانٍ

والعجب أن لكلّ رُقعةٍ من رِقاع تلك السقوف رسماً خاصًّا ، تجرى فيه ألوانٌ خاصة ، فى أشكالٍ خاصّة ؛ وكلُّها مع هذا عربىّ . لا تدرى أيها أجملُ وأحسن ، وأيها أبدعُ وأفتن . فلا يَسَعك أن تنصرف عنها إلا وأنت تُردِّد قولَ شوقى :

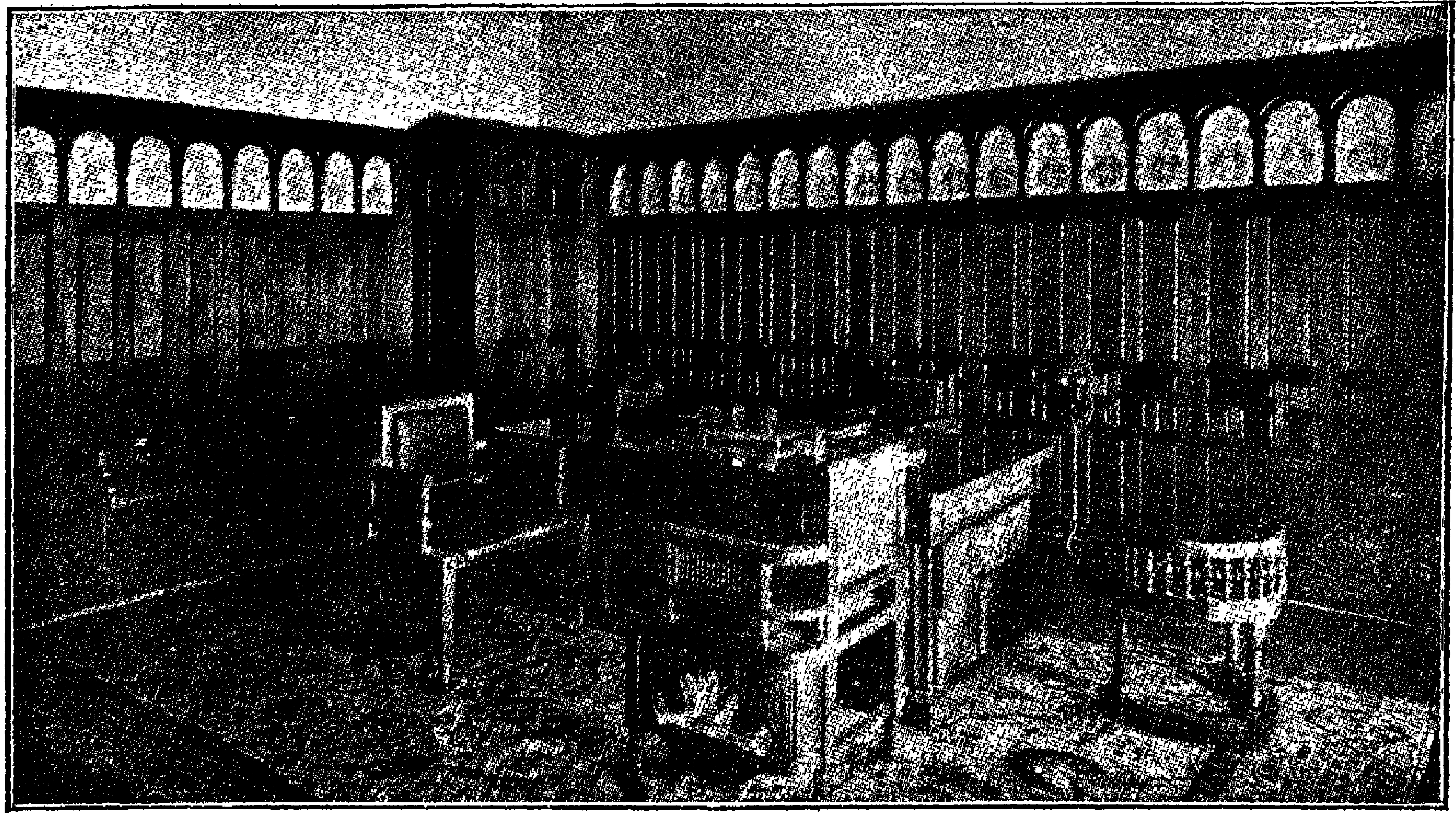
حَمراء أو صفراء إنَّ كرِيمَها كالغيدِ كلُّ مليحَة بمَـذاق

وقد فُصِل بين حواشى البَهو و بين بُهرته بحِجازٍ قائمٍ على مُسامَتته تلك العَمَد يَرتفع إلى نصف القامة ، ليقوم عمالُ المصرِف من خلفه على قضاء حاجات الناس دونَ أن يُداخِلوهم . وهذا الحِجازُ كلُّه قد اتخذوه من المرمر الأبيض ، نُحِتَ على صورة أنصاف دوائر بارزة متجاورة ، تقوم أطرافُها على سُوقٍ من المرمر الأسود . وقد بُسطَت عليها مناضدُ صفيقةٌ من المرمر الأصفر ، مُدَّت فى داخل حواشى البهو مِهاداً لأسباب عمال المصرِف ، ومُتَّكأً لأذرِعة المتمثِّلين إليهم من الناس .

ومن فوق هذا السقف طَبَقٌ آخرُ ، له ما للأول من دِقّة فنٍّ وروعةِ جمال . وهو يُشرف على بُهرة الإيوان من أقطارها الأربعة . وترى من فوق كل عمود من تلك العَمَد المربّعة التى حدّثتك عنها عموداً أُسطوانيًّا قد أحسنت يدُ النحّات فى قاعدته وهامته أيَّما إحسان ، وأفتنَّت فى نقشها أيَّما افتنان

أما أرضُ الإيوان فإذا لم يحدِّثك أحدٌ أنها من الرخام ، فقد خلتها فُرشت بجلود الصِّلال[1] ، أو بالوشى الصَّنْعانى نُمْنِم بمثل أكارِع النِّمال . أو أنها لَوحٌ كُفِّتَ بالذهب ، أو كأسٌ عَلاَها الحَبَب[2] !

(١) الصلال جمع صل بكسر الصاد ، وهى الحية (٢) الحبب بفتح الحاء والباء : الفقاقيع التى تعلو الماء أو الخمر

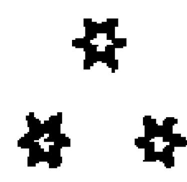


بنك مصر بالقاهرة — غرفة أحد حضرات مديرى البنك

وقد انتهى إلىّ أنهم جاءوا لها بقِطَع الرخام من إيطاليا وألمانيا وأمريكا ، حتى يَتِمّ لهم ما قدّروا لها من جمالٍ يتحيّر فيه الطّرْف ، وبدعٍ يعزّ على كلّ وصف .

وهناك غُرفٌ ومقاصير ، وهناك دهاليزُ وسَلاليم ، وهناك فُرُشٌ ممهودة ، وأرائكُ ممدودة ، ونُرَيّاتٌ مَنضودة . وهناك طُرَفٌ وتُحَف ، وأشياء وأشياء إذا وَعَتها الأفهام ، فهيهاتَ أن تَتعلّق بوصفها الأقلام .

والعجيبُ أنك واجدٌ فى كل رُقعة لوناً من الحسن يُخالف ما تجد فى أُختها ، ونوعاً من الفنّ غير ما ترى فى التى تَليها ؛ على أنك واجدٌ بينها كلّها أوثقَ الاتصال وأحكم الاتّساق . وكذلك شاءت عبقريةُ الفنّان العظيم الأستاذ أنطوان لا شاك بك[1] أن تُلحّن فى هذه البنِيّة دَوراً موسيقيًّا بارعاً ، مهما يتنوّع فى ضروبه ويتلوّن فى أنغامه ، فكلها مؤتلِفٌ فى قراره مُتّسق فى مقامه !



هذا ما واتانى به القلَم فى مَدخَل هذا البناء الجديد وبَهوه العظيم . أما باقى تفصيلاته ، ووصف سائر طبقاته ، فإنى أدع هذا لغيرى ، فقد جُهِدَ بى وجَفّ فى يدى القلم .

(١) هو المهندس المقتدر الذى وضع تصميم بناء البنك ، وأشرف على العمارة ، كما تولى أمر الزخرفة

الباب الثالث

فى التراجم

والتعزيات والمراثى

رشدى باشا*

لستُ أُحاول فى مثل هذه العُجالة أن أَجلو على القارئ الكريم صورةً كاملةً لرشدى باشا ، أو أن أُترجِم لهُ ترجمةً وافية تُكافئ عظمتَهُ العظيمة . فإن من فتنة الدَّعوَى أن تظنّ أن مثل حسين رشدى كلّه يجتمع فى مقالة أو فى مقالات إنما هو من أولئك الأفذاذ المعدودين — إن لم يكن فى العالم كلّه ففى الشرق على الأقلّ — فما أَخلقَ رشدى بأن يَتجرّد لبحثهِ وتحقيق عَبقريتهِ نفرٌ من علماء النفس والتاريخ ، وإذن لخرجوا منهُ كلّ يوم بعظيم

سأتحدّث فى هذا المقال عن رشدى لا حديثَ باحثٍ محلّل يَردُّ غرائزه القوية إلى مناجمها من قضايا علم النفس ، ويَصِل كلّ ناحية من نواحيه بأَترابها فى عظماء الناس ، ولكننى أَروِى عنه حوادثَ متفرقةً شهِدتها كلَّها بنفسى أو تروّيتها عن الثّقات الذين لا يترقرَق الشكُّ حولَ خبرهم ، ولربما عرضتُ لبعضها بشىء من التّحليل . على أننى فى ذلك أتحرّى أن أجمع كلّ حادثةٍ إلى أختها ، وأضمّ كل واقعةٍ إلى ما يُشابهها ، حتى يمكن أن يَتّسِق من هذه الأَمشاج هيكلٌ لرشدى باشا إذا كان ضئيلاً فهو صادقٌ على كل حال

---

* نشرت فى مجلة المقتطف (مايو سنة ١٩٢٨)



المرحوم حسين رشدى باشا

نشأته :

رشـــدى باشا ، على أنهُ نَشأَ فى الحَسَب ، لأنهُ ابنُ محمود باشا ابن دبُّوس أُوغلى ، أو طَبُّوزْ زادَه الـكبير ، إلا أنهُ لم يَنعِم فى الغنى ، ولم يَتقلَّبْ فى صَدْر شبابهِ فى النِّعمة التى يَتقلَّب فيهـا من تَسَلسَلوا من مثل بيتهِ . ولقد شَخَصتُ إليه يوماً مع المرحوم والدى لزيارتهِ وهو رئيسُ وزارة ، فجَعَل يَتحدَّث بنعمة الله عليه ، وكان مما قال : إنهُ كان طالباً فى باريس فمات والدهُ المرحوم محمود باشا دبوس أُوغلى ، و إذا كلُّ ما تركه لبنيه الخمسةِ (ثلاثة أولاد و بنتين) ستمائة (بنتو) خرج حُسينٌ منها بمائة وخمسين كانت هى كلُّ مادَّتهِ لطلب العلم وللعيش الجاهد فى باريس . فانظر كيف عانى هذا الشَّابُّ فى صَدْر العمر ، وكيف كافح الشَّهوةَ والأيامَ ليعيش فى باريس بمائة وخمسين (بنتو) لا يَرفِدها إلاَّ نصيبٌ كمصَّة الوَشَل[1] فى وقف دبوس أُوغلى الـكبير . ويَصبر على هذا العيش و يروض النفسَ لهُ فى طُمأنينة ورضاً ، حتى يَظفرَ (بالدكتوراه) و يسبِق فى الامتحان لداتِه جميعاً !

ولقد كان رشـدى باشا لعوباً طروباً ، فكان يُمضى عامَهُ الأَطْوَلَ فى لهو الشَّباب وفى عَبَث الشباب ، قلَّ أن يَحتجِز[2] لمذاكرة الدُّروس ومراجعة الأساتيذ ، حتى إذا كان بينهُ وبينَ أوان الامتحان شهران، مضى إلى الحلاَّق فسألهُ أن يَحلِق رأسَهُ كلَّهُ بالموسَى لكيلا يجرُؤ على أن يتدلى بَعدَها فى الشَّوارع أو يَغشَى الملاهى العامَّة . وانقبَض هذين الشَّهرين فى غُرفتهِ مُكبًّا على الدَّرس جاهداً فيه ، حتى إذا تَمثَّل إلى ممتحنيهِ لم يَقنَع بأن يكون طالباً ناجحاً فحسب، بل لقد تعمَّد مُطاولتَهم والولوغَ بالتَّفنيد فى قضاياهم ، وانتهى بهم أو انتهوا بهِ إلى الحُـكم بأن هذا التلميذَ غيرُ ما خَبَروا من التَّلاميذ ، وأن هذا الذَّكاء غيرُ ما عَرَفوا من الذَّكاء !

---

(١) الوشل بفتح الواو والشين : الماء القليل . (٢) احتجز : اجتمع .

فقد خرج لنا من هذا أن رشدى من يوم تدلّى إلى الدنيا تدلّى إليها بخلّتين لا يدَ فيهما لتعليم ولا تدريب. إنما هما من صنعة الله الذى يقول للشىء: كن فيكون، وهما: العَزمُ الجبار، والذَّكاء العجيب!

ذكاؤه وفطنته:

لقد كان هذا الرجلُ إلى يوم قُبِض إلى رضوان الله متسعِّرَ الذهن، مُلتهِبَ الذكاء، ولعله كان أذكى من نَبَهوا من المصريين جميعاً. وكان حادَّ الفِطنة مُرهَف الحِسّ. ولقد كنتَ تطرح عليهِ القضية تحتاج إلى تسريح النظر وإجالة الفكر، وترتيب مقدمات القياس بحيث تتمكّن كلٌّ واحدة منها فى موضعها المقسوم حتى يتهيَّأ تحلب النتيجة المنطقيَّة، وكلُّ هذا يَحتاج إلى جهد، وكلُّ هذا يحتاج إلى بَسطةٍ فى الزمن ومُطاوَلةٍ فى التفكير والتدبير، ولكن رشدى كان يَنحطُّ بك إلى النتيجة الصحيحة السليمة قبل أن تُتمَّ لفظَك وتفرُغَ من قولك.

ولقد مضيت يوماً أتفرّج فى «الجمعيَّة التشريعيَّة» وكان رشدى، على ما أذكر، وزيراً للحقانية، وطرِح على الجمعية مشروعُ قانون وضعتهُ الحكومة لرَدم البِرَك، وكان الكلامُ فى جزاءِ من يَتخلَّف من الأهْلين عن رَدم بركةَ تدخل فى مِلكهِ، وفى أن الحكومة فى هذه الحال تَردِمها بالقوّة عنه، وترجع بوجوه النفقات عليهِ؛ فانبعث المرحوم عبد اللطيف المكباتى بك وقال: فإذا كان للحكومة بركةٌ فتعذَّرت على رَدمها فحينئذٍ يحق للأهلين أيضاً . . . . فلم يَدَعْهُ رشدى يُتم تشريعه، بل لقد وَثَب من مجلسهِ وَثبةً عنيفةً، وصاح مِلءَ لهاته: هذه ثورة! . . . . فانتفض المجلسُ كلُّه انتفاضةً عنيفةً واحتجّ على الوزير، واقتضاهُ أن (يسحب) هذه الكلمة، كلمة: الثورة (فسحبها) وهو، ولا ريب، يعلم أن قولَهُ الحقّ، وأن القوم

لم يَلحَقوهُ ، أو أَدركوه ، ولكن لم يُريدوا أن يُسجَّل على جمعيتهم أنها تطلب الثورة ، (فسحَبها !) . ولست أشكّ فى أنهُ فعل مصانَعةً لسكينة القوم ، و إلاَّ فأَيةُ ثورة أشنعُ وأخبثُ من أن الحكومة إذا وَنَتْ فى عملٍ من أَعمالها نَفَّذ الأَهلون ذلك بالقوة عليها ، ورجَعوا عليها بما بَذَلوا فى ذلك من النفقات ؟ ! !

الواقع أن رشدى باشا كان رجلاً حديدَ الفِطنة ، فلم تَكن فِطنتهُ بأَيَّة حاجةٍ إلى أن تَتسكَّع على مقدّمات القياس فتَجُسَّ كلاً منها ، حتى إذا استوثقت من سلامته أقرّته فى موضعه ، ثم خلَصَت بعد كلّ هذا إلى النتيجة فاستخرجتها فى هَوَادةٍ ومطمئنٍّ أناة ؛ بل لقد كان يَمرُّ بذهنهِ على هذا كلِّه مرَّ البَرق الخاطف ، فيقبض على النتيجة الصحيحة فى أسرعَ من ردِّ الطَّرْف ، إذ أنت تحسبهُ يَذكو ذَكاءَ القرود ، لا يَلمَح في طريقه أو لا يُعنَى ، فى طريقه إلى النتيجة ، بوجوه الأسباب والعلل ، فى حين قد لَمَحها جميعاً وعُنِىَ بها جميعاً ، و بلغ المَدَى بذلك الذهن (الإكسبريس) الذى لا يقف على صغار المحطات ، على أنهُ حتماً يجوز بها فى سبيله جميعاً !

ولعل هذه حدَّةُ الذهن ، ولعل هذه صَولةُ العقل فى حسين رشدى قد حطَّت من شأنه عند كثير من أولئك الذين لم تَهبْهم الطبيعةُ ما وهبته، فكانوا أعجز عن أن يَطيروا فى الفهم مَطاره ، إذ هو بعدُ رجل عصبىٌّ جائشٌ سريعٌ لَمّاع الذهن ، تُقاوِلهُ فى الأمر فيقذفك بحجته على نحو ما يَصِل هو ، ويَدَعك لذهنك المطمئنّ المعتاد ، فلا يسعك ، وأنت بعضُ معذور ، إلا إن تظن بالرجل عَبَثاً ، هذا إذا لم تكن رزينَ الذِّهن فتحسب أن الرجل قد خَرِف وأهْتَر ! ! ![1]

---

(١) أهتر الرجل بصيغة البناء للفاعل : فقد عقله من الكبر أو الحزن أو المرض

عبقرية :

لقد كان رشدى باشا عبقريًّا بقدر ما يُمكن أن تَأْذَن به هذه الكلمة ، ولقد سلف عليك أنه كان فى صَدْر أيامه شابًّا لعوبًا يُعطِى شبابَه مَدَى أشَره ، فلم يكن كلُّ ما تهيأ لرشدى من العلم الفَحْل فى القانون ، بمختلف فنونه ، ابنَ التعليم ولا طولِ المراجعة وحفظِ القضايا المرسومة ، إنما كان ابنَ الاستعداد ، ابنَ العبقرية ، وفى النهاية ابنَ تلك اللطيفة الرُّوحانية التى يَهَبها الله المتخيَّرين من عباده ، فندركها فيهم لا نملِك لها تعليلاً ، ولا نستطيع لسببها تأويلاً . كان رشدى فى هذا البلد مَالِك القانون غيرَ مدافَع ، سلَّم له بهذا سعد ، وهو من تعرف شدةَ عقل ، وكفايةً لا يترامى إليها حدٌّ . وسلم له بها عدلى ، وعدلى إذا ذُكِر أَحضرَكَ المثل الأعلى لسلامة الفهم والبَصَر بالأمور ، والرأى النَّصيح تَتقطَّع من دونه جهود التفكير . وسلَّم له بهذا ثروت ، وإذا قلت ثروت قلت كلَّ بليغ فى الفضل وكلَّ عظيم . وسلم له بها من يَلِى هؤلاء علماً وبصيرةً وجلالةَ محلٍّ وشدةَ خَطَر . إذ رشدى ، فى الحق، لم يقرأ أكثرَ مما قرأ غيرُه ، ولم يَتوفَّر أبلغَ من سواه على الدَّرس والتحصيل، وما شاء الله كان !

ولقد أذكر أنه فى إحدى جلسات لجنة الدُّستور ، وكنت من سكرتيريها ، اقترحَ أحدُ الأعضاء مبدأً دُستوريًا لا يحضرنى موضوعه الآن ، فصدَّه رشدى فى عُنف، وقال : إن هذا مبدأٌ غيرُ مستقيم، ولا يمكن أن يؤذَن به فى قواعد دُستور . فقال ذلك العضو ، وهو من الأذكياء المتفقهين : ولكنه قد أُخذ به فى دستور كذا ، وسَمَّى دولة لعلها من تلك الدولات التى انصدعت عن روسيا ووضعت دَساتيرها بعد إذْ ضرب الفالجُ رشدى وصرفه عن درس القوانين . فأكد رشدى أنه ، وإن لم يرَ ذلك الدستور ، يُقرِّر أن ما زعمه العضو لا يمكن أن يكون !

وتحاجّا ساعة ، ثم انتهيا إلى أن يأتي العُضوُ من غَدِه بنسخة ذلك الدُّستور . ولكنه فى اليوم الثانى إنما جاء معتذراً بأنه بعدَ إذ راجع المادة أدرك أن العجلة زَلَّت به أولَ الأمر عن تفهم الكلام . وهكذا كان مُخُّ رشدى نيِّراً سليماً مطبوعًا على القانون وللقانون ، صادِقَ الحكم فيما قرأ وما لم يقرأ من أحكامه ومبادئه

قوة حجته :

كان رشدى باشا من أشدِّ خلق الله حجةً وأمضاهم قولا ، يحكم له بهذا كلُّ من أُوتى فِطنةً يَلمَح بها ما يَتَراءى لذهنه أثناء التَّدليل من فُنون الأسباب والعلل . على أنه قد اجتمع عليه إلى تلك الحالة « العصبية » ضعفُ المادة فى لغة العرب ، فلم يكن لبيانه إذا تكلم بهذه اللغة أو كتب من الوضوح ما يَتوافى لجلالة معانيه ، و يُواتِى براعةَ تدليله . ولكنه برغم هذا كان إذا كتب ارتفعت قوةُ معانيه بعباراته العربية ، حتى يَجىء منها أحياناً بالرائع الجزْل الذى لا يَتهيَّأ لمن له مثل حظِّه القليل من لغة العرب والتفقه فى أدبها

و إنِى لأذكر أنه اختلف يوماً مع بعض المصْطَفَيْن الأعلام من أعضاء لجنة الدُّستور على مسألة ، لا محل لإيرادها الآن ، فذهب إلى رأى أزعجهم ، وبعثهم بالإنكار والاحتجاج ، وكلما سألهم أن يَصبِروا حتى يُدلىَ إليهم بحجَّته ، صاحوا فى وجهه ، ودافعوه بغليظ الكلام . وأخيراً وثب من مجلسه ، وأهاب بهم بأعلى ما اتَّسعت له لهاتُه : « يا حضرات السادة : استمعوا لى حتى أفرُغ من حُجَّتى ، ثم فنِّدوها بكل ما عندكم من حُجَّة ودليل » ثم اطمأن قليلاً ، وعاد فقال فى رِفقٍ ولينِ إلقاء : « ولكنكم لن تستطيعوا » ! فسكت القوم وتكلَّم رشدى ثم تكلَّم ، فما هو والله إلا أن راح يَلعَب بالألباب لعباً ، وما هو إلا أن راح يستعرض كلَّ أدلتهم وما حصَّلوا من حُجَج ، فيشدّ وَثاقها ، ثم يُلقيها بين يديه واحدةً بعد واحدة ،

والقومُ ذاهلون عن مَصيرهم بمـا تَداخلَهم من العَجَب ومن الطَّرب ، حتى إذا ذابت آيتُهم تحتَ لسانِهِ كما يَذوب الثَّلج في اليوم القائظ ، أقبل على معارضيه في تُؤَدةٍ واطمئنان ، وقال لهم : إذن فتكلموا . فما هى إلاّ رؤوسٌ مُنغَضةٌ وأفواه مَفغُورة ، ثم تصفيق يَرتفع إلى السماء من إعجاب ومن افتتان !!!

ولقد حدَثت أحداثُ الإسكندرية فى مايو سنة ١٩٢١ ورشـدى مع عدلى فى لندن يفاوضان كيرزن فى المسألة المصرية . وكانت السلطةُ العسكريةُ قد مَلَكت الأمرَ كلَّهُ عن الحكومة المصرية ، وتولّت هى التحقيقَ بقوة الأحكام العُرفيَّة التى كانت مبسوطةً يومئذٍ على البلاد . فلما انتهت المفاوضاتُ إلى الكلام فى حماية الأجانب ، وعارض المفاوضون المصريون فى أن يكون هذا إلى انجلترا ، دفع اللورد كيرزن إليهم بتحقيق السلطة العسكرية فى حوادث الإسكندرية ، وما دَمَغ المصريين ظلماً بألوان الوحشيّة ، وما أضاف إليهم من أمور تَقشَعرُّ منها الجلود . فتناول رشدى باشا هذا التحقيقَ ويداه صِفرٌ من كلّ شىء . لأن التحقيق، كما قلت لك ، استقلَّت به السلطةُ العسكرية ، فأبَتْ على رشدى عزيمتُه ، وأبَتْ عليه وطنيتُه ، وأبَتْ عليه عَبقريَّتُه إلا أن يُكِبَّ ليلتَهُ كلَّها على هذا التحقيق ، والله يعلم ماذا بذل من مُخِّه ، والله يعلم ماذا هَرَاق من ذكائه ، حتى اتّسق له فى الصباح تقريرٌ يَعصف بهذا التحقيق عَصفاً ، ويُشهِده على نفسِهِ بالبُطْل ، وشدة الحمل على المصريين ، ثم مَضَى به إلى لورد كيرزن فألقاه إليه ، وما إن قرأهُ حتى سأل أن يَتقاصَّ الطرفان . وكذلك أَخْلَت حوادثُ الإسكندرية الطريق !

نعم ، لا يعرف أحدٌ ما بذل رشدى ليلتَئذٍ من عزم وذكاء ، ليَدفَع عن وطنه كلَّ هذا البلاء . ولكنّ كثيرين يعلمون أنه بذل الصحة ، أو على الصحيح بذل الحياة ، لأنه لم يَدُر عليه يومٌ أو يومان حتى ضَربهُ الفالِج فأبطلهُ حيناً ، ثم أتى فى النّهاية على حياتِهِ العزيزة الغالية

شجاعته :

ولقد كان رشدى رجلاً شجاعًا كلَّ الشُّجاع ، يجهر بكلِّ ما يعتقد ، واقعاً كلامُه حيث وقع ، لا يبالى فى ذاك شيئاً ولا يبالى فيه أحداً ؛ و إن امرأً كرشدى قوىّ العزم ، عظيم النزاهة ، وافر الإخلاص ، شديد التمكن من النفس ؛ لا يجد أيةَ حاجة لأن يُرائى الناس أو يماريهم ويتحرَّف لهم ، بل هو كلُّ حقيقٍ بأن يُعِدَّ كتفَه لاحتمال كلِّ ما يحمله سعيُه من التَّبِعات

ولست أريد أن أَعرِض لشأنه فى أعقاب سنة ١٩١٤ ، فذلك ، كما أشار رئيسُ مجلس النوَّاب ووكيلُ مجلس الشُّيوخ فى تأبينه ، من حق المستقبَل يحكم فيهِ بعد أن يطالع ما طاف به من الظروف ، وما اتَّكأ عليه من الأَسانيد . إلا أننى فى هذا الباب لا أنسى أن رشدى كان شجاعًا فى احتمال تَبِعَة ما وقع على يديه ، وكان له ، بالطبع ، رأى فيه إن خيراً و إن شرًّا . وهو على أنه ، كما علمتُ ، قد راجع الكثيرين من أصدقائه فى الأمر فأقروهُ وأجازوه ، إلا أن شجاعتَه أَبَت عليهِ فى مَعرِض الجِدال أن يشرك معهُ فى تَبِعة الأمر أحداً ، بل لقد مَضَى بها وحدَه ، محتسباً إنصافه عند التاريخ وحدَه

لقد تعلم أنه سيَّر سفينة الحكم طَوَال مدة الحرب ، ولقد تعلم ما حاق بمصر أيامَ الحرب من هَولٍ وشدَّة ، ولقد تعلم ما كان للسلطة العسكرية من صَولة وقوة . وغداً ستعلم ما كان لرشدى باشا من مواقف يَكُفُّ بها العادِيَات عن المصريين لا يَقِفها إلا الرَّجلُ الشجاع

وجاءت الهدنة العامَّة ، وأَعدَّ الجبَّارُ «السر برونيات» عُدَّته لالتهام مصر ، وأخرَج مشروعَه الذى يَسُلّ به الحكم من أيدى المصريين سَلاًّ . وخاف الناسُ وانقبضوا فى أَكْسار دورهم من خوفٍ ورَهبة ، و برز له رشدى بتقريره الوطنىّ الخالد على

وجه الدّهر ، وسَرعان ما كسَّره به تكسيراً ، وكان ذلك أولَ أذانٍ بالفَورة المصرية . حتى إذا تَعذَّر عليه الإنجليز ودَلُّوا بقوتهم ؛ أضرب ، وهو رئيس الوزارة ، عن الحكم أشهراً ، فكان صنيعُه حُذْوَةً للموظّفين فأضربوا جميعاً ، وكان إضرابُهم أبلغَ مَظهرٍ للنهضة المصرية . ولقد سمعتُ منه ، رحمه الله ، أن الحبال قد فُتِلت لرقبته مرتين ، فما أبَه ولا بالَى فى سبيل وطنه . وكذلك يكون الرجل النَّدْب الشُّجاع

ومما يُذكر له فى هذا الباب أنه كان فى مفاوضات سنة ١٩٢١ ، وجَرَى الكلامُ فى الاحتلال الانجليزىّ ، وأصرّ المفاوضون المصريون على طلب الجلاء . فقال لهم اللورد كرزن فى شيء من التهكم : و إذا سحبنا عسكرَنا من بلادكم ، ألا يجوز أن تحتلَّها اليونانُ فى اليوم الثانى ؟ ! فانتفَض رشدى انتفاضةَ شديدةً ، وأجابه من فوْره : لا تَنسَ يا لورد أن أسلافك حين حاولوا غزْو مصر ألقاهم هؤلاء المصريون فى البحر ، وكان ذلك بقيادة جَدِّى أنا ! (يريد رحمه الله موقعة رشيد) ، فوجم اللورد كرزن ووجم الحاضرون جميعاً . و بعد سكوتٍ طويلٍ أو قصير صَرَف اللورد الحديثَ إلى شأنٍ آخر !

نزاهته :

تقلَّب رشدى فى مناصب الحكم حتى صارت إليه رياسةُ الوزارة ، وحتى طَرَح القَدَرُ بين يديه يوماً أمرَ مصر كلّها . وكان طَوَال زمن الحرب كلَّ شيء ، فى الجهة المصرية على الأقل ؛ فما التمس قَطُّ لنفسه ولا لأحدٍ ممن يَلوذون به مَغنَماً من أىِّ نوعٍ كان . وعزيزٌ علىَّ أن أنوّه بشرف رشدى وأن أشيد بنُبل نفسهِ ، فإن مثله لَأَجلّ من أن تلحق ذمتَه التهم . ولقد وافقتُهُ مرة فى مكتب المرحوم أحمد الأزهرى بك من كبار موظفى مصلحة الأملاك ، وهو يسأله فى تأجيل دَينٍ عليه

للمصلحة ، ذهب عنى قدرُه بالضّبط . على أنه على كلِّ حالٍ يَضطرب بين الستّمائة جنيه والثّمانمائة ، ثم التفت إلى بعض الحاضرين وقال فى مرارةٍ أردفها بضَحِكةٍ مصنوعة : يقولون إنى بعتُ مصر بثلاثة ملايين ، فهلا دفعوا منها لمصلحة الأملاك هذا المبلغ وأخذوا لأنفسهم الباقى ؟

عطفه وبره :

كان رشدى نبيل الإحساس ، بالغاً من طيبة القلب مبلغاً لا يكاد يلحَقه فيه إنسان . فما أصاب عانياً أو مُدنفاً أو امرَأً تَغيَّر له الزمنُ إلا أحسّ بأنه هو المسئولُ عما ضربتهُ به الأيام . وكثيراً ما تَنتضِح عَيناً هذا الرجل الشّجاع بالدّمع إذا رأى مَكلُوماً فى جسمه ، أو ممتحَناً فى أسباب حياته . أمّا ماله وأمّا جاهُه العريضُ فذلك كله نَهْبٌ مقسّمٌ بين العافين من الناس . ولو كان رشدى باشا يَملِك كلّ ما فى الدنيا من مالٍ لخرج عنهُ لطالبيهِ فى سَماحةٍ وارتياح . ولقد تقَسّم وقتَه ، فى أخرَيات سنيه ، بين أن يفرق على الناس كل ما احتوتهُ محفظته ، و بين أن يَطُوف بهم الدواوين يَشفَع لهم فى قضاء الحاجات . ولقد أسرف فى هذا حتى ابتُذلتْ شفاعتهُ أو كادت تُبتذَل عند الحُكام لشدّة إفراطِهِ فى الرجاء ، على جلالة محلّهِ لديهم ، وسموّ قدره عندهم ، وحتى خرج من الدنيا صِفراً إلاّ من الشّرَف ، و إلاّ من أعلَى الذكرى لأعلَى الرجال .

* * *

و بعد ، فلقد خَسِرتْ مصرُ من غير شكٍّ بموت رشدى باشا مجموعةً من المواهب جليلةً غالية ، و إذا كانت الأيام تُنْجِب لنا رجلاً فى علمِهِ ، أو فى عبقريّتهِ ، أو فى شجاعتهِ ، أو فى وطنيتهِ ، أو فى طيبة قلبِهِ ، أو فى نُبل أخلاقِهِ ، أو فى كرمِ يده ؛ فهيهاتَ أن تُنجب رجلاً جمع معاً كل هذه الخلال كما جمعها فقيدُنا العظيم ، و إن لم يكن ذلك على الله بعسير .

الشيخ على يوسف*

— ١ —

فى يوم ٢٥ أكتوبر من سنة ١٩١٣ والقلوبُ واجفة ، والأبصار زائغة ، ومَصايرُ الأمور تَتواثَب للأوهام فى صوَرٍ مبهمَةٍ غامضة ، تَضطرب بين اليأس كلِّه وبين الرجاء كلِّه ، والناسُ يتساءلون مُتهامسين من الخوف ومن الورَع : تُرى ماذا عسى أن يكون قَسْمُ مصرَ من هذه الحرب العامّة ، وماذا كتبت لها الأقدار ، فى صفحتى اللّيل والنّهار ؟

فى ذلك اليوم من تلك الأيام السُّود ، مات رجلٌ ليس كمثله فى مصر كثير ، رجلٌ إذا أحبه ناسٌ أشدَّ الحب ، فلأنه قوةٌ كبيرةٌ فى مصر . وإذا كرِهه ناسٌ أشدَّ الكُره ، فلأنه قوةٌ كبيرةٌ فى مصر . فالشيخ على يوسف ، على تفرُّق الأهواء فيه ، كان قوةً هائلةً فى هذه البلاد يَحسب الناسُ جميعاً لها كلَّ حساب .

ولقد كنتُ من الذين أبغضوا الشيخَ علياً أبعدَ البُغض ، ثم كنتُ من الذين يُحبُّونه أغلَى الحبّ ، ولا والله ما رأيتهُ فى حَالَىْ بغضى وحبى له إلاّ رجلاً عظيماً !

مات الشيخ على يوسف فى ذلك اليوم ، فما قامت الدُّنيا لموته كما كان يَنبغى أن تقوم ، ولا قَعَدَت الدُّنيا لموته كما كان يَنبغى أن تَقعُد ؛ بل لقد شُيِّع ودُفن كما يُشيَّع ويُدفَن أوساطُ الناس ، وكأن الناس لم يُشَيِّعوا فيه مَفخَرةً من مَفاخر مصر ، ولا أودَعوا الضريحَ كنزاً من كُنوزها الثِّمان !

لا أقول إنه الإهمالُ السَّيِّئ ، ولكن أقول إنه الظرفُ السَّىء ، ولا أريد المزيد

والآن تَسأل الشبابَ المثقَّفين المتعلِّمين عن الشيخ على يوسف ، وكيف كان

* نشرت فى مجلة الرسالة فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤

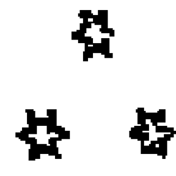


الصحفى الجليل المرحوم الشيخ على يوسف

خَطْبهُ فى البلاد من إحدَى وعشرينَ سنةً فقط ، فترى أقلَّهم من لا يعرف عنه كثيراً ، وترى أكثرَهم من لا يعرف عنه كثيراً ولا قليلاً !

أهكذا ، وبهذه السُّرعة السَّريعة ، تختفى سِيَرُ الرجال عندنا كما تختفى الصُّوَر إذا ساد الظلام ، أو كما تختفى أشباحُ الرُّؤَى ساعةَ الهُبوب من المنام ؟

و إننى لأُضيف الوزرَ فى هذا أيضاً على الظروف . والحمد لله الذى جعل لنا من هذه (الظروف) تُكأةً نَعتمِد عليها كلما غَشِيَتْنا غاشيةٌ من الإهمال ، أو طاف بنا طائفٌ من سيِّئ الأعمال !



ولقد قُلِّد الشيخُ عليٌّ مَنصِب مشيخة السَّجادة الوفائيّة ، فاستحق بهذا أن يُسمَّى السيد عليًّا ؛ وقلَّده الخليفةُ العثمانىُّ الرتبةَ الأولى من الصِّنف الثانى ، فاستحق بذلك أن يُدعى على بك أو على باشا يوسف ؛ ولكننى لا أُعبِّر عنه إلاَّ بالشيخ على يوسف . هذا الاسم الذى طالما رنَّ فى الآذان ، وتجاوبت به الأصْداء من كلِّ مكان : الشيخ على يوسف ! الشيخ على يوسف ! وحَسْبه بهذا لقباً ، بعد ما اعتز بنفسه حَسَباً ، وكرُم بالرّسول الأعظم نسباً

كان الشيخ على يوسف رجلاً عِصاميًّا بأوفَى معانى الكلمة . نَجَم فى (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا ، فى أُسرةٍ إذا كَرُم أصلها فقد رقَّت حالُها ؛ ولا تَنسَ أن المالَ هو كلُّ شىء فى هذا الزَّمان . وتعلّم القراءةَ والكتابةَ فى كتَّاب القَرية ، وحفِظَ القرآنَ الكريم . ثم انحدَر إلى بنى عديّ من أعمال مديرية أسيوط . فطلَب العلمَ هناك على الشيخ حسن الهوارى . ثم قَدِم الأزهر فطلب العلم فيه بِضع سنين

و إلى هنا كانت حياة الشيخ علىٍ حياةً عاديّةً بحتة ، فلم يَزِد خَطبهُ على مجاورٍ مغمورٍ فى ذلك الخِضرِم الزاخر بآلاف المجاورين

وتستشرِف نفسُ الفَتَى للأَدب . والأدبُ فى ذلك الوقت أن تقول شعراً مقفًى موزوناً . فإذا أَعْوَزَكَ العروض ، وعُمِّيت عليك أوزانُ الشِّعر ، فحسْبُك أن يكون المِصراعُ فى طول المِصراع . فإن زاد الكَلِمُ فى تصغير الكتابة وتدقيق الحروف متسَعٌ للجميع . وعلى شرط أن تَتَغزَّل فتتغزَّل كلما طلبْتَ مديحاً ، وتتغزَّل كلما أردت رثاء ، وتتغزل كلما ابتغيْتَ هِجاء . وكانت هذه ، وخاصَّةً فى البِيئة الأزهرية ، أهمَّ فُنون الشِّعر ، إن لم تكن جميعَ فنون الشعر !

وعلى هـذا قَرضَ الشعرَ المجاورُ على يوسف ، فذهب له بين المجاورين صِيتٌ وذِكْر

ولقد كان الأدبُ يُحمَد من المجاور عند أشياخه ، إلاّ أن يُسرِف فيه ، ويجرِّد له صَدراً كبيراً من وقته ، فإنهم كانوا يَكرهون ذلك منه ، لأنه فى الواقع يَشغَله ، بقدرٍ مّا ، عن توفير الذِّهن على الدَّرس والاستذكار ، ويَرَون هذا منه آيةً على (عدم الفتوح) والعياذُ بالله ! وحسبُه فى العام قصيدة يَمدح بها شيخَه يوم يختم الكتاب ، وقصيدة أو اثنتان يرثى بهما من يموت من عِلْية العلماء

وأسرف الشيخُ علىٌّ فى قَرْض الشِّعر ، فمدَحَ وَرَثَى ، وتغزَّل (بالطبع) وهَجَا ، حتى اتَّسق له من هذا النظم ما جَمعه بعدُ فى ديوانٍ كامل ، وبهذا أصبح مجاوراً ممتازاً وإن حقَّ عليه القول ، وتراءى له شَبحُ الهولِ !

إذن أصبح الشيخُ مجاوراً ممتازاً ، بين المجاورين ، بالأدب ، أو إن شئت قلت: لقد أَدركَتْه ، من الناحية الأزهريَّة ، حِرفَةُ الأدب

ولقد دعاه هذا إلى الاختلاف إلى مجالس الأدباء ، ومساهرَتهم ومسامرَتهم والتروِّى عنهم ، ثم إلى غِشْيان دور بعض العِلْية ممن كانوا يَجلسون لأهل العلم والفضل والأدب ، فيَتحاضرون ويَتذاكرون . وأَقبل الشيخُ عَلَى هذا الشأن بقدر ما أَدبَرَ عن الكَدِّ فى دروس الأزهر . ثم جعل يُرسل المقالاتِ المنثورةَ فى

الصحف والمجلات التى كانت قائمةً فى ذلك الوقت ، وكان يكتب أولَ الأمر على طِراز الكاتبين فى عصره : مقدمات طويلة تُمهّد بين يدَىْ كلِّ موضوع ولو لم تدْعُ إليها حاجةُ الكلام ، واحتفال للمحسِّنات البديعيَّة تُستكرَه استكراهاً ، ولو استهلَكَت الغرضَ المطلوب !

على أن من حسن حظِّ الشيخ علىّ أنه ابتدأ فى معالجة الكتابة فى الوقت الذى انبعثت فيه تلك النَّهضةُ البيانيَّةُ الفاخرة ، تلك النهضة التى نفخ فى ضِرامِها بالإرشاد والتنبيه السيدُ جمالُ الدِّين الأفغانىّ ، وبالفعل من الإنشاء والتعليم والتأليف الشيخُ حُسينٌ المرصفىّ . وللشيخ علىّ طبيعة ، وفيه فِطنةٌ قوية ، فجعل يدرِّب قلمه ويروضه على إرسال البيان سهلاً جَزْلاً خالياً من الاعتساف ، متطلِّقاً من تكاليف البديع

وفى هذا المقام يَجدُر بى أن أُنبِّه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان وجَودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقّهه فى أساليبها ، وبَصَرِه بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصَدْر صالح من بلاغات بُلَغائها ، إلى حسن ذَوق ورَهافة حسّ ، بحيث يَتهيَّأ له أن يَصوغ فكرتَه أَنْوَر صياغة ، ويُصوِّرها أبدع تصوير . بل إن ذلك لَيرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوالٌ نادرةٌ جداً ، إلى شِدَّة نفْس الكاتب وقوة رُوحه . فقد لا يكون الرجلُ وافرَ المحصول من مَتْن اللغة ، ولا هو على حظٍّ كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعْنِىِّ بتقصِّى مَنازع البلاغات ، ومع هذا لقد يرتفع بالبيان إلى ما تتقطَّع دونَه علائقُ الأقلام . ذلك لأن شدَّة نفسه ، وجَبَروت فكرته ، تأبى إلا أن تَسطُو بالكلام فتنتزع البيانَ انتزاعاً . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانىّ ، وهو غريبٌ عن العربية ، وقاسم بك أمين وهو شِبْه غريبٍ عنها ، أَبْيَنَ مثال على هذا الذى نقول . ولقد يَعجَبُ القارئ أشدَّ العَجَب إذا زعمتُ له أن المرحوم

حُسين رشدى باشا ، وكان رجلاً قلّ أن تطّرد على لسانه ثلاثُ كلماتٍ عربيةٍ متواليات ، لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دونه جُهدُ أعيان البيان!

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف ، على أنه تعلم فى الأزهر ، وقرأ طَرَفاً من كتب الأدب ، واستظهر صَدْراً من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها — لم يكن مَدِيناً فى بيانه لشىء من هذا ، بقدر ما كان مديناً لشدة رُوحه وسَطوة نفسه . و إنك لتقرأ له المقال يَخلبك و يروعك ، وتشعر أن أحداً لم يَنتهِ فى البيان مُنتهاه ؛ ثم تُقبل على صِيَغه تفتّشها و تَفرُزها . فلا تكاد تقع على شىء من هـذا النظم الذى يَتكافَّه صدورُ الكُتّاب . و بهذا أنشأ الرجلُ لنفسه أسلوباً ، أو على الصحيح لقد خَطَّ قلمهُ القوىُّ نَهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من مَنازع البلاغات

ولندع الآنَ بيانَ الشيخ على وأثرَه ، فلذلك موضعٌ آخرُ من هذا الحديث . ونعود إلى تاريخ الرجل فنقول : إنه ما كاد يستوى له ذلك القدْرُ من الأدب حتى أنشأ مَجلّةً دعاها (الآداب) . وهى ، و إن لم تكن شيئاً يُذكر بالقياس إلى المجلات الأدبية القائمة الآن ، لقد كانت شيئاً مذكوراً بالقياس إلى المجلات التى كانت قائمةً فى ذلك العهد ، وخاصّةً بعد إذ عَفّى الزمنُ على مجلة (رَوضة المدارس) التى كان يقوم على تحريرها و إجالة الأقلام بروائع البيان فيها صدورُ العلماء والشعراء والكُتّاب

المؤيد :

و إذا قلت « المؤيد » قلت شَطْر من تاريخ مصر محتفل بالأحداث العِظام

راع أهلَ الرأى فى مصر أن ليس لهـذه الأمة ، أعنى للمسلمين وهم كثرتُها الكثيرة ، صحيفةٌ تَتحدَّث عنها وتُدْلِى بحاجاتها ، وتُترجِم عن أمانيها ، وتَذُود عن حقوقها وكرامتها . و إن أمة ليس لها فى هذا الزمان صحيفة ، لهى أمة لا تحسُّ لنفسها

وجوداً . ولقد قوىَ الشعورُ بشدة الحاجة إلى صحيفةٍ وطنيةٍ إسلاميةٍ بعد إذ صدر المقطَّمُ صحيفةً تُظاهر الاحتلالَ الانجليزىّ ، وتُروِّج للسياسة الانجليزية فى هذه البلاد ، وتدفع فى صَدر الأمانى القومية ما اعترضتْ تلك السياسةَ فى يوم من الأيام . وهنا يَتقدَّم الشيخُ علىٌّ مع صاحبٍ له يُدعَى الشيخ أحمد ماضى ، فيُنشئان جريدةَ (المؤيد) يوميةً سياسيةً وطنيةً إسلامية . ثم لا يَلبثُ الشريكان أن يختلفا ، ولا يخرج أحدهما عن الشركة إلاّ على مال ، والمالُ فى يد الشيخ علىٍّ أقلُّ من القليل . وهنا تَحركَت أريَحِيَّةُ بعض كِبار المصريين ، فأدَّوا المالَ عن الشيخ إلى صاحبه . وهكذا خلص المؤيد للشيخ على يوسف . وكان للمرحوم سعد باشا زغلول فى هذا سعىٌ مشكور

وأذكر أنه لما أَتَى رحمه الله بمطبعةٍ جديدةٍ من طراز (الروتاتيف) وعقد لذلك حَفلاً جامعاً فى إدارة (المؤيد) ، خطب فى الجمع فأتى فى سيرة المؤيد على هذه الحادثة ، ونوّه بفضل سعد بك زغلول (المستشار بمحكمة الاستئناف) الذى أَبَى أن يسمع هذه الخُطبةَ إلاّ واقفاً

وجرى المؤيدُ طلَقاً ، والله يعلم كم عانَى الشيخُ علىٌّ فى إخراجه فَرْداً لا مُسعِدَ له من معين أو من مال . الحقُّ أن الرجل قد جاهد فى هذا جهادَ الجبابرة ، وعانَى عَناءً لو صوَّره القلمُ على حقيقته لظنَّه الناسُ من إحدى القِصَص التى تمثّلها أَخْيِلةُ الكتاب . وهكذا لم يَمض زمنٌ طويلٌ حتى جَنَى ثمرةَ الصَّبر العجيب (إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) صدق الله العظيم

مَضى (المؤيد) يُحرِّره الشيخ على يوسف ، ويَرفِده بالمقالات البارعة أعيانُ أهل الرأى والعلم والأدب فى البلاد ، من أمثال المرحومِينَ : الشيخ محمد عبده ، وسعد بك زغلول ، وقاسم بك أمين ، وفتحى بك زغلول ، وحفنى بك ناصف ،

وكثير غيرهم من أصحاب البيان . وكانوا يُسِرُّون أسماءهم فى الأحاديث السياسية بوجه خاصّ ، فذلك مما لا تأذَن به المناصبُ الحكوميّة بحال . وكذلك أضحى المؤيدُ مجالاً لأجل الأقلام وأنضج الآراء . بل لقد أضحى المدرسةَ التى تخرّج عليها من شَهِدوا الجيلَ الماضى من أعلام البيان

ويسير المؤيد . ويَذهب صيته لا فى مصر ولا فى العالم العربىّ فحسب ، بل فى العالم الإسلامىّ كلّه . فلقد أصبح لسانَه المعبّر أفصح تعبيرٍ عن حقيقة حاله ، والمترجمَ أنصحَ ترجمةٍ عن آلامه وآماله ، ومتحدّث أخبار المسلمين ورواويها ، ومُلتقَى أفكارهم فى قَواصِى الأرض وأدانيها

لا يَرحلُ الناسُ إلا نحوَ حُجْرته　　كالبيتِ يفضى إليه ملتقى السبُل

وحسبنا هذا القدرُ الآن فى المؤيد وفى صاحب المؤيّد : وسنعاود الحديث فيه إن شاء الله تعالى ، عسى أن نوفّيه بعضَ حقّه إن لم نوفّه كلّ حقّه . رحمة الله عليه

٢ — الشيخ على يوسف

ليس بالطّويل البائن ولا بالقصير المتردّد . على أنه كان إلى الطول . يظهر فى مَرأى العين نحيلاً هزيلاً ، ولكنه كان مُكتنز اللحم ، مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجَبْهة ، أزرق العينين ، طويل الهُدْبَين ، كثيرا ما ترى له فى إطراقه نظرةً غريبةً ساجية . ضيّق الفم ، على أن فى شفتيه الحراوين شيئا من الغلَظ ، تعلوه صُفرةٌ ما أحسبها من أثر مرض . وشعر لحيته الدقيقة المتسقة يميل إلى الشُّقْرة ، رفيق الصوت ليّنه إذا تحدث ، فإذا رفع صوتَه ضمُر بعضَ الضمور ، وتسلّخ بعض التسلّخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التى تَصلح للخطابة

وكان بعدُ رجلاً شديدَ العقل ، قوىّ النفس ، حديدَ العزم ، وافرَ الشجاعة ،

لا تتعاظمه قوةُ خَصم بالغةً ما بلغت قوةُ ذلك الخَصم وبأسُه ، و إذا تحدّاه متحدٍ رَكِبَ رأسَه فى نِضاله لا يبالى أين يقع المصير ، وصحَّ فيه قول الشاعر :

إذا هَمَّ ألقَى بينَ عينيــهِ عزمَه   ونَــكَّب عن ذكر العواقِب جانباً

وأذكر أننى مضيتُ إليه مرّةً فى صَحبٍ لى من خُلْصانهِ ، وسألناه أن يَترفَّق بالمؤيد ، فلقد تظاهَر عليه خصومُه ، وألّبوا الجمهرةَ عليه ، وأذكوا عليه حماسةَ الشّباب فى رأيٍ له قد لا يُحسِن فهمَه العامة ، ولا يستريح إليه طمُوح الشّباب . فأَصغَى إلينا وأَحسن الإصغاء ، وترك كلّ واحدٍ منا يقول ما عنده ، حتى إذا انتهينا ونحن على الظن بأنه نازلٌ عند رأينا ، عادِلٌ إلى ما سألنا ، فإذا هو يَرتجّ فى مجلسه ارتجاجةً عنيفة ، و يقول فى قوةٍ وفى عزمٍ حديد : « واللهِ لا يعنينى أن يكون الناسُ جميعاً فى صفٍّ واحد ، وأنا والحق الذى أعتقده بإزائهم فى صفٍّ واحد » ! . وتركناه ونحن نرى مُنحدَر المؤيد بطغيان الخصومة يوماً بعد يوم !

ولقد كان الشيخ علىٌّ ، رحمة الله عليه ، رجلاً متمكناً من نفسه حقًّا ، ولقد كان مما يُشاع عنه ، ولعل خصومَه هم مَبعَثُ هذه الإشاعة ، أنه كان يقول : أنا لا أُبالى أن أَخسرَ هذا البلد ، ففى إمكانى أن أعود فأكسبَه بثلاث مقالات . . !

ولقد عاشرتُ الرجل ما عاشرتُه ، واستمكن ما بيننا من الودّ والإلف إلى الحدّ الذى يَبعثنى على الاعتقاد بأنه ما كان يُخفِى عنى شيئاً ، حتى من نجوَى نفسه فى الأسباب العامة . وشهِد اللهُ ما سمعتُ منه قطُّ هذا الكلام ، ولا أيّةَ عبارةٍ أخرى يمكن أن تؤدىَ معناه

ولكن مع هذا لقد كان هذا هو الواقع ، أعنى الواقع من حاله ، لا من مقاله : فإننى لا أعرف رجلاً سياسيًّا عظيماً كان أقلّ الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً كما كان الشيخ على يوسف . وخصومُه على كثرتهم ، لقد كانوا من جميع الطبقات ،

وكانوا من جميع الهيئات ، وإنهم لَيُحيطون به إحاطةَ الطَّوق من كلّ جانب ، وكلهم عاملٌ على إسقاطه ، جاهدٌ ما امتدّ به الجهد فى هدم المؤيد ، مُذْكٍ عليه الأقلامَ والألسنَ من كلّ ناحية ، تَدمَغه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونَها فى غير هَوادةٍ ولا إشفاق، والمؤيدُ يَتقلَّص بين أيدى القارئين و يتقلّص، حتى يُظَن أنه قد تشرّف على العَفاء . ثم إذا الشيخُ يَتجمَّع ، و إذا هو يَشرَع القلم شَرعَ الرُّمح الرُّدَيْنىّ ، و إذا هو يَطعن الطعنةَ البِكرَ ها هنا مرّة ، وها هنا مرّة ، فلا يُصيب إلاّ الكُلَى والمفاصل . و إذا هؤلاء الخصومُ يَتطايرون عنه تَطايُرَ الشَّعْراء عن ظهر البعير إذا انتفَض ، و إذا المؤيدُ يَرِنّ فى البلد رنينَه ، بعد ما تردّد تأوُّهه وطال أنينُه !

وقد عرفتَ أن الشيخ على يوسف كان مبغَّضاً إلى الكثرة فى البلاد . و إن هذا البغض لَيَرجع ، فى الأكثر ، الى أسبابٍ صناعية : منها المنافساتُ الصَّحَفية ، ومنها الغَيرةُ من موضعه يومَئذٍ من ولىّ الأمر ، ومنها أنه كان هنالك رجالٌ أقوياء بَسْطة الجاه وسَعَة الغنى، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيتٌ وذِكر ، كان هؤلاء لا يَستريحون إلى سياسة القَصر ، ولربّما ظاهروا المعتَمدَ البريطانىَّ أحياناً فى عِدائه للقَصر . فهم ، بالضرورة ، يَنقِمون من كلّ رجل توَاتيه للقصر ، وخاصَّةً إذا كان رجلاً كالشيخ على يوسف جَبّار العقل ، جَبّار القلم !

أرأيت كيف كان هذا الرجلُ محاطاً من جميع أقطاره بنطاق من العداوات المختلفة ، بل التى يَصطرِع التناقضُ أحياناً بين أسباب بعضها وبين أسباب بعض ؟ على أن إذكاء بُغض الشباب والعامة للرجل من جهة ، و بُغض بعض الخاصَّة له من جهة أُخرى ، إنما كان يَسلكه له خصومهُ من أحد طريقى الضعف فيه ، إن صحّ هذا التعبير . أولها : أنه كان معتدلاً لا يرى العُنفَ سبيلاً إلى استرداد حقوق البلاد ؛ بل إن هذا العُنف لقد يُردِيها فى أخطارٍ لم تكن لها فى الحساب ، وكان طوعاً لهذا يرى ألاّ يَتحدَّث على الشئون العامة إلاّ الشيوخُ الناضجون المجرِّبون ،

وهذا وهذا ، ولا شك ، مما لا يُرضى الشبابَ المشتعلَ حماسةً لحقٍّ الوطن . ولا تنسَ أن العامة من وراءِ هؤلاء

أما السببُ الثاني فلُصوقُهُ بالقصر ، وشدَّة تَوَافيه له ، ومظاهَرتُه له على الدوام . وأظن أن هذا مَقامٌ لا تُحمَد فيه إطالة الـكلام

مع هذا كلِّه فني يوم الجُلَّى ، يوم تَحدُثُ الأَحداثُ القوميَّة ، يَنفُضُ الناسُ قلوبَهم حتى يَتَساقط عنها كلُّ ما عَلِق بها من الحِقد على الشيخ على يوسف ، ويُتْلِعون أعناقَهم نحوَ المؤيد ، شاخصةً أبصارُهم ، مُرهَفةً آذانُهم ، معلَّقةً فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسُهم . فإذا النَّمِر الجبَّارُ يَثِب على فريسته من عُدوان العادين وَثبتَه ، فلا يزال يُوسِعها تمزيقاً بمِخلَبه ، وضَغماً بأنْيُبه ، حتى ما يدعها إلاّ (أعظُماً وجلودا) !

نعم ، لقد كان يقول الشيخُ علىٌّ فيَروِى كلَّ غُلَّة ، ويَشفِى كلَّ عِلَّة ، ويَعلُو بسَطوة قلمه حتى ما ينتهى منتهاه فى ذاك أحد . والناسُ طرًّا لهذه النُّصرة بين مهلِّل وبين مكبِّر ! . هذه كانت قدرةُ الشيخ القادرة ، وهـذه كانت قوتهُ العبقريةُ النادرة . وهذه مقالاته فى أعقاب حادثة دِنْشواى ما برِحَت ترِن فى آذان من قرأوها إلى الآن

وإنى لَأَذكر له حادثاً طريفاً فى هذا الباب :

فشَت الفاشيةُ ، لا أعادها الله ، بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عَقِب مَصرَع المرحوم بطرس باشا غالى ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ ، على ما أذكر ، وعَقَد الأقباطُ مؤتمراً مِلِّياً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمونَ بمؤتمرٍ مثلِه فى القاهرة ، وأفضَوا برياسته إلى أكبر رجلٍ فى البلاد يومئذ ، وهو المرحومُ مصطفى رِياض باشا . واختار القائمون على هذا المؤتمر مَثوًى لاجتماعه مَلعَب مصر الجديدة ، ومضَى الناسُ

أفواجاً فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالاتُ البلد لم يتخلّف منهم إلاّ من انقطع به العذر . وتصدّر الحفلَ رياض باشا . وتعاقب الخطباء كابراً بعد كابر . فأبلَوا فى المقال أيّما بلاء ، وأبدعوا فى الخِطاب أيّما إبداع

حتى إذا كانت النوبةُ على الشيخ علىّ أذكَى بعضُ شُبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بَهو الملعب طائفةً من الفِتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القومَ ألاّ يصفقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يُظهروا أيّة إشارةٍ تدل على الاستحسان . فوعدهم أكثرُ الناس بهذا ، وأصرّوا عليه مخلصين لما تنطوِى صدورُهم من حِقدٍ عليه ومن بغضاء

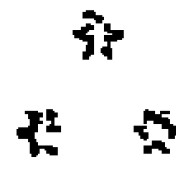
ويَنبعِث الشيخُ يَخطُب ، وهو كما قدمتُ لك غيرُ خطيب . استغفر الله ، بل لقد انبعث يَتلو مقالتَه فى أوراقٍ بين يديه ، وأنت حقّ خبيرٍ بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضعَ دقائق حتى أخذ الناسُ عن نفوسهم ، ونَسُوا ما عاهدوا أولئك الفتيانَ وعاهدوا أنفسَهم عليه . فبرَوا من التّصفيق أكفّهم ، وشقّقُوا بالصّياح حناجرَهم تَشقيقا . فكنتَ تَسمَع من هُتافهم مثلَ الرّعد القاصف ، وترَى من اضطرابهم وتَموّجهم فعل الريح بالأغصان فى اليوم العاصف ! وكان من أشدهم سَعَراً من كلام الرجل هم أولئك الفتيةُ الذين كانوا يروضون الناسَ على ألاّ يَلقَوا خطابه إلا بالجمود والإعراض

وجُهِد بالرجل . فتعاور التلاوةَ عنه كلٌّ من أستاذنا إبراهيم بك الهلباوى ، والمرحوم أحمد بك عبد اللطيف المحامى الأشهر ، وأنت كذلك خبيرٌ بأثر خطبةٍ يَتلوها فى الساعة غيرُ منشئها ، ما أرخَى إليها من قبلُ نظرًا . ومع هذا فما برحت تزدادُ الفَورةُ ويَشتدُّ بالقوم الفُتون !

ولقد أذكر أنه بعد إذ فُرغ من خِطاب الشيخ ، وافقتُ فى طريقى صديقاً لى

من شبان الحزب الوطنى ، وهو الآن من أعلام أهل الفضل الذين يتولَّون مَنصِبا جليلاً فى السِّلك القضائى ؛ وكان يومئذٍ مُسرِفاً غالياً فى التشيّع لمبادىء حزبه ، مُفرطاً فى بُغض الشيخ ، شديدَ الحَمل عليه ؛ ورأيته يضرب كفاً بكفّ ، فسألته : ما به ؟ فأومأ إلى مكان الشيخ من مِنصَّة الخطابة وقال : (على حِسّ الخطبة دى ، يقعد ابن الـ . . . يخون فى البلد ثلاثَ سنينَ أُخَر) !

ولا زلتُ كلما لَقِيتُ صاحبي أذكّره هذه الحكاية ، فيضحك فى غَيظ لا أدرى : أمن تذكيرى له بهذه القصة ، أم أنه ما تزال فى صدره بقيةٌ من هذا الضغن القديم ؟ ! الله أعلم !



وقد عرفتَ أن الشيخ على يوسف كان رجلاً مكافحاً ، بل إن قلمه لم يكن يَجود فى شىء مِثلَما كان يجود فى الكفاح . ولم تكن سياسةُ الاحتلال فى مصر تخشى سَطوةَ قلمٍ قدرَ ما تخشى قلمَ هذا الرجل ، فإنه كان فَوقَ كفايته البيانية ، وما آتاه الله من شدة العارضة ، والتمكن من نواصى جلائل المعانى ، لا يُهرول ، إذا هَرول ، فى الصغائر . ولا يَطعَن إذا طَعن إلاّ فى الصَّميم

ولا أُحبّ أن أتجاوز هذا المعنى فى الرجل قبل أن أَدلَّ على خَلّة من خِلاله فى كفاحه : ذلك بأنه كان يَعتمِد أضعفَ النِّقاط فى خَصمه فيتجمّع لها ، ثم يثب عليها بكل قوته ، ولا يبرَح يَطعنَه منها دِراكاً ، حتى يُدوِّخ رأسَه ، ويُذهِله عن سائر أسلحته ، إذا كانت له أسلحةٌ أخرى تجهَّز بها لذلك النضال

وكان فى كتابته سريعاً جدّاً ، حتى لتحسبنَّه ويده تجول فى القِرطاس عازفاً على قانون ، لا مسطراً بيراع . وتراه كلما فرغ من وجه الرُّقعة من الإضمامة دفع بها إلى من يُفضِى بها إلى المطبعة . وهكذا حتى يأتى على غاية المقال ، لا يَتتعتَع ، ولا

يَتحبَّس ، ولا يحتاج إلى مراجَعة شيء مما أسلف ، ومع هذا تجد المقال سَوِيًّا غايةً في الحَبك وتناسق الأطراف !

ومن العجب العاجب فى أمره أنه كثيراً ما كان يكتب والغرفة محتفِلةٌ بالزوّار وأصحاب الحاجات ، يرفعون أصواتَهم بفُنون الأحاديث والجدَل ، بل لقد يأخذ معهم فى بعض ما هم فيه ، وهو ماضٍ لشأنه لا يَشغَله هذا عنه كثيراً ولا قليلاً !

الشيخ على الصحفى :

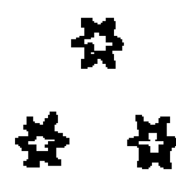
ولقد كان رحمه الله ، صَحَفياً بأجمع معانى الكلمة ، يكتب المقالَ الرئيسيّ كلّ يوم بيده ، ويُراجع كلّ ما يُدلِى به إليه الكتّاب من المقالات ، ويَفضّ البريد بنفسه ، فما رآه كُفئاً للنشرِ أذِن فى نشره ، وقد يَحذف بعضَ المقال ويُبقِى على بعض . فإذا تهيَّأت الجريدةُ للطّبع وراجعها المصحّحون، تناولها فقرأها من أولها إلى آخرها ، يُصحِّح ما عسى أن يكون قد فات القومَ تصحيحُه ، ويَتثبّت من ألاَّ يكون قد دُسّ على الجريدة شيء مما يَكرَه ، أو يكون قد سَقط إليها فى سِرٍ منه إعلانٌ عن خَمرٍ أو غيرها من المناكر

وكان على جلالة محَلّه ، وكثرة المخبرين لديه ، يطوف بنفسه كلّ يوم بأكثر الدواوين فى تنسّم الأخبار ، يَستخرجها بلطف حيلته من النُظّار (الوزراء) أو من المستشارين الانجليز فمن دُونَهم من عُيون الموظّفين

وهكذا استطاع الشيخُ علىٌّ بكفايتهِ وحَدّ عزمه ، أن يجعل من المؤيد أعظمَ جريدة فى مصر ، برغم كلّ ما كان يعتريها من الكَيد ، بل أعظمَ جريدةٍ فى العالم العربىّ كلّه

من أخلاق الشيخ علي :

وقبلَ أنْ أختمَ الحديثَ فى الشيخِ على يوسف أرى لِزاماً أن أُشير إلى فضيلتين من فضائله البارزة بُروزاً عظيما : أولاهما أنه كان خيِّرًا مَطبوعاً ، ما رأيتُه سُئل الخيرَ قطّ يستطيعه إلاّ فَعلَه مهما يكن فيه من عَنَتٍ ومن إرهاق ، وإنه ليفعل مغتبطاً راضياً هاشًّا حتى ليكاد يلتمس السّائليه الخيرَ التماساً ، وحتى ليكاد يَصدُق فيه قولُ الشاعر : (كأنَّكَ تُعطيهِ الذى أنتَ سائلُه) . وإنى لأعرف أنه كان يُجرِّد صَدراً من يومه فى السّعى لحاجات الناس ابتغاء رضوان الله ، هذه واحدة . أما الثانية فشِدَّة وفائه . ولقد عرفتَ صِلَةَ الرجل بالقصر ، ومبلَغَ ضعفه له . ولقد يَتغيَّر وليُّ الأمرِ يومئذٍ على رجلٍ من صُدْقانه ، أو ممن أسلفوا له يداً ، فتتناهشُهم الأقلامُ من كلِّ جانب . اللهم إلا المؤيد . فإنه الذى لا يُطلِق مقالةَ السوء فيه أبداً. وحسبُك دليلاً فى هذا الباب شدةُ توافيه للمرحومين الشيخ محمد عبده ، وسعد باشا زغلول ، ورياض باشا ، وغيرهم كثير . فإن كان قد مسّ بعضَهم كما مسّ رياض باشا عقب خطبته المشهورة ؛ فلقد كان عذرُه واضحاً ، وأيُّ وطنيٍّ يطيق أن يسمع الإشادةَ بفضل المعتمَد البريطاني على حساب كرامة أمير البلاد ! على أنه فيما مسَّه قد كان به أرفقَ الكاتبين



فإن زعمتَ بعد هـذا أنه كانت فى الرجل هَنةٌ أو كانت فيه هَنات ، فمن ذا الذى سلِمَ على العيوب كلهـا ، و (كَفَى المرءَ نُبلاً أن تُعدّ مَعايبُه) . وحَسبُ الشيخِ عليٍّ أنه كان بمجموعة مزاياه ومواهبه مَفخرةً من مَفاخر هـذه البلاد التى لا يَسخو بمثلها الزّمان ، و (إنَّ الزّمانَ بمثلِهِ لَبخِيلُ)

رحمه الله رحمة واسعة ، وعزّانا عنه نحن القادريه قَدرَه ، أحسنَ العزاء ؟

محمد بك المويلحي*

— ١ —

قبل أن أتحدث عن هذا الرجل الذي يجب أن يتحدث عنه مدونوا تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث — قبل هذا أحب أن أقول في هذا الباب شيئاً عامًّا . ذلك بأننا اعتدنا أن نغفل الكلام في سيرة من عاصرناهم ، ورأيناهم ولابسناهم ، إلاّ أن يكون القول من جنس هذه المراثي التي تضفى فيها خلال الثناء ، ويُكال فيها المديح في العادة بغير حساب . ولقد يكون هذا الثناء حقًّا أو قريباً من الحق ، بحيث لا يُؤذي التاريخ في كثير ولا قليل . ولكنه لا يمكن أن يجلو على الأجيال المستقبلة شيئاً من حقيقة الرجل . لأن الكاتبين في هذه الحالة لا يعنون ببسط حياة الرجل ، وظواهر خلائقه . والعوامل [illegible] في تكوينه ، ومطبوع عاداته ، ولو ما يتصل منها بالأسباب العامة . وذلك من أبسط الأمور . لأنهم عرفوه بالمشاهدة ، واستيقنوه بالملابسة ونقل الأخبار . وهذا لا [illegible] القادمين دراسته وتحليله دراسة إن لم تنته إلى أصدق النتائج . فهي أدنى إلى الصدق من غيرها على كل حال

وليس يذهب عن القارئ أن [illegible] . لا بد مفض إلى إحدى حالين : إما إلى إدراج كثيرين من رجال الأدب [illegible] في مطاوي النسيان ، أو التحيف من أقدارهم [illegible] في تجليتهم . إذا تراخى الزمان ، في غير صورهم . [illegible] . بحكم العنعنة في رواية الأخبار . والاتكال في تحليل نفس [illegible] من الآثار .

---

* نشرت بمجلة الرسالة في عدد ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣[illegible] [illegible]



الـكاتب العظيم المرحوم محمد بك المويلحي

وكثيراً ما يَضِلّ الباحثُ المستنتِج فى هذا أبعدَ الضَّلال . هذا إلى ما فى مُعاناة مثل تلك البُحوث من إضاعة للوقت ، ونفقة من الجهد ، وتجشّم للعناء

وأغلبُ الظنّ فى هذا الإغفال من المعاصرين لمن عاصروهم من رجال الفُنون والآداب ، أنه يَرجع إلى أن الرجلَ العظيمَ قلّ أن يراه مُعاصروه بالعَين التى يراه بها الخالفون ، فهو فى الغالب إذا استحقّ منهم ترديدَ ذكره ، والهُتافَ باسمه ، وتدوينَ سيرته ، فقلّ أن يُعنى أحدٌ بتقصّى عاداته ، والتسلل إلى مَدَاخله ، وعرض ما يلابس الأسبابَ العامّة من سائر أموره . أو لأنهم لا يُعنَون بهذا لأنه حاضرٌ لمعاصريه قريبٌ منهم . فهو فى حكمِ المبذول الذى يَنال منه من شاء أن يَنال . ولا شكّ أنّ فى هــذا ضرباً من الغفلة عن أن الحاضر سيَغيب على الزّمن ، وأن المبذول سيَنقبض . وأنّ ما فى متناوَل اليد اليومَ ستَتقطّع من دونه غداً علائقُ الآمال !

ولقد يسكُت النقَدَةُ عن تقصّى ذلك عمداً ، والتلبّث بتحليل الرجل ، وردّ العوامل فى تكوينه إلى مناجمها ، حتى يَنطوىَ الزمنُ عليه وعلى أهله ، وعلى أشياعه وخصومه من معاصريه . فيتهيّأ الجوُّ للبحث والتحقيق ، لا رغبة ولا رهبة فيه ، فيكون البحثُ أنزَ وأصفى . وتخرج النتائج أدقّ وأوفَى

وهذا مذهبٌ فى الرأى له أثرُه وله خطرُه ، بالرغم من أنه يفوِّت على المؤرخ المدقّق من عناصر الحكمِ ما قد يسىء فى بعض الأحيان إلى حكمه ، فإذا هو طلبها تصحيحاً لبحثه . فلن ينالها إذا نالها صادقة إلا بعد أن يَتجشَّم فى سبيلها عَرَق القِربة كما يقولون .

على أننى فى هــذا لا أذهب إلى التولع بنشر المعايب ، واستظهار المكاره ، حتى لا يُثير المدوّن ثائرة الأهل والصّحاب والأنصار . إنما أريد أن يجلو المعاصر ،

من غير ذلك ، كلٌ ماله خَطَرٌ فى تكوين الرجل ، فإذا كانت هناك مَغامزُ لا ينبغى إغفالُها فى تجليته وتحليله ، فليسجّلها عَلَى أن يكتُمها حتى يُجلِّيها لوقتها ، أو يُجلِّيها مَن بعدَه من الأعقاب.

وعَلَى أىّ حال فإن إغفال هذه الأمور التى نحسبها فى غالب الأحيان من التَّوافه، كثيرًا ما يُخلّ بحق التاريخ ، و يفضى إلى الجهل بالجمّ من حقائق الأشياء . ولست أجد فى الباب مثلا أيسرَ ولا أدنى الى الحس من أننا ، لولا مَهبط البعثة العلمية التى صَحبت الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ، ما اهتدينا بسهولة أوما اهتدينا أبداً إلى أزياء جدودنا وسَمْتهم من قرن وثلث قرن من الزمان ، فكيف بمن هم أعلى من هذا وأبعد فى مذهب التاريخ ؟

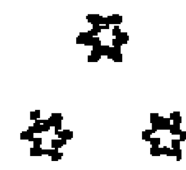
ولو قد عُنِىَ أهلُ كلِّ عصرٍ بأن يحفظوا لِخَلَفهم نماذجَ من ثيابهم ، وآلاتهم فى سائر حوائجهم ، وفعل هؤلاء مثلَ فعالهم ، لظلّت سِلسلةُ الأزياء واضحة عَلَى وجه الزمان .

ولعل من الخير أن أُنبّه فى هذا المقام إلى أن محاولة كشف الرجل من آثاره المحفوظة لا تُجدى كثيرًا فى الإبانة عن خِلاله ومَداخل عيشه، حتى مَظاهرها . بل إنها لكثيرًا ما تكون من وسائل الضَّلّة فى إثبات التاريخ . ولست أسوق لهذا أكثرَ من مثلين اثنين : ذلك بأنك لو اتكأت فى طلب خلال الجاحظ على مجرّد آثاره ، لخرج لك منها أنه كان أزهدَ الناس فى المال ، وأنه لو سَقط ليده لكان أجودَ به من الريح المرسَلة . فإن أحداً لم يَنعَ الشحَّ ولم يذُمَّ الأشحّاءَ كما نَعى الجاحظ وكما ذمّ ، وإن أحدًا لم يؤلف كتاباً فى (البخلاء) أبلغ فيهم إيجاعًا ، وأشد لهذه الخَلّة وأصحابها إقذاعا ، كما صَنع الجاحظ . ومع هذا لقد كان هو نفسُه من أشد المُبَخّلين الذين أوفَوا عَلَى الغاية من الجشَع ، والحمل على المروءة أحيانا فى طلب المال

وإنك لو التمستَ مثلَ هـذا فى أبى الفرج[1] لخرج لك من آثاره أنه كان أجمل الناس سَمْتا ، وأنظفهم بدناً وثوبا ، وأشدهم أخذاً للنفس بأدق آداب السلوك فى طعامه وشرابه ، وغير ذلك من أسبابه . ولـكن الواقع أنه كان من أشدّ الناس شَرَها ، وأقبحهم مُؤاكلة ، وأقذرهم خَلْقاً وثوبا ، حتى لَيَصِحّ فى بعض خلَّته قولُ الشاعر :

وسِخ الثوب والعِمامة والبِرْ ... ذَونِ والوجهِ والقفَا والغُلام !

ولولا أن معاصرى هذا وهذا أثبتوا لـكلٍّ منهما ما أثبتوا لَزلّت فيهما الأقلام ، وضلَّت الأوهام !



بعد هذا آخذ فى حديث أستاذى ورئيسى وصديقى ، العالم ، الفيلسوف ، الأديب ، الـكاتب ، الناقد ، السيد محمد بك المويلحى ، رحمة الله عليه

من أكثرَ من ثلاثين سنةً خلَت ، ولمّا أزَل بعدُ فى أيام الفتوّة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرَت فى مصر جريدةٌ أُسبوعيةٌ سياسيةٌ أدبيةٌ باسم (مِصباح الشرق) فى أربع صفحات دونَ صفحات الجرائد التى تَصدُر الآنَ مساحة ، ولونُ ورقها يَضرب إلى الحُمرة . ويقوم بتحريرها إبراهيم بك المويلحى وابنُه السيد محمد المويلحى . وكانت عامةُ الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهـد من المَهانة والفُسُولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود

مصباح الشرق :

لقد كان هذا « مِصباحُ الشرق » شيئاً طريفاً حقا ، لقد كان أبلغَ من طريف فإنه لأُعجوبةٌ حقا ، لقد كان هـذا « مِصباحُ الشرق » أبلغَ من أعجوبة ، إنه لَشىءٌ يَكاد يتصل بحُكم الخَوارق فى تلك الأيام !

(١) يعنى أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى

بلاغةٌ بليغة ، ولفظٌ جزْل مُتخيَّر ، وديباجةٌ مُشرِقة ، وصيَغٌ مُونِقة ، ونَسْجٌ مُتلاحم ، وأُسلوبٌ ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه السهلَ المتنع

أدبٌ بارع ، علمٌ وفلسفة ، وبُحوثٌ رائعةٌ فى سياسة الأمم ، وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكَرُ المنشأ ، ومنها المترجَمُ من مُختلِف اللغى ، فى عبارةٍ عربيةٍ بليغةٍ سَلِسةٍ ناصعةٍ واضحةٍ لا تَستروِح منها أىّ ريحٍ للاستعجام . هل رأيت قطّ ترَجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهبٌ طريفٌ فى النَّقد ، نقد الأشخاص ، لا عهدَ للأدبِ العربىّ به من قديم الزمان ؛ بل لعله لا عَهدَ له به من أول الزمان !

لم تكد تُطالع الناسَ هذه الصحيفةُ الدقيقةُ الجرم مرتين أو ثلاثا حتى أصبحت من بعض شُغل الخاصّة فى هذه البلاد !

لا يدخل الأصيلُ فى يوم الخميس من كل أسبوعٍ إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرَّشت جِباه ، وتقلّصت شفاه ، وتَدارَكت أنفاس ، ووَجَفت قلوب . هل رأيت انفلاتَ الطائر بعد طول الاحتباس ؟ كذلك كان يترقّب الخاصةُ مشرِق « المصباح » وسَرعان ما تخطَفه اليدُ الراجفةُ فتشقه ، وسَرعان ما يشيع البصرُ كله فى مساحةِ النقدِ كلِّها ، لا يَستقرّ على موضوعٍ خاصّ . ولا يَتحيّز فى حديثٍ معيَّن . بل إنه ليَنساح على الصفحةِ كلِّها انسياحا ليدرك قبل ردّ الطرف : أشَكّ المويلحىُّ اسمَ صاحبه فيمن شكّ أم أرسله فى جملة الطلقاء ؟ ! حتى إذا اطمأنّ الرجلُ إلى أنه قد كُتبت له السلامةُ لجُمعته . ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يُطامن من نَفَسه ، ويَبسُط من خاطره ما تقبّض ، ويُفرِخ من رَوعه ما تَحبّس

وإذا كان هــــذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيين : فاحكم أنت ، عصمنا الله وإياك ، كيف كانت حالُ من تَنال منهم هذه الأقلام ؟

على أنه مما ينبغى أن يُذكر هنا ، أن « المصباح » لم يكن يعرض قط لأعراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتدسّس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم ، بل لا يتناول من أمورهم إلاّ ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلّون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم ؛ فلقد كان « المصباحُ » أجلّ من ذلك موضعا ، وآنَفَ كرامة

وإنه لَيستحدِث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهدَ به للأمم العربية جمعاء . وهذا النوع من النقد يقوم ، فى الجملة ، على التماس الجانب الضعيف فى أثر الرجل ، فيعرِضه بالقلم فى صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافَى لذلك الذهن الدقيق من ألوان التشبيه ، وما يحضُره من فنون الاستشهاد والتمثيل، ولا يبرح يمطّ الموضوعَ فى هذه الناحية بالتوليد، وطلب المناسبات القريبة ، والملابسات الدانية ، تسْندها النكتةُ البارعة ، ويُسعِفها التندُّر البديع ، حتى ينتهى إلى ما لا ينتهى إليه أحدٌ من الناقدين !

ولقد كان هذا من « مصباح الشرق » الأصلَ الثابتَ لهذا اللّون من النقد ، أعنى النقد (الكاريكاتورى) فى مصر . كما كانت صحيفةُ المويلحيَّين (أبوزيد) أولَ ما عُرِف ، فيما أعرف أنا ، من التصوير (الكاريكاتورى) فى هذه البلاد . ولعلى أُلمع إلى هذ الصحيفة فى بعض هذا الكلام

لم ينته خَطْب « مِصباح الشرق » إلى هذا الموضع فحسب ؛ بل لقد كان ، على أنه صحيفةٌ لا تظهر فى جميع الأسبوع إلا مرةً واحدة ، يَروِى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة ما لا تبلغه الصحفُ اليومية ، على شدة ارتصادها لمثل ذلك ، وإذكاء عيونها الكثيرة فى طلبه وتقَصِّيه . فكانت أمهاتُ الصحف اليومية لا تتحرّج ، فى كثير من الأحيان ، من نشر مهامّ الأخبار نقلاً عن صحيفة

« مِصباح الشرق » الأسبوعية مضافةً إليها معزوّة لها . وفضلُ «المِصباح» فى هذا السَّبْق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم بك المويلحىّ عند أولى الأمر كلّهم ، وخِفَّة رُوحه ، ولُطف مدخله ، وسَعَة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهـذا ما لا يَحرُجون عنه لغيره من رواة الأخبار !

ولا أحبّ أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن « المصباح » أولُ من جلَا للناس براعةَ الجاحظ وعبقرية ابن الرومىّ بمـا كان يختاره لهما من بدائع المنثور وروائع المنظوم ، قبل أن تقَع العيونُ من آثارها على كتاب أو ديوان . وأولُ من عالج النقد الأدبىّ لما تنتضِح به قرائحُ الشعراء ، وأعنى به ذلك النقدَ الرفيعَ الغالى ، الذى جمع بين أساليب النقد فى أزكى عصور العربية، و بين طرائقه التى اختطّها نقَدةُ الغربيين فى هذا الزمان

وعلى الجملة ، فلقد فتح « المصباحُ » فى الأدبِ العربىّ فتحًا جديدا ، وأمسى « مِصباحًا» حقًّا يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القولَ أو اجتمعوا لنظم الكلام.

و بهذا وهذا أصبح « مِصباحُ الشرق » أنفرَ مدرسةٍ لطالب الأدب الرفيع الجزْل الطَّريف فى هـذه البلاد .

ومما يَنبغى أن يُذكَر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء قد تعاظمتهم سَطوةُ « المصباح » فى باب النقد ، فحسبوا له كل حساب . و يا و يل من لا يَتحرّى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهدُ كلّه من التدقيق والتجويد والإحسان

و إنى لأكتفى اليوم من حـديث السيد محمد المويلحى بهذا القدْر ، على نية العودة إليه فى القريب ، إن شاء الله

٢ ــ محمد بك المويلحى

لستُ أَغلُو إذا زعمتُ أننى فى مطلع نشأتى الأدبية كان « مِصباح الشرق » عندى هو المثلَ الأعلَى للبيان العربىّ . وبهذا كنتُ شديدَ الإكباب على قراءته، وتقليب الذهن واللسان فى روائع صِيَغه وطرائف عباراته ، حتى لقد كنت أشعر أننى أترشَّفها ترشفاً لتدور فى أعراقى وتخالط دمى ، وتطبع ملكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف. ولكن (ما كلُّ ما يَتمنى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتًى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح : (أحاديث عيسى بن هشام) زادنى وزاد لِداتى به فُتونا

كيف تمثل لى محمد المويلحى ؟ :

لم تكن عينى إلى هذا العهد قد وقعت قطّ على محمد المويلحى ، ولا خيارَ للمرء فى تمثل صورة من لم يرَ من الأناسىّ، وما لم يشهد من البقاع. فكانت الصورةُ التى جلاها علىّ الخيالُ لهذا الرجل ، صورة شابٍّ معتدل القدّ ، وَضِيء الطَّلْعة ، وسِيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيانُ الجوهرىُّ ليَجلوَ علىَّ من الرجل غيرَ ذلك . على أننى كنت أرى أباه ابراهيم بك الحينَ بعد الحين فى زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفى زيارات والدنا له (بعمارة البابلى) يوم كنت أَصحَبه ، وكان هذا المويلحىُّ الكبيرُ تُحفةً من تُحَف العصر التى قلّ أن يجود بمثلها الزمان : قوة لَسَن ، واشتعال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعتهُ وتوفيقهُ فى إيراد الشَّاهد من عِبر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يَتعلّق بغُباره فيه أحد . فكان مجلسُه متاعاً من أعظم المتاع

على أنني لم أوفَّق إلى رؤية المويلحي الابن مرةً واحدة !

وتتابعت السنون ، وخلص تحريرُ « المِصباح » إلى محمد ، ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسيرٍ عليه من بعض الطَّيِّشِ من أبناء (الذوات) في إحدى القهوات. وانتهى الخبرُ إلى المرحوم الشيخ علي يوسف، وكانت في صدره مَوجِدةٌ شديدة على محمد وعلى أبيه لِمَا كان بينه وبينهما من كَيدٍ وصراع . فانتهز الفرصة ، ورَوى الحادثةَ في صورةٍ مَهُولة، واستَدرَج الكُتابَ والشعراء للقول فيها، وفَسَح لهذا في المؤيد مكاناً عريضاً . ومن ذا الذي لم يكن موتوراً من المويلحيّ ؟ ومن ذا الذي لم يُقدِّر الوِتْرَ منه في مستقبل الأيام؟ وإذا كان الرجلُ عاجزاً عن أن يخرج للمويلحيّ وحدَه ، فهذه جموع الأدباء والشعراء والعلماء أيضاً قد تداكّت لقتاله بكل ما في أيديها من سلاح ! ألاَ فليتقدَّم لطعن المويلحيّ من شاء أن يتقدّم ، فليس على أحدٍ في قتاله اليومَ من بأس !

وتثور العاصفة ، ويشتدّ البأس ، ويستعرّ الحنق . وأُذِّن النفيرُ العامّ . فوثب القاعد ، وتحرّك الساكن ، وانبعث الجاثم ، وهبّ النائم ، وألهب القعديُون[1] بالمتخلّف ، واستَحمَسوا المتخاذل ؛ وتمدّ الجميعُ على قلب رجلٍ واحد . وهل كان من المستطاع أن يَصمُدَ لهذا الجيش اللَّجب رجلٌ واحد ؟ ! لم يستطع المويلحيّ أن يَثبُت في الميدان . فأطفأ « المِصباح » . وانسلّ إلى داره وقد ألقى يد السلام ، واحتجب ولكن في انتظار الثأر وريّ الغُلّة بالانتقام !

ولقد تم للمويلحي من هذا بعضُ ما أراد أو كلّ ما أراد . فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ علي يوسف أيام حادث الزوجية المشهور . وفتح له في جريدة (الظاهر) بابا مثلَ ذلك الباب ، واستدرج له أقلام الشعراء والكتاب . وواحدةٌ لواحدة كِفاء !

---

(١) القعديون بفتح القاف والعين : جمع قعدي ، وهو الذي لا يهوى على القتال ، ولكنه يستحمس الناس له

متى رأيت المويلحي وكيف اتصلت به ؟ :

بين سنتى ١٩٠٧ و ١٩٠٨ ، لا أذكر على التّحديد ، سألتُ صديقاً حديثَ العهد بصداقتى ، ولكن وُدَّه للموَيلحىّ قديم — سألته وتمنّيتُ عليه أن يجمَع بينى وبينه ، وما كان أبلغَ دهشى واغتباطى حين قال لى : إن الموَيلحىّ قد طالعه بأنه يحبّ أن يرانى. ولعله عرَف بى من أيام كنت أُرسِل القولَ فى الشيخ فى فتنة الزوجية شِعراً ونثرا . (وأسأل الله أن يغفر لى هذا) . وتواعدنا أن نذهب إليه فى الأَصيل

وكان ، رحمه الله ، قد اتخذ مسكنَه داراً من دور سعيد باشا نصر ، تقع فى أَطراف العباسية يومئذ . وهـذه الدار لا يُعطِى العينَ ظاهرُها أكثر من منظر (حوش) فى قرافة الإمام ، فإذا جُزْتَ مَدَاخلَها انفرجت للعين حديقةٌ واسعةٌ قد عُبِّدت طرقُها تعبيداً ، ونُضِّدت أشجارُها تنضيداً ، وتأَنَّقتْ يدُ البُستانىّ فى تسويتها وتنميقها ، كما تأَنقتْ يدُ الطبيعة فى تشجيرها وتزويقها . فهذا الفُلّ الوَضىء الآلق ، وهـذا الوردُ المشرقُ الضّاحك ، وهذا النرجس تَنبعث من عُيونه الأَسحار[1] ، وهذا الياسمين لقد استحال تَنفُّساً فى ساعِ الأَسحار[2] .

ولقد أفرد زاويةً من زَوايا الحديقة للغِزلان والطّاويس وجماعات الطير من كلِّ غَرِدٍ صدّاح .

ويَستقبلنى ، رحمةُ الله عليه ، بالبشر والتأْهيل والتّرحيب ، وإذا بى إزاء رجلٍ حِنطىّ اللون ، بين الطّويل والقصير ، والسّمين والهزيل ، مستطيل الوجه ، عريض الجبهة ، حادّ العينين ، مستوى الأنف، له فمٌ قريبٌ إلى الفَوَه فى غير قُبحٍ ولا استكراه . إذا تَمثّل واقفاً لمحت فى ساقيه تقوّساً خفيفاً لعله دخل عليه من أنه عالج المشى قبل أن تَصلُب عظامُه . وله إذا تحدَّث صوتٌ لا أقول خَشِن ، بل أقول

(١) الأسحار هنا جمع سحر بكسر فسكون . (٢) والأسحار هنا جمع سحر بفتح السين والحاء ، وهو ما قبيل الصبح .

جَزْل . فإذا أقبل على القراءة زَرّ عينه اليسرى ، فبان التكرُّشُ الشديدُ فى مَعقِد ما بين أعلى العارض وأسفل الجبين، وهذا التكرُّشُ لا شكّ كان من أثر السنين ، و إن كان يُخفيها فى المويلحىّ شدةُ عنايته بصحته ، و تَكلّفه ألواناً من علاج البدن بمأثور الوصفات ، والتزام الحِمية فى كثيرٍ من الأوقات ، وأخذ النفس بالراحة التامة ما تستثيره أزمةٌ من الأزمات ، ولا يستدرجُه مجلسُ لهوٍ ولا تَقنِعهُ داعيةُ لذة من اللذات ؛ وبهذا تهيّأ له أن يحيا فى مثل نَضْرة الشّباب إلى الممات .

وقد تلقانى فى غرفة الاستقبال ، وهى غرفة أنيقة حقا ، لقد أُثّثتْ بأفخر الأثاث وأغلاه ، وأفخرُ من كل شىء فيها الأناقةُ فى تصفيف الفراش والذّوق التامّ . وقد زُينَت أجنُبها[1] بصور كبيرة له ولأبيه ، وللأميرة نازلى فاضل ، وللسيِّد جمال الدِّين الأفغانى ، و بألواحٍ خطية جميلة جَرَت بروائع الحِكَم ، وأكثرُها من شعر المعرىّ .

وخُضنا فى أحاديث مِن أحاديث الأدب ، ولوّنا الكلام تلوينا حتى تجاوزنا نصف الليل ، وتفارقنا وكأن حبلَ المودة بيننا ممدودٌ من عشرين سنة . وتواعدنا اللقاء ما تهيّأ لنا . وكذلك استمكن الإلفُ، واستوثقت حبالُ الوُدّ ، فما نتفارق إلا على موعدٍ من لقاء قريب . ولقد أعيش مَعه اليومين والثلاثة نقرأ عامّة نهارنا وصدراً من ليلنا كتباً ، أو نتذاكر أدبا .

وكان ممن يختلفون إلى داره مَغرِبَ الشمس عادةً بعضُ أقطاب العلم وأصحاب الرأى والبيان والبدائة المواتية ؛ وأذكر منهم المرحومين : عمه السيد عبد السلام باشا المويلحى (سرّ تجار مصر) ، والسيد محمد توفيق البكرى ، والشيخ على يوسف ، بعد إذ تصافَت القلوبُ مما كان علق بها من الأضغان . والسيد محمد الببلاوى ، ومحمد بك رشاد ، وحافظ بك ابراهيم ، وعبد الرحيم بك أحمد ، وحافظ بك عوض ،

---

(١) الأجنن جمع جبين .

والسيد عبد الحميد البنان . أحياهما الله أطيب الحياة ؛ وخُذْ ما شئتَ فى أثناء هذه المجالس من أدبٍ رائع ، ومن نادرةٍ طريفة ، ومن حاضر نكتةٍ قل أن تسخوَ بمثلها الأذهان

ولقد كنا نقضى معاً عامة الصيف فى مدينة الإسكندرية . ولعل من أسعد هذه الأصياف ذلك الذى قضيناه معاً فى فُندُقٍ فى ضاحية المَكس خالصَين للرياضة ومراجعة الكتب فى مختلف الآداب ، لا ننحدر إلى صُلْب المدينة إلا لقضاء سهرة مُونِقة مع آثر الصِّحاب ، كما عشنا معاً فى شتاء سنة ١٩١١ و ١٩١٢ بضعةَ أشهرٍ فى دارٍ استأجرناها فى حُلْوان

وفى سنة ١٩١٠ قُلِّد فى ديوان (عموم) الأوقاف مَنصِب رئيس قسم الإدارة والسكرتارية . وفى يناير من سنة ١٩١١ عينتُ فى (قلم السكرتارية). وللموَيلحىّ فى هذا التعيين سعىٌ غيرُ منكور . و بهذا أصبح لى رئيساً ، كما كان لى أستاذاً وصديقا ولقد ظَلَّ الوُدُّ بيننا موصولاً حتى قُبِض إلى رحمة الله

نشأته ودراسته :

هو السيد محمد المويلحىّ بن إبراهيم بك بن السيد عبد الخالق الموَيلحىّ، أصلُهم من مَرفأ الموَيلح ببلاد العرب . هبط جدودُهم مصرَ من زمنٍ غيرِ قصير، وكانوا يَتجَّرون فى صناعة الحرير؛ وهم أهلُ نعمةٍ وثَراء . ولقد أتلف أبوه إبراهيمُ كلَّ ما كان فى يده من الأموال ، فلم يَنزَلق عنه لبنيه إلا نِطافٌ من الاستحقاق فى بعض الأوقاف

وما أحسب محمداً تجاوز فى الدراسة المنظَّمة التعليمَ الابتدائىّ ، ثم جعَل يَتعلم على أبيه ، ويُكِبُّ على قراءة الكتب فى العلوم والآداب . ثم اتَّصَل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب ، من أمثال السيد جمال الدين الأفغانىّ ، والشيخ محمد عبده ،

والشيخ حُسَين المرصفىّ ، ومحمود باشا سامى البارودىّ ، وغيرهم من أعلام عصره ، فحذَق العربيةَ وبرَع فيها ، وجوَّد البيانَ أيمَّا تجويد ، وهيَّأ له جِدُّه واضطرابه فى أسفاره بين الشرق والغرب تجويدَ اللغات الفرَنسية ، والتركية ، والإيطالية ؛ كما أصاب حظًّا من الإنجليزية واللاتينية . وكان كثيرَ القراءة إلى غاية الممات . فلا تكاد تَقتحِم عليه إلا رأيتَه يعالج بالتنسيق حديقته ، أو يقرأ فى كتابٍ عربىّ ، أو فى كتاب يجرِى فى إحدَى هذه اللغات

ولقد سألتُه ذاتَ يومٍ عن أحسن الفُرَص التى هَيَّأت له أعظمَ حظٍّ من العلم . فقال : كنتُ فى الآستانة فى ضيافة رجلٍ فاضلٍ يدعى سليمان أفندى ، وكانت عنده خِزانة كتبٍ تعَد من أفخر خزائن الكتب الأهلية . فلبست ثيابى ذات عَشيَّة تأهبًا للخروج كعادتى لأسهرَ فى بعض ملاهى المدينة ؛ وتنقدتُ كِيسى فإذا هو صِفرٌ من الدِّرهم والدِّينار ، فنضَوتُ ثيابى ثانيةً وقلت باسمِ الله ، ولَبثت عاكفًا على قراءة الكتب ، لا أبرح هذه المكتبة إلا للنوم أو لغيره من حاجات الحياة . وظلِلْت على هذه الحال ستةَ أشهر وبعضَ الشهر ، حتى أذن الله بالفرج ، وجاءنى من المال ما هَيَّأ لى استئناف الحياة مع الناس !

ومن يعرف صبر المويلحى ، وشدة حمله على نفسه ، لا يستطيع أن يُنكِر منه هذا المقال ؛ وسأُلِمُّ إن شاء الله بهذه الخلة العجيبة فيه عند الكلام فى عاداته وأَخلاقه . وحسبى هذا الآن ، فقد أطلْتُ الحديث ؛ وإلى الملتقى القريب

٣ — محمد بك المويلحى

تمهيد فى نشأته ودراسته :

لقد عرفتَ مما قصصْنا عليك أن هذا الرجلَ وإن نشأ عظاميًا بما لبيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصاميًا بما حصَّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه

فأكبَّ على الكتب دائِرِها ومجفوِّها . ولعل أكثر نظره إنما كان فى كتب التاريخ والسِّيَر ، ولو قد وقع لك صدرٌ من آثار أبيه وآثاره لرأيت لهما فى مواطن الاستشهاد فِطنةً عجيبةً إلى دقائقَ دقيقة ، مما يَعلَق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قلَّ أن يَفطن لها أكثرُ القارئين ، وقلَّ أن يَحفِل بها أو يُعلِّقها من يَفطُنُ إليها من الدَّارسين ، على أنها قد يكون لها فِي دَواعِي الكلام مقامٌ عظيم ، وكثيراً ما تَرفَعه درجاتٍ على درجات

كذلك اعتَمَد محمدٌ فى تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل ، يُصاحِبهم ويُلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويَشهَد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخَلَ رجالَ الحكْم وأصحابَ السياسة فى مصر وفى الآستانة ، فعَرَف أساليبَهم ، وأدرك مذاهبَهم . ولم يَنكسِر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحَبَ كذلك أهلَ الظرف وأصحابَ البدائه ، وشاركهم فى أسمارهم ، ودخل فى مُناقلاتهم ومُنادراتهم .

وعالج البيانَ من صَدْر شبابه ، يَصقُل له أبوه القول، ويُقرِّب له مصطفى اللفظ ، ويأخذه بتجويد النسْج ، ويَهديه إلى مَضارب القلم . وسرعان ما نَضِج وأدرك ، وجَرَى قلمُه بالبيان حُلواً متيناً نيِّرا ، ووقع من فُنون المعانى على أجلها وأكرمِها . ونَهَج لنفسه أُسلوباً خاصا به ، إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقينَ من أعلام الكتاب ، فكان منه بذلك كلِّه الأديبُ التامّ .

واحترف صنعةَ القلم، واشترك فى تحرير جريدة المقطم بضعَ سنين على ما أظن. ولا أحسبه قد شارك أباه فى تحرير الصحف التى أخرجها فى عهد المرحوم الخديو « إسماعيل » ، فتاريخها إن لم يكن أبعدَ من مولده ، فهو أبعدُ ، فى أرجح الظن ، من حَمله القلم ، والله أعلم !

وكان أبوه رحمة الله عليهما ، كثيرَ الاختلاف إلى الآستانة مثوى الخلافة يومئذ ، فكان يَصحَبه فى بعض الرّحلات ، وقلّد إبراهيم بك فى زمن السلطان عبد الحميد مَنصِبَ المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بِضعَ سنين ، لعلها تسعٌ إن صدقتنى ذاكرتى ؛ فقضى محمد فى الآستانة هذه السنين .

ولما اعتزل المرحوم إسماعيل باشا إمارةَ مصر، وآثر المقام فى إيطاليا ، دعا بإبراهيم بك ليؤنسه ويُسامره ويَخدُمه فى بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولدَه وأقاما فى نابولى فى قصر إسماعيل بِضعَ سنين . ومن هنا تدرك كيف حَذَق محمدٌ لغةَ التليان .

ولقد طاف محمدٌ كثيراً ببلاد أوربا ، إمَّا مُوفَداً من أبيه فى بعض مساعيه ، وإمَّا متفرِّجاً مُتنزِّهاً . وله فى وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقالٌ بارعٌ بديع ، كان يُنشَر مُنجَّماً فى مصباح الشرق [١] . وطاف كذلك بالبلاد السورية، وزار المدينة المنورة ، ووصف القبرَ الشريفَ أحسنَ وصف وأبدعه ، ونشره فى جريدة المؤيد [٢]

واستقر المويلحيَّان أخيراً فى مصر ما يبرحانها إلاّ للنزهة والرياضة . وأصدرا صحيفة « مصباح الشرق » . وقد مرّت بك صفتها فى أول مقال . ثم طواها كما ذكرتُ لك ، واعتكف محمدٌ فى داره لا يلى عملا عاما ، حتى عُيّن فى سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الإدارة والسكرتارية فى ديوان (عموم) الأوقاف . وأزيل عن هذا المنصب بعدَ إذْ قامت الحربُ العظمى ، وتبدّلت الحال ، لأسباب لا يَحتمل ذكرها هذا المقال . فعاد إلى اعتكافه لا يتدلى إلى البلد إلا فى قضاء حاجة ، أو مُساهرَة من يَستطيب مجالستهم من الصّحاب ، وظل كذلك إلى الشكاة التى مات فيها ، عليه رحمة الله . وكانت وفاته فى يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠ .

---

(١) ألحق هذا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) فى آخر طبعاته

(٢) وكان قد دعى إلى هذه الزيارة الكريمة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالا بافتتاح سكة الحديد الحجازية

أخلاق المويلحي وعاداته :

قبل أن أطْرُقَ هذا البابَ من سيرة الرجل ، يحسن بى أن أُقرِّر أنه لم يكن على حظٍّ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يَعتريه فى بعض الحديث ما يُشبه الحُبسة ؛ بل لقد تتعثر الكلمةُ فى حَلقه فلا يَستطيع أن يَلفِظَها إلا بمطِّ عنقه ، كأنما يُمرِّئ لها مجرى الصوت

ومن أهم ما يَلفت النظرَ فى خلاله، أنه كان أقلَّ خلق الله تأثراً بما يَغمُر المرءَ من مُتعارَف الناس ومُصطلَحهم فى عاداتهم وتقاليدهم وسائر أسبابهم ؛ بل لقد كان له نظرُه الخاصُّ فى الأشياء ، وكان له حكمه الخاصُّ عليها . وهو إنما يأخذ نَفْسَه بما يَصِحُّ عنده من هذه الأحكام ، لا يُبالى أحداً ؛ ولا يَتأثَّر ، كما قلت ، بأثر خارجيّ ، ولو كان مما انعقَد عليه إجماعُ الناس . و إذا كنتُ قد نعتُّه (بالفيلسوف) فإنما أَعنِى هذه الصِّفةَ فيه . فإنى لم أكد أرى رجلاً لاءم كلَّ الملاءمة بين رأيه فى أسباب الحياة ، وشدَّة تحرِّيه أخذَ النفس بأحكام هذا الرأى ، كما بان لى من خَلَّة هذا الرجل ، بحكم ملابستى له السنين الطوال

ولقد كانت له آراء فى كثيرٍ من الأشياء لقد تبدو غريبة ، حتى يُظن أن فى طريقة تفكيره شيئاً من الشُّذوذ والانحراف . وما أُحيلُ هذا إلاّ على أنه لا يخفّ لمطاوعة الناس فى كلِّ ما يَستوِى من الإدراك للناس !

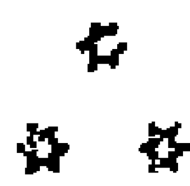
ثم لقد كان رجلاً يَرجَح عقلُه ذكاءه . و إنه ليحتاج فى تفهُّم دقائق المعانى إلى شىء من المطاولة والتدبير ، على أنها بعد هذا تتسق لذهنه مُدرِكةً ناضجة ، لا كما تَخطُرِ لحدَاد الذّكاء (خَطرةَ البرق بدا ثمّ اضمحلّ) !

كذلك كان مما يَلفِت النظرَ فى شأن المويلحىّ أنه شديدُ الاستيحاش من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يَعرِف منهم ولمَ يألَف . ولقد يكون

فى مجلس يجمع الصّفوة من خَلانه ، ومعهم رجلٌ لايعرفه ، فإذا هويَفتر ويَنقبِض حتى يكاد (يُوحِش فى المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخولَ فى زَحْمة الناس ، والترائى للجماهير ، وما إلى هذا من مُقتضَيات الظهور

ومن أجلّ صفات هذا الرجل حدّةُ العزم ، وقوةُ الصّبر ، وشدةُ التَحمل على النفس . فما إن رأيتُه يوماً شاكياً ولا مُظهِراً للبَرَم بالحياة مهما كرَثَه تَصرّف الحياة . ولقد يَكثُر المالُ فى يده فيبسُطها ، إلى مايَقرُب من السرَف، فى النفقة فى حاجاته ، وإصابة مايَحلو من المُتَع واللذائذ . ولقد يَرِقُّ المالُ فى يده ، فَيلزَم دارَه الشهرينِ والثلاثة لايَبرَحها أبداً ، متجمّلا فى عامّة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القِلَّة ، لايسأل أحداً عونا ، ولايُطالِع الصديقَ بحاجة

كذلك كان من أجلّ صفاته الصدقُ فى القول ، ولقد عاشرتُه ما عاشرته ، فما أذكر ، والذى نفسى بيده ، أننى أحصيتُ عليه كذبةً واحدةً قطّ ، ولا من ذلك النوع الذى يَتورَّط فيه المرء فى مُصانَعة الناس ومجاملتهم ، فإن ألحت التقاليدُ عليه فى شئ من هذا سكت أو وَرَّى . ولقد أذكر أنه قابل ولىّ الأمر الأسبق فى يوم من أيام رمضان ، فسأله : أَصائمٌ أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره : (والله ما أكذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك مِلْءَ شِدقيه من هذا الجواب !



ثم لقد كان ، رحمه الله ، شديدَ العناية بالنّظافة فى جميع مُلابساته ، متأنّقا عظيم التأنق فى كلّ شيء ، يُحبّ الزهرَ ويكلف به ، ويُحسن تأليفَه وتصنيفه ، ولا يمسّ إلا أزكى العطر وأغلاه

وكان شديدَ الاحتفال للطعام ، مبالغا فى التأنّق فيه ؛ ولَربّما طالع طاهيَه المرّات الكثيرةَ فى مطبخه، يتقدم إليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع

بتلك الصَّحْفة كَيت وكَيت ، وهو بهذا حقٌّ خبير . فإذا قُرِّب إليه طعامُه اجتَمع له اجتماعَ شَهْوانٍ يَلتذّ به أيّما التذاذ . على أنه مع هـذا كان حَسَن المأْكل ، يَلتزم فى تناوُله و إزلاقه أعلَى الآداب

وكان رجلاً طَبًّا ، كأن طول تمرينه فى النقد الـكتابىّ قد طَبَعه على النقد فى كل شىء ، وأنضج ملَـكتَه فيه ، فلا تراه يَتَّخذ شيئاً فى أىّ سببٍ من أسبابه إلا إذا فحص ونَقَد وتخيّر ، فما يكاد يُخدَع على أمر أبداً !

وهو ، بعدُ ، يُحبّ النكتةَ البارعةَ ويَحتفِل لها . على أنه إذا وصل المجلسُ بينَه و بينَ أصحابه ممن حَذَقوا هذا الفنّ و برعوا فيه ، من أمثال المرحومين السيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن فى الغالب هو المنشئ للنكتة والمبتكر لها . ولـكنها ما تـكاد تَسقُط من فم غيره حتى يتولاّها بالتخريج والمطّ والتوليد والتلوين ، فما ينتهى أحد فى ذاك منتهاه

ومهما يكن من شىء فإن هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بِطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومَدَاخل أُمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فإذا تحدّث فى هذا الباب فحديث المتمكن الخبير

ومما يَنبغى أن يُذكَر له ، ويُختَم به هذا الحديث ، أنه رجلٌ لم يجد الإلحادُ ولا الزّيغُ إلى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمِناً شديدَ الإيمان بالله وملائـكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فإن رأيتَ منه شيئاً من الانحراف فى تخريج مسألةٍ جزئيةٍ من مسائل الدين ، فأَحِل الأمرَ على مجرّد الخطأ فى الاجتهاد والتأويل

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر لنا وله ، وأحسن جزاءه فى دار الجزاء

عـــزاء*

كتب يعزى كبيراً فى بُنَيَّة له :

لا قوةَ إلاّ بالله . ولقد خبرتُك يا سيدى دَهرِيَ الأطول ، فإذا رأسٌ لم يطأطأ لعظيم ، وإذا قَلبٌ لم يَهِن فى يَوم الرَّوْع ، وإذا ساقٌ لم تَتخاذل من دون أفدح الأعباء . فكيف كانت حالُك يا سيدى يوم التمستَ زهرتَك الناضرة فإذا قد عَرَاها الذُّبول ، واستقبلتَ شمسَك الساطعةَ فإذا قد لحقها الأفول — أفترى عزمك قد تَضعْضَع ، وقلبك قد تَصدَّع ؛ ورأسك قد أُلقِيَ إلى كتفيك فلا تسمع بينهما إلاّ زَفرَة ، ولا تُرَى إلاّ عَبْرةُ تَترقرق فى عَبْرة ؟

وارحمتا لك . فقد طالَما كَبُرت على غِيَر الدَّهر ، وشَمَسْتَ على أحداث الليالى ، فلم يزدك امتحانُ الزَّمان إلاّ شدَّة على الشِّدَّة ، وقوَّة على القوَّة : ولم يزدك جلادُ الأيام إلاّ صَبراً على الجلاد ، وعزماً فى الكِفاح والجهاد . حتى كان قضاء الله فى بُنيَّتك، فسرعان ما سلمت لقضاء الله ، وَوَهَت قوتُك كلها حين لا قوّة إلاّ بالله .

ولو كان للموت قلبٌ لكنت آخرَ من يَعتدِى الموتُ على قلبه . فإن عظيماً أن يجرح آسى الكلوم ، والدافع عن ظُلامَة المظلوم : والقائم طول العمر فى وجه الأقوياء الطغاة ، ذياداً عن حقوق الضِّعاف العُفاة ، والباذل كل مواهبه العظام فى سبيل الوطن وفى سبيل الله !

ليس فى الموت حيلةٌ إلا أن يُعين اللهُ على بلائه بالصبر وجميل العـزاء ، ثم يُثيب من فضله عليهما بالأجر وحسن الجزاء . وقد حَقَّ لك يا سيدى الرئيس أن تظفَر فى الأولى بالصبر الجميل ، وأن تفوز فى الأخرى بالأجر الجزيل . والسلام عليك ورحمة الله .

---

* نشرت فى جريدة (السياسة) فى أبريل سنة ١٩٢٥

تعزية صديق لصديقه*

إلى صديق الدكتور بيومى :

لقد ضَربك الدهرُ فأَدمَى ، وطعنك فأَصمَى ؛ واعتَمد أَزكَى زَهرة فى يدك فاقتَطَفها اقتطافا ، وأَكرمَ دُرَّة فى بيتك فاختَطَفها اختطافا . ولَطالَما تأَلَّقتْ فيه نُورا ، ولطالما سَطَعتْ فيه أَرَجاً وعَبيرا .

وإن صديقَك الذى أنفذتَ فى الله والموَدَّة ولدَه ، لَحَقيقٌ بأن يَنخلِع فؤادُه بما عَصَف الدهرُ بولدِك . فجمَّل اللهُ يا أخى صبرَك ، وأجزل فيه أجرَك . والسلامُ عليك ورحمةُ الله ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بالله .

صديقك المخلص

* نشرها المقطم فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٢٩

من صديق *

إلى الدكتور نجيب بك (باشا) محفوظ

لقد عِشتَ عُمرَكَ عظيماً جليلا ، ويأبَى الدهرُ إلاَّ أن يكونَ مصابُك عظيماً جليلا .

وإذا كان القدَرُ إنما يمتحن الناسَ على قدْرِ ما رزِقوا من فضلٍ وصدقٍ وعزم ، وقوة صبر ووثاقة حُلْم ؛ فما أروع رأىَ القدرِ فيك حتى امتحنك بهذا كلِّه ! وكيف الحيلةُ فى ذلك ؟ وذلك تقديرُ العزيز العليم !

يا صديقى :

لقد أجْرَى مصابُك فى كل محجرٍ دَمعة ، وأذكى فى كل صدرٍ لوعة : وكان له على كلِّ حَشاً غَمزَة ، وفى كلِّ قلب وَخْزَة ؛ وأقام فى كل دارٍ مَناحــة ، وبَسط فى كل مكانٍ مأتما . وشُدِه الناسُ من هَوْل المصاب ، وزاغت أبصارُهم حتى كأنما دُعُوا لساعة الحساب . فاللهم رحمةً ولطفا ، واللهم رأفةً وعطفا .

لقد شاعت هذه الفاجعــةُ حتى أصاب كلٌّ سَهْمَه ، واحتمل كلٌّ قَسْمَه . فاللهُ تعالى أكرمُ من أن يختصَّكَ بهذا كله ، فبعض هذا مما لا يقوَى على حمله إنسان !

ألْهَمك الله من التَّصبُّر ما يكافئُ مصابك ، ومن التعزّى ما يؤاسى كُلومَك وأوصابك .

اللهم آمين .

(*) نشرت بجريدة البلاغ فى ٢٢ مايو سنه ١٩٣٣ ، على أثر وفاة الشاب المرحوم سامى محفوظ » فى حادث أليم .

مســـكين !*

كتب تحت هذا العنوان يعزِّى عزيزاً فى عزيز :

لستُ أَرى امرءًا أَحقَّ بالشفقة وأَولَى بالرحمة من هذا الذى قَدَّر لنفسه طولَ السلامة ودوامَ الأمن ، فلم يُدخِل قط فى حسابه صروفَ الأقدار ، ولا ما عسى أن يجى به الليلُ والنهار . حتى إذا امتحنه الدهرُ فى نفسِه أو فى ولدِه ، أو فى أحبِّ الناس إليه من أهله وغير أهله ، انخلع قلبُه ، وكاد الهلعُ يأتى عليه ؛ ورأى أن صبرَه أوهنُ من أن يحتمل الرزيئة ، وجَلَدَه أرقُّ من أن يصمُد لما حاق به من البـــلاء !

وطولُ الجزع إذا لم يُورث العلَّة ويخلِّف الداء ، فإنه قَمِينٌ بأن يكدِّر العيش ويخبِّث النفس ، حتى لا يكاد المرء يَرَى فى هذه الدنيا إلاَّ ظلاماً ووحشةً ومُنكراً ومكروها . وماذا لعَمرى وراءَ ذلك من مُفسِدات الحياة ؟

كلُّ هذا من رُكون الإنسان إلى موادَعة الدهر ، والتفاته عن مواقع محَنه ورزاياه . ولو قَدَّر هذا وأعاره صدراً من لَحظه ، وأولاه شَطراً من تقديره ، لأخذ نفسَه بالاستعداد لـكلِّ ما عسى أن يكون ؛ فَراضَها على احتمال المـكروه ، وطامَنها إلى أن الإنسان ما دام قائماً فى هذه الحياة فهو هَدَفٌ لأحداث الزمان . فإذا وقعت الواقعةُ كان من القوَّة والجلَد والتمنُّع بحيث لا يهدّه الجزع ، ولا يقوِّضُه الحادثُ الْجُسام .

اللهم إنه لا عُذر لنا فى الغفلة عن صُروفِ القَدَر ، والاستراحة إلى موادعة الأيام . وهذا الدهرُ، من يوم كان الدهرُ، لا يزال يرمى بسهامه دِراكاً عن أيماننا

* نشرت فى جريدة « المصرى » فى نوفمبر سنة ١٩٣٦ فى (حديث رمضان)

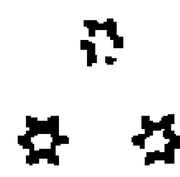
وعن شمائلنا . ومن قُدَّامنا ومن ورائنا ؛ فلا يطيش له سهمٌ أبداً . فلماذا نقدّر لنا نحن السلامةَ والأمنَ والعافيةَ على طول الزمان ؟

هذا الموت ! ومن ذا الذى سَلِمَ على الموت ، ومن ذا الذى سيَسلَمُ على الموت ؟ إليه مصيرُ كلِّ حيّ، ولا حيلة فيه أبدا « كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهَه » تعالى الله، « إنَّكَ مَيِّتٌ وإنهم مَيِّتون » صدق الله العظيم .

ومع هذا فإذا جاء هذا الحقُّ الذى لا رَيب فيه ، والذى لا مفرَّ لأحدٍ منه ، فامتحننا فى ولد أو فى قريبٍ أو فى حبيب ، تصدَّعت كبودُنا ، وتفرّقتْ أحشاؤنا وطارتْ كلَّ مطارٍ أحلامُنا ، واشتدّ إنكارُنا لهذا الموت كأنه لم يُكتب قطّ علينا ، وكأن القَدَر قد ضَمِن لنا السلامة عليه ، وكتبَنا دونَ الخلق جميعاً فى سِجلِّ الخالدين!

يا ويلَنا من غفلتنا ! يا ويلَنا من إحسان ظنوننا بالأيام !

ليس الزمانُ هو الذى يخدعنا ، ولكنا نحن الذين يخدعون أنفسهم عن صَرْف الزمان ! وإننا لَنُجزَى على هذه الخديعة جزاءنا الأوفى، إذْ نضاعف بمصيبة الرّوع والهلعَ مصيبةَ الفقْد والحرمان !



لا تجزع يا أخى ولا يُسرف فيك الأسى . وما خيرُكَ فى أن تتلَف وتُتلِف أنفساً معك، على حين لا تُجدى بذاك حيًّا ولا مَيتا ؟

خذ نفسَك بالصبر ، وكلِّفها التجلّد ، والْقَ مصابَك بالعزم الشديد : فذلك الأَخلَقُ بالرجال . لا أسألك يا أخى ألاّ تحزَن ، ولا أريدكَ ألاّ تبكى ، فإنى بهذا أُجشِّمك ما ليس فى الطِّباع ، وأُريدك على ألاّ تكون لك عاطفةٌ تترقرق ، وكبدٌ تحنّ ، ولبٌّ يسيل بالذكرى ، وعينٌ تَتبادر بالدمع على من ذقتَ فيهم لوعةَ الفِراق !

بل ابك ، فمن الدمع ما أَسكنَ من وخز الحشا ، ومن الدمع ما أَهْدَأَ من غمز الكبِد ، ومن الدمع ما أبرد من لوعة الملتاع .

ابك ، ولكنْ بكاءَ رقةٍ ورحمة ، وشَتَّانَ بينَ عينٍ تذرِف الدمعَ من شدَّةِ الهول والهلع ، و بين عينٍ تَفيض بالدمع من الرَّحمة والحنان !

ولعلك فى لوعتك وشدَّة ولهك ذاكرٌ قولَ كُثَيِّر :

فقلتُ لها يا عَزُّ كلُّ مُصيبةٍ إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفسُ ذلَّت

أعانك الله يا أخى ، وشَدَّ بالصبر عزمك ، وثبَّت بالإيمان قلبك .

إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون .

إسماعيـــل*

لقد نفَضْنا أيدينا من تُرابه ، ورجَعنا عنه منهزمينَ بينَ يدَى القَدَر وارَحمَتاه ! أيدرى الناسُ ماذا صَنعوا اليوم ؟ لقد كَفَّنوا الجمالَ كلَّه فى بُرْد ، وأودَعوا الأدبَ أجمَعه فى لَحْد ، وراحوا من بعده سُكارَى وما هم بسُكارَى ولكن الخَطْب فيه جليل .

إسماعيل ! أينَ ذلك العِلمُ الذى برَعتَ به الأقران ، وأينَ ذلك الفضلُ الذى أوفَيتَ به على مَقدُور الزَّمان ؛ وأينَ تلك الشمائلُ كأنّما قُدَّت من الورد والأقاح، وأينَ تلك الخِلال قد استُعيرَت من نسيم الصباح ؛ وأينَ هذا العقلُ والذكاء ، أينَ هذا الأدبُ والحياء ، أينَ هذا الإخلاص والوفاء ، أينَ هذا البرُّ والسَّخاء ، أينَ تلك الهِمَّةُ القَعْساء ، أينَ تلك العَزْمةُ التى أنافَتْ على الجَوْزاء ؛ أينَ رجاء للأمة بك مرصود ، أينَ أملٌ للوطن فيك مَعدُود ؟ كلّ هـذا كان يَستجِمّه الدَّهرُ للموت يا إسماعيل ؟

لقد سَخَت الدنيا بك سَخاءً لم يُسمَع بمثله فى سالف الأيام !

برَزتَ يا إسماعيلُ إلى مَيْدان الحياة فَتِيًا مقداما ، لم تَتخذِل لك فيه ساق ، ولم تَصطَكَّ لك كسائر الناس قَدَم ، بل أبت عليك تلك العزمةُ الماثلةُ الجريئة إلا أن تقطع الشوطَ كلَّه بوَثبـةٍ واحدة ، فبلغتَ المَدَى فى مثل طرفة العين ، وما ذا بعد الحياة إلاّ الموتُ يا إسماعيل ؟

حَسِب الناسُ إذ رأوك أن سُنَّة الحياة قد تبدّلَت فى الخَلْق ، وأن النُبوغَ جميعه يمكن أن يَتهيَّأ للمرء فى فَجْر العُمر ، وما دَرَوا أن نفسَك العبقريةَ هى التى كانت

* هو المرحوم الدكتور إسماعيل ضيائى من قرابة المؤلف . وقد أُلقيت المرثية على قبره ساعة دفنه

تطيرِ فى العُمر حتى تناوَلَت آخرَه ، فمت شيخاً وأنت بعدُ فى مَيْعة الصِّبا وباكورة الشباب .

لقد قضيت أيامك القِصارَ الطوال ، فى حربٍ مع المَنِيَّة ونِضال . فما صارَعَت فى حماك مريضاً إلا صَرَعتَها ، ولا قارعت بين يديك عليلاً إلا قَرعتَهـا ، حتى أصابتك من مأمنك ، وعمدت إليك فى المعركة وأنت تَستخلِص من لَهْوتها نفساً فرمَتْك بتلك اليد العَسْراء ، فرُحتَ الشَّهيدَ الكريمَ شهيدَ العلم والمُرُوءة والوفاء

لقد رماك الدهرُ بالأَرْزاء يافِعا ، فاضطَلَعْت بحملك الثقيل صابرا ، ومَضَيتَ لِطَلِبَتك العظيمة فى الحيـاة ، تقتحم إليها العقَبةَ بعد العقَبة ، ضاحكَ السِّنّ ، طيِّبَ النفس ؛ حتى إذا جُزْتَها كلَّها ، وانطلقَت الآمال تهيىء لك ذلك المـكانَ الرفيعَ الذى يعتليه المَقَاديمُ النابغون ، إذا بيد القَدَر قد سَبَقت فمهدت لك هذا المَضجَعَ فى جوانب القبر . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

لَهفِى عليك ! أىُّ عينٍ لم تَدمَع ، وأىُّ نَفْسٍ لم تَجزَع ، وأىُّ كَبِدٍ لم تَتَصدَّع ، وأىُّ يقينٍ لم يَتزَعزَع ؟

لقد كان يُدْعَى لَابسُ الصَّبرِ حَازِماً فأَصبَحَ يُدْعَى حَازِمًا حِينَ يَجْزَعُ

تلك حيلةُ الناس فى عزائك ، لو كان يُلتمس فى مثل رزئك السُّلوان . فاللهم أَفِضْ على عيوننا من الدمع بقدر ما يَشِبُّ فى قلوبنا من لوعة أسى ، ويَذكو فى صُدُورنا من حُرقَة جَوى ؛ فتِلْك على (ضيائى) نعمةُ الصبر والعزاء

يا مَنْ خلَقتَ الدَّمعَ لُطْـفاً منكَ بِالعبدِ الحزِينْ
بَارِكْ لِعَبْدكَ فى الدُّمُو عِ فإِنَّها نِعَـمَ المُعِينْ

محمد بك أباظه*

من شاء أن يعرف الصرحَ كيف يتهدَّم، والطَّودَ كيف يتحطَّم، والجبالَ كيف يحول[1]، والزهرَ كيف يلحقه الذبول، والبدرَ كيف يدركه الأفول؛ فهذا مصرعُ محمد بك أباظه فيما دون رَدَّةِ الطرف. لقد كان مصرعُه آيةً من آيات الله على أن القوة لله جميعا

كان محمد شديداً فى عقله، شديداً فى ذكائه، شديداً فى خُلقه، شديداً فى خَلْقه، شديداً فى صراحته، شديداً فى وفائه. يرى أن أسباب الحياة دون أن يستخذِىَ لها، فكان لا يعيبها إلا قوةً وغِلابا، لا وَرَعاً[2] فى إقدامه ولا هيّابا؛ حتى إذا جاء أمر الله تلقّاه مطيعا، ومضى إليه سريعا، لم تغن عنه قوته كلها فإن القوةَ لله جميعا.

لقد ضَنَنَّا بك يا محمدُ على الموت، وضنَّ القدرُ بك على الحياة، فلم يكن ما أرَدْنا ولكن كان ما أراد الله

وارَحمتَا لك: أهكذا تهوِى البدور، أهكذا تغيضُ البحور، أهكذا تُزلزَلُ شُمُّ الجبال، أهكذا يُخْتَرَمُ غطاريفُ الرجال، أهكذا تعدو المنيةُ على ذخيرة أمة وعُدَّةِ آمال؟؟

واحسرتا عليك: يَطوِيك الرَّدى أكملَ ما تكون بدرا. أفكرهتَ فُسحة العيش خشيةَ أن يُدرِكَكَ السِّرار، ولمصرَ فيك أوطارٌ كثار: أم هكذا جرى على مصر حكمُ الأقدار، فلا ينجمُ فيها فتى إلا عاجَلته بإتلاف والبوار؟؟

لقد أَعْيَتِ الوسائلَ فى خَطْبك، جَلَّتْ على الرثاء. وتعاظَمتْنى فيك أسبابُ العزاء، ولو كان منك عِوَضٌ لاطمأنَّ الصبر على فقدك إلى جزاء.

فاللّهمَّ رفقاً بالبلاد، واللّهمَّ لُطفاً بالعباد. إنا لله وإنا إليه راجعون. وإنا لموتك يا محمد لمحزونون.

---

* نشرت بجريدة الأهرام فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٢٣

(١) يحول: يتغير.

(٢) الورع هنا: الجبان.

محمود باشا سليمان*

قَضَى محمود باشا سليمان فطُوِيَت صحيفة حفيلة بالعظائم فى تاريخ مِصرَ الحديث . وليست تَتَّسع مثل هذه « اليوميات » لترجمة مثل هذا الراحل العظيم الذى كان آخر عهدى برؤيته غاية ربيع سنة ١٩٢٣ . وإنى لمحدِّثك عنه فى هذا العهد حديثاً يسيراً ما كنت لأُفضىَ منه بما يتَّصل بولده وهو ثابت فى الحياة .

كنت مفتشاً فى وزارة الحقانية سنة ١٩٢٣ ، وبُدِّل الحكمُ غَيرَ الحكم ، ورأت الوزارةُ الجديدة ، لسبب لا أعلمه إلى هذه الغاية ، أن تقصينى إلى أسيوط ، حيث ولَّتنى عملاً تافهاً أشبهَ بلا عمل . فكنت أتحيَّن أيامَ الفَراغ من الأسبوع فأَقضيها عند محمود باشا سُلَيمان فى ساحل سليم .

وكان ، رحمه الله ، ينام مبكّرا ، ويهُبّ من نومه فى السَّحَر ، فيَتوضأ ويَتهجَّد إلى أن ينصدِع الفجر فيقوم لصلاته ، فإذا ختمها أَخَذ فى ذكر الله تعالى من تلاوة قرءان ، إلى أوراد مشهورة ، وأدعية مأثورة ؛ حتى إذا بلغ من هذا ما شاء الله أن يبلغ ، قَرّبوا إليه لُمْجَةً(١) خفيفة ، فأصاب منها يسيرا . فإذا فَصَحه النهارُ نهض لرياضته ، فمشى ساعتين كاملتين خفيفاً يجول فى حدائقه الواسعة ، ويتجاوزها حتى يطلُع على سِيف النهر . وهكذا إلى أن يُتِمّ نصابَ الرياضة .

ولقد كنت أَصحَبه أَحيانا ، فإذا مَشَينا أخذ بأطراف الحديث ، فكان حديثه كقِطَع الروض قد طَلَّه النَّدى .

---

* نشرت بين « اليوميات » فى السياسة الأسبوعية . (١) اللمجة : (التصبيرة)

وانظر بعد هذا إلى دِقَّة هذا الرجل العظيم وكرم شمائله : لقد كان ، رحمه الله ، يرانى شابًّا غريباً ليس لى هناك من لِداتى من آنس بهم ، وأستريح بألوان السمر إليهم ؛ فيأبَى ، على جلالة محله ، إلاَّ أن يتبسَّط معى فى فنون القول ، فيقصّ علىّ نوادرَ من حَضَرهم من مشيخة الأدباء ، أمثال المرحومين الشيخ القوصى والشيخ على الليثى ، ويروى الطريف من أشعارهم وأزجالهم ، وأجلّ ما انتَضَحت به قرائحهم فى مُحاضَراتهم ومُناقَلاتهم ؛ فتزول وَحشَتى ، ويغمرنى الأُنس ، حتى لأحسبنى فى مجلس رُفقةٍ من الشَّباب الفاره . وهو على هذا ما يَبرَح حدودَ الواجب لسِنّه ووقاره وتاريخه الجليل . وبذلك أيضاً استدرَجَنى لمسامرته والتّسْرية عنه بما يَحضُرنى من مُلَحٍ ونوادرَ وأفاكيه ، مما لا ينشز على مثل مجلسه الكريم .

وما برِحَت له ، فى تلك السن ، فطنتُه القوية ، وعينُه العالية ، واتصالُ ذهنه من الأسباب العامّة بكلّ دقيق . فكان إذا جاء البريدُ بالصُحف السيّارة قرأها بنفسه واحدةً بعد أخرى ، حتى يأْتى عليها جميعا . وكان قد اعتزل السياسة ، ولكنه لم يستطع أن يعتزل الرأى . فإذا وقع له فى إحدى الصحف حديثٌ لا يرى للبلد فيه خيراً صاغ الكلامَ فى صورة استفهامٍ يريك ظاهرُه أن الأمر لا يَشغَله ولا يَعنيه ، فإذا فتّشتَه أصبتَ فيه كلّ صدق الرأى وكلّ حكمة الحكيم .

وقلت له ذات يوم : ألا تهبِط يا باشا مصر فتقضى فى (ذهبيتك) أياماً كسابق عهدك ؟ فرأيت الدمع يَترَقرَق فى عينيه ، وقال : ومع مَن أجلس يا بنىّ ؟ لقد مات قُرَنائى وأصحابُ عمرى ، فأنا لا أجدنى فى أبناء هذا الجيل إلّا غريبا ! .

وإليك مثلاً واحداً من شفقته بولده ، وشدة عطفه عليهم ، وإيثاره لهم : دعوتُ له مرة ، وقد جرى حديثُ الصحة والمرض ، بطول العمر ودوام العافية ، فانتفض انتفاضة شديدة ، وقال : لقد كنتُ أحسبك يا فلان تحبنى ! فدهشت من

هذا السؤال ، وقلت له : وكيف رأيتنى يا باشا لا أحبك ، وأنا أدعو لك بطول العمر ودوام العافية ؟ . فقال : بل ادعُ لى بأن يُلحِقنى الله عاجلًا بالدار الآخرة ، فلا يمتدّ بى الأجل حتى أشهد مكروهاً فى ولدٍ من بَنِىَّ أو فى أحد أبنائهم[1]

الله أكبر ! . . .

سيذكرون فى نَعِىِّ محمود باشا سليمان إيثارَه لبَنِيه ، فلقد خرج لهم حيًّا عن كلِّ ما ملكت يَمينُه . وما دَرَوا أنه آثرهم بما هو أعزّ من المال ، لقد آثرهم بالحياة !

(١) من عظيم إكرام الله تعالى لهذا الرجل أن قبضه قبل مصرع ولده الشاب الجميل النبيل العالى الهمة ، على بك محمود ، وقد قضى بعد أبيه بقليل ، رحمة الله عليهما جميعا .

والرجال قليـــل ! *

راغب بك عطية[1]

إلى صديقى محمد راغب بك :

وارحمتاه لك : لئن فَقَد الناسُ بالأب واحداً لقدفقَدت فيه أيها الحزين الوالِه اثنين: أباً وأخاً معا : أباً يكاد من حَدْبٍ يخلعُ شَغَاف قلبه على وليدِه ، ويعتصر من الحنان كبده ليفيضه على طفلِه وحيدِه . ولو تَهيّأ للأجسام أن تتبخّر لاستحال جُثمانه عطفاً عليك ، وترَقرق فى الأثير حناناً إليك .

وإذْ تَستوِى فى الدنيا فتًى لا يراك إلاّ أخاً يمُاذه أوثقَ أسباب الإخاء ، وصديقاً يُصْفيه أحلَى علائق المودّة والوَلاء .

وحين تعلُو به السِّنّ ، ويَلحَقه الوَهن ، وتَتداخله الأسقام من كل جانب . لا يتمثل فيك إلا الأبَ يَعُوذ به ولدُه كلما أدركه العجزْ أو أصابه المكروهْ من أىِّ ناحية . فكنتَ للوالد البَرّ : الوالدَ العطوفَ الحنّان . فقارضتَ عَطفاً بعَطف، وبادلتَ بِرّا ببِرّ. وقضيتَ الدَّين خيرَ القضاء، ووفّيت الحقّ وأغليتَ الوفاء.

ولقد مضى أبوك ، وما أحسبه وهو متقلّب فى رضوان الله إلاّ راثيا لشانِك ، حزيناً لبكائِك وأحزانِك ، حتى ليَصحّ فيكما قولُ الشاعر :

لو كان يَدْرِى الميْتُ ماذا بعدَه   للحَىِّ منه بكَى له فى قبرِهِ
غُصَصٌ تكاد تَفِيضُ منها نفسُه   ويكاد يخرج قلبُه مِنْ صَدْرِه

وارحمتاه لك ! إن عذابك لأشدُّ من كلِّ عذاب ، وإن مصابك لأجلُّ من كلِّ مصاب .

---

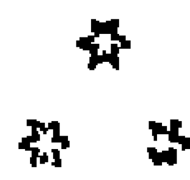
* نشرت بجريدة الأهرام فى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٣٣

(١) هو حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد راغب عطية بك المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية

لستُ أَسأل لك ياصديقي اليومَ سُلُوًّا ، فهيهاتَ لى أن أطلب المحال . ولا أَسأل أن يَرقَا دَمعُك ، فالله تعالى أرأف من أن يكظِم هذا الأسَى كلَّه فى صدرك . فإن جمود العين ، فى مثل ما أنت فيه ، من العِيِّ بالبكاء ، وهو أشدُّ من عِيِّ اللسان بالكلام . بل إنى لَأدعو الله أن يُفيض شئونَك حتى يُروِّح عن هذه الرُّوح المجروحة ، ويُفرِّج عن هذه الكَبِد المقروحة .

لم يُخْلَقِ الدمعُ لامرئٍ عبثاً   الله أدرى بلَوْعَةِ الحَزَنِ

وهكذا الدنيا ، ما سَقَت حُلواً إلا أعقبَته مُرًّا ، ولا بسطت عُرْفاً إلا وهى تَطوى فيه نكرا ! . فكل ما تقلّبتَ فيه من ذلك الحنَان العذْب ، لقد بات ذكرى تَحزُ الكبِدَ وتَحُزّ فى القلب . كان الله فى عونك يا أخى ، فما يَصبِر أحدٌ على ما تَجد ، إلا بعَونٍ من الله ومدد .



أَمّا المصيبةُ فى أبيك رجلاً عظيماً شأنُه ، جليلاً فى البلاد خَطْبُه ، فهذه تَتَقسمها الأمّةُ كلُّها ، لا تَستأثِر بها وحدَك . فلقد كان ، رحمه الله ، رجُلاً حقَّ الرجُل : سَعَة علم ، ووثاقةَ حُلْم ، ونصاحةَ رأى ، وشدَّةَ عَزم ، وسلاسة طبع . جم التواضع ، فإذا مادَعَا داعى الكرامة ، كان أشمس من أُسَامة[1] .

وحسبك عزاء فيه أن عاش كريماً وَفيًّا أَبيًا . وهذا تاريخُه الضَّخْم يَتألّق نخرا ، وتُعتَدّ سيرتُه فى البلاد عُدَّةً وذُخرا .

وَصَل الله فى عمرك ، وأدام منك أفضلَ خَلَفٍ لأفضلِ سلَف . والسلام عليك ورحمة الله .

---

(١) أشمس من أسامة : أشد امتناعا وإباء من الأسد

أحمد عبـــد الوهاب*

طَوَى الجزيرةَ لمّا جاءنى خَبَرٌ ... فزِعتُ فيه بآمالى إلى الكَذِبِ
حتّى إذا لم يَدَعْ لِى صِدْقُهُ أملاً ... شَرِقتُ بالدّمع حتّى كاد يَشرَقُ بِى

مَن كان يظنُّ أن يَذْوِىَ الغُصنُ إبّانَ إيراقِه، وأن يَذبُلَ الزّهرُ ساعةَ إشراقِه، وأن يُسرِع البدرُ ليلةَ التّمام إلى مِحاقِه؟

أىُّ حَسَنٍ لعمرى، وأىُّ جميـــلٍ، وأىُّ كريم فى هذه الدنيا لم يكن لأحمد عبدِ الوهّاب؟

هذا الشّبابُ الناضِر، وهذا الحظُّ المُوَاتِى الحاضِر، وهـذا الأيْدُ والقوّة، وهذا أَسْرُ الفُتوّة، وهذا العقلُ الرّاجح، وهذا الذّهنُ الواضح، وهذا المنطِقُ النّاصح، وهذه النفسُ الوَضِيّة، وهذه الشمائلُ الرّضِيّة. وهذا النظرُ البعيد، وهذا الرأىُ السّديد، وهذا العِلمُ والفَضل، وهذه السّماحةُ والنُّبل. وهذه الـكِفايةُ التى دوّتْ بها السُّهولُ والجبال، وستتغنّى بها الأجيالُ بعدَ الأجيال.

هذا كلُّـه أحمد عبد الوهاب، وهذا كله لقد دُسَّ والهفتاهُ فى التّراب!

ما حسِبتُ ساعةَ طَلَعَ علىّ الخبرُ إلاّ أنه مُزْحةٌ بَغيضة، وإذْ هو واحسرتاهُ أَبغضُ مُزْحاتِ الموت جميعا!

لئن كانت حياتُك عجباً من العَجب، لقد كان موتُك يا عبدَ الوهاب أعجبَ العَجَب! السُبُلُ مَمهُودة، والوسائلُ موصولةٌ ممدُودة. كلُّ شىءٍ فى انتظارِك، وكلُّ عظيمٍ من الأمر فى تَنَسُّم أَخبارِك. قُمْ يا عبدَ الوهّاب وشَمِّرْ، وأَصلِح وعَمِّر،

* نشرت بجريدة البلاغ فى يوم الأحد ١٧ إبريل سنة ١٩٣٨

وثِرْ ما شِئْتَ أن تَثُور . فلقد طالما ضربتَ على صِدق العزمِ أبلغَ الأمثال ، وأريْتَ الشبَابَ أن من الشباب من لا يعرِف المُحال !

تعالَ يا عبدَ الوهَّاب ! فمصر الناهضة لطِلاَّبِ المجد فى أشدِّ الحاجةِ إلى أمثالِك ، وأمثالُك فى مصرَ قليل ، وانهَضْ من مطالبها بعبئِك وعبئُك منها ثقيل .

تعال يا عبدَ الوهاب ! فقد آن لمصر أن تعتزَّ بما لَهَا من المفاخر ، وآن لها أن تَعتدَّ بما فيها من الذَّخائر . أُنظر كيف ترَى الآمالَ بك مَعقُودة ، والعظائمَ فى ترَقّب طلعتِك مجموعة محشُودة ؟ أقدم أقدم ! فما عوّدت مصرَ الإحجام ، فى ساعة الجِلى ولا فى حَدِّ الصِّدام .

مالك لا تُجيب ؟ أحقًّا لقد عَدَا الموتُ عليك ، و إنها لجنايَةٌ على البلد جميعا ؟

أهكذا تأفُل الأقمار ، أهكذا تَغيض الأنهار ، أهكذا تَيْبَس الروضةُ المِعْطار ، أهكذا يعدو ظلامُ الّليل على وَضَح النّهار ؟ وما أجدرَ مصرَ أن تقول فى مَنعاكَ :

كنتَ الشّبيبةَ أبهَى مَا دَجَتْ دَرَجت ... وكنتَ كَالوردِ أزكَى ما أتَى ذَهبَا
طَلَعتَ لى قمَرًا سَعدًا مَنَازِلُه ... حتَّى إذا قلتُ يجلُو ظُلمتِي غَرَبَا

يا عُمْرَ الوَرد : لقد كنت حُلماً من الأحلام ، لولا ما تُحدِّثُنا به آثارُك الضخام !

يا عَلَماً تنكّس ، ويا سيفاً تَثلّم ، ويا أملاً تَحطّم ، ويا بُنيانَ قومٍ تَهدَّم !

وما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْك وَاحِدٍ ... ولكنَّهُ بُنيانُ قَومٍ تَهَدَّمَا

لقد عظُمتْ مصيبةُ مصرَ فيك ، أحسن اللهُ لها العزاء ، وأوفَى لها الجزاء . إنّا للهِ وإنّا إليهِ رَاجِعُون . ولا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ باللهِ العَلِيِّ العَظِيم .

يا حافظ* !

لِمَ لا تُجيبُ وقد دَعَوتُ مِرَارَا   يَكفِي سُكوتُك أربَعين نهارا !

يا حافظ ! هذه أربعون تَقضَّت ونحن فى انتظارك ، إذ أنت لم تُحسِن بعلامة ولم تُسعِد بِردّ خطاب ! .

أطاب لك المقامُ هناك بين من تَقدّموك من إخوانك ، فلم تَعُد تحفل بمن خلَّفت هنا من صَحبك وصُدقائك ؟ أم لعلك آثرتَ انتظارَهم فى مَثواك ليجتمع الشملُ كلّه ؟ وإنهم لمُوافوك عما قليل ، فما فى هذه الدنيا كثير ! .

يا حافظ ! هذه أربعون تقضَّت والوَلَهُ عليك لا يخلُق تليده ، ولا يَبلَى جديده . وما ذكرك صاحبك[1] ، وهيهاتَ ألاّ يذكرك ، إلا أحسَّ على قلبه حزًا لا يَسكُن إلا بالعَبرة . وهكذا :

لَم يُخلَق الدَّمعُ لامرئٍ عَبَثاً   اللهُ أدرَى بلَوعةِ الحَزَن

وكذلك كان البكاء نقمة ، فأبى خَطْبُك إلا أن يُحيله نعمة أىَّ نعمة !

هذه شُعبةٌ من قلبي قد انخلَعتْ لموتك ، ولعلها دُفِنَت معك . وما لها لا تفعل ؟ وقد كنتَ بعضى وكنتُ بعضَك ؟ . فإذا أنا بكيتُك فقد (بَكى بعضِى على

* نشرت فى ملحق السياسة لتأبين شاعر النيل المرحوم حافظ بك ابراهيم فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ . وقد ترجم الدكتور هيكل بك (باشا) لهذه الكلمة بما يأتى : «ألححنا على صديقنا الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى أن يكتب كلمةً عن حافظ ، وكان بينهما من الصداقة أكثر مما بين أخوين ، فاعتذر مخافة أن يحول اضطراب نفسه دون أداء غرضه . ولكنا أصررنا ، فأجاب رجاءنا . فكان هذا الوله الذى يحسه القارئ مصوغاً فى عبارته القوية البليغة » .

(١) يريد الكاتب نفسه .

بعضى مَعى) . فاعجبْ لمن جَمع بين الموت والحياة ، ومن تَقَسمت هذه الأرضُ شَطْريه : هذا يَدِبّ على مَتنِها ، وهذا مُدْرَجٌ فى بطنِها !

وإذا كان المرء تاريخاً وذِكرى ، نخبِّرنى يا حافظُ كيف أصنع بسبَع وعشرين سنة ، هى فى مساحة العمر ملاعبُ الصبا ، وهى بين أشواك الحياة أزهارُ الرُّبى ؟

وها هى تى لقد أضحت مَبعَثَ الأسى والشَّجَن ، ومُثارَ اللَّوعة والحزَن . وهكذا الدهرُ إذا أسْعَد وأنعَم ، أبى إلاّ أن يُحيل شَهدَه إلى صَاب [1] وعلْقَم ! .

يا حافظ ! أين أنت ؟ إنى لأطلبك فى كلّ مكانٍ فلا أُصيبُك ، وكيف وقد كنتَ يا حافظُ مِلْءَ كلّ مكان ؟ . هـذى يدى لقد أصبحت منك صِفرا ، وهذى نفسى لقد أمست من داعيات العَيش قَفْرا ! :

كأنْ لمْ يكُنْ بين الحَجُون إلى الصَّفَا أنيسٌ ولَم يَسْمُر بمكةَ سامرُ

يا حافظ ! أين أنت ، وكيف صَنَعت ؟ وأين ذهب ذلك الوُدّ الذي ظَلْنا نَجمَعه جمع الشحيح للمال ، فى مدى سبع وعشرين سنة ، ونحرص عليه حرص الكريم على وليده ، ونُدلِّله تدليل الشيخ الفانى لوحيده . أتراه قد تبدّد كلّه بضربة من الموت واحدة ؟ فحق فينا قول متمم بين نُوَيرةَ فى أخيه :

وكُنّا كَندْمَانَىْ جَذيمَة حِقْبَةً من الدَّهْر حتى قيل لَن نَتصدَّعا
فلمّا تفَارَقْنا كأنِّى ومَالِكاً لِطُول افتراقٍ لم نَبِتْ لَيْلةً معاً !

لقد كنت تَعيب على مَن صاروا إلى الآخرة قبلَك أن أحداً منهم لم يُبادِ الأحياءَ بما سَمِع وما رأى ؛ وكيف يكون ذلك العَيشُ عَيْشُ الآخرة . فهلاّ فعلتَ أنت ؟ فما أشوقَنا إلى حديثك ! . أنت الذى مَلأَ الدنيا بياناً فى جميع أسباب الحياة ، فهل يَعِزّ عليك أن تحدثنا فى بعض أسباب المَمَات ؟ .

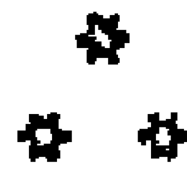
---

(١) الصاب : شجر مر كالعلقم .

ها أنت ذا تُدعَى فلا تُجيب ! وقد كنتَ الطَّلاعَ فى كل مُهمَّة ، النَّدْبَ[1] عند كلّ مُلِمَّة ، الشَّادِيَ كلما تفتح لأمل هذا البلد زَهرُه ، النائحَ كلَّما كَرِثَه أمرُه وتَغيَّر له دَهرُه ! .

ليت شعرى ، ما الذى حَبَسَ لسانَك ، وقد كان أجْرَى من السيل الدَّافِق ؟ وما الذى أخمَدَ بيانك ، وكان أسطعَ من البَرق الآلق ؟ ما هذا منك يا حافظ ؟

يا ليتَ ماءَ الفُرات يُخبِرنَا أينَ تولَّتْ بأهْلِها السُّفُنُ؟



يا حافظ ! لقد سافرتَ قبلَ أن تَتزوَّد لهذا الذى يُدعى بالموت ، وقبل أن أتزوَّد لهذا الذى يُدعى بالحياة بَعدك . فهلاَّ جلسنا معاً جِلسةً نتذاكر فيها العيشَ فى تلك الأيام ؟ .

أتذكُر إذْ كان المُترفون يُقلِّبون أعطافَهم فى ألوان المَنَاعم ، أو ما اصطَلَح هذا الناسُ على أنه من المَنَاعم ، إذْ أنا وأنتَ لا نَغبِط أحداً على عَيْشِه ، ولا نَنفَسُ على امرئ ما وصله الله به من مال وجاه . وما لنا نفعل ونحن ، بحمد الله ، سَرِيَّان حق سَرِيَّيْن بما رُزِقنا كلانا من محبة وصدق ووفاء ؟ أتَندَّر عليك ما شاء الله أن أتَندَّر . فلا أرَى عليك بَرَما ولا تعاظُماً لهذا الذى أصنع بشاعر النيل . وتَتطرَّف بى ما شاءت لك سطوةُ اللسان أن تتطرَّف ، فلا والله ما أحسستُ قط أن نعمةً فى الدنيا تقوم بإزاء هذا الذى أنا فيه ! فما حاجتُنا بعد هذا إلى ما يَتكاثر الناس به من جاه ومن مال ؟

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة ، لأنه إذا ندب إليها خف لقضائها .

أرأيتَ ياحافظ كيف قدَّ بعدُك متْنى ، وكيف هدَّ فقدُك رُكْنى ؟

كنتَ لى نعمةً وكنتَ سَماءً بكَ تحيا أرْضِى ويخضَرُّ عُودِى

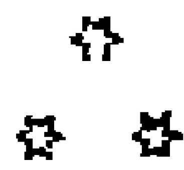
يا حافظ ! أتذكرُ كيف أغنانا هذا العيشُ وكفانا ، وكيف كنا نُدِلُّ به ونَتَتايَه ، حتى ما يعجبنا من الأمر عجب ، ولا يستهوينا من مُغريات هذه الدنيا أرَب . فلو قد سألتَ اليوم فى سِرٍّ من حارس الموت عن صاحبك ، أو عن بقيَّتِك التى ما زالت ثابتةً فى سِجلِّ الأحياء ، لخرج الجوابُ فى قول مُسلم بن الوليد :

أَصْبَحتُ كالثوب اللَّبيسِ قد أُخْلَقَتْ جدَّاتُهُ منــــهُ فعاد مُذالاَ

وَ بقِيتُ كالرجُل المُدلَّهِ عقلُهُ أَشكو الزّمانَ وأَضرِبُ الأمثالاَ

سالمتُ عُذَّالِى فأبوا بالرِّضا عَنِّى وكنتُ أُحارِبُ العُذّالاَ

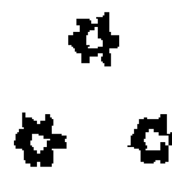
ولقد علِمتُ بأنّه ما من فَتًى إلاَّ سَيُبدَلُ بعْدَ حَالٍ حالاَ



يا حافظ ! إن الرجل العظيم لَيموتُ فيخلو بموته موضعٌ واحد . أما أنت فلقد أخلى موتُك مواضعَ كثيرة : أنت شاعرُ النيل غيرَ مُزاحَم ؛ فلقد اتصل شِعرُك بمائهِ ، وامتزج بواديه أرضهِ وسمائهِ ، وشَدَا فى نعمائهِ وسرَّائهِ ، وناح فى بأسائهِ وضرَّائه . وأنت الكاتبُ لا يُلحق فى حسن الصياغة غبارُه ، ولكن تُتَرَسَّم إذا أعْوَزَ تجويدُ النسج آثارُه . وأنت الأديبُ التامّ ؛ تَضرب فى فنون الأدب كلها ما تَشرُد عليك شاردة ، ولا تَندُّ عنك منها مُستأنسةٌ ولا آبدة . وأنت المُحاضرُ كأنما يخوض منك جُلاسُك فى عُباب ، أو كأنما يقرأون منك فى كلِّ بابٍ أسبغَ كِتاب . وأنت السميرُ ما تبرح تُشيع فى مجلسك الطَّرب ،

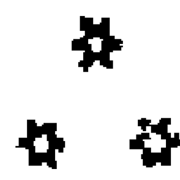
وما يبرح جُلاَّسك يتنزَّون لحديثك من إعجاب ومن عَجَب. وأنت الذكيُّ الألمعيّ ويا له من ذكاء كان مثلَ سَنَا البَرْق، يُومِض من جانب الغرب فيَسطع فى عُرض الشرق. وأنت، وأنت، وأنت يا حافظ! لقد كنت معانيَ كثيرة، وكنت مباهجَ من مباهج الحياة عديدة. فقَدِّر يا أخى، رحمك الله، جملةَ مصائبنا فيك!.

أنا هنا إنما أبكى حافظاً لا أنشر مناقِبه؛ فلذلك بعدُ مَقامٌ عريض



وبعد، فلقد تعذَّرتُ على رثاء حافظ طويلاً ضنًّا بنفسى على إظهار الناس على ما يَشهدون اليومَ من حَيرةٍ ووَلَه واختلال أعصاب؛ ولكن لقد بعثنى على هذا مِن أصدقائى مَن لا أستطيع مدافعتهم، ولا إظهار الخلاف لهم. فحقت علىّ قَوْلَةُ الشاعر:

أَلاَ يا حَمَامَىْ قصرِ زُورَانَ هِجْتُمَا ... بقلبى الهوَى لَمَّا تَغَنَّيْتُما لِيَا
وَأبكيتُمانى وَسْطَ صَحْبِى ولَمْ أكُنْ ... أبالى دُمُوعَ العَينِ لو كُنتُ خالياَ



وبعد، فلقد كنتَ يا حافظ كثيرَ التَّرجيع لقول صديقك وأستاذنا إسماعيل باشا صبرى:

وحَيَاةُ المرء اغتِرابٌ فإِن ما ... ت فقد عَادَ سَالِماً للتُّراب

وها أنت ذا قد عُدتَ إلى الوطن، وأُبْتَ بعد طول السّفر إلى الأهل والسكَن، وبُدِّلت من حَدَثِ الدهر الأمنَ والسلامة، وضُمِنت لك الدَّعَة والراحةُ إلى يوم القيامة.

فإلى الملتقى يا حافظُ فى الجنَّة إن شاء الله، فلقد كنتَ شديدَ الإيمان بالله عظيمَ الإحسانِ إلى الناس. والسلام عليك ورحمة الله.

ابـــنى !...*

يَا مَشرَعاً لِلْمُنَى عَذْباً مواردُه ... يَنْاهُ مُبتسِم الأرجاء إذ نَضَبا[1]
كنتَ الشبيبةَ أبهَى ما دَجَت دَرَجَت ... وكنتَ كالورد أزكَى ما أَتَى ذهَبا
طَلعتَ لى قمرًا سعداً منازِلُه ... حتى إذا قُلتُ يجلو ظُلمتى غَرَبا

جاء ولم يَرغَب فى مجيئه أحد، ولكنه ذهب على عينى وعلى أعين الجميع .

فيمَ جئتَ يا بُنىّ وفيمَ ذهبتَ ؟ أفكنتَ حامل رسالة البُرَح والآلام ، أدَّيتَها إلىّ ورجعتَ إلى مَثواك بسلام ؟

ما الذى حبّب إليك هذه الحياة ؟ ثم ما الذى زهّدك سريعاً فى هذه الحياة ؟

لقد يكون من الأَثَرة الشديدة يا بُنىّ أن أرجو لك اللُّبث فى هذه الدنيا تعانى كلّ ما يعانى مَن حُكم عليهم فيها بطول البقاء . كل هذا لأنعم من وجهك بنظرة ، ومن شفتيك بابتسامة ، ومن صوتك الحنَّان بلغَاة ! .

ولكن لقد كانت كذلك أَثَرةً شديدةً منك يا بُنىّ أن تَطلب النجاةَ بنفسك من هذه الحياة ، وتتركنى كما تركتنى لا أنا مع الموتى ولا أنا مع الأحياء !

أمسكتُك وحَرَصتُ عليك إرضاءً لشهوة نفسى ، وتركتنى وفررت منى إرضاءً لشهوة نفسك . وواحدةٌ بواحدة . وذلك الجزاء الوفاق !

وافيتنى ولم أَدْعُك ، فعندى من مثلك ما يَكفى وما يُغنى ، والفضل لله ، فَصَدَفتُ عنك وأعرضت .

---

* نشرت فى مجلة (المصور) فى يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٤

(١) هذه الأبيات من قصيدة قالها بديع الزمان الهمذانى فى ولد له مات صغيرا .

وما أدرى أكان ذلك منى عن زهد فيك أم بطر على نعمة الله بك ؟ ولكنك أبيت إلا أن يكون لك هناك محل. فما برحت تجهد لذلك الجهد الكبير ، بخلقك هذا الدقيق الصغير . تعمل لتلك الغاية فى كل يوم من الشهر ، وفى كل ساعة من اليوم ، وفى كل دقيقة من الساعة ، لا وانياً ولا متخاذلا . تعمل لها مستيقظاً ونائما ، ومختلجاً وساكنا ، ومبتسماً وباكيا ، وصحيحاً وشاكيا . وهل كان مما يخرج عن جهدك أن تكبر وتزكو ، وتنمو وتحلو؟ ومع هذا لقد كنت أجاهد فيك النفس وأغالبها عليك . وأزعم إذا هتف بك إخوتك ومضوا يشيدون بموقعك من قلوبهم ، أنك لا ترتقى فى السعر عندى إلى جناح البعوضة ! . وإنى لأغلو فى هذا وأشتد كلما غلوا واشتدوا فى أنك الآثر الأحلى .

ثم أجدنى ، على غير إرادة منى ، أختلس النظرة السريعة إليك . ثم أجدنى ، برغم عنادى ، أثبت النظر فى وجهك وأطيل . ثم يبدو لى فى سر من العيون أن أمس ببنانتى خدك الرخص الدقيق ، فإذا أنت تبتسم وتدير فى وجهى طرفك الحيران . ثم أتشجع على نفسى فألاغيك ، فإذا أنت ترجع بالصوت الناعم الرقيق كأنه قطعة من أنعم نسمات السحر . ثم إذا بى أقبلك فإذا لقبلتك حلاوة ، وإذا بى أجد لها على صدرى بردا ! .

وإن هى إلا أيام تمضى على هذا، حتى أصبحت أشعر أن هذه القبلة تجاوزت أن تكون لذة من اللذائذ ، فقد صارت لعيشى ضرورة من الضرورات .

فإذا أصبتك نائماً فى ساعة من ساعات حنينى إليك ، وما أكثرها ، علقت عينى بشخصك ، وأفرغت كل ما فى قلبى على وجهك الملائكى لو أن الملائكة تنام .

لقد بلغتَ وشيكاً غرضك ، فأصبحتَ من شُغل نَفْسى ، بل لقد كدتَ تصبح شُغلَ نفسى جميعا . وهكذا ينخذل عنادى من دونك انخذالا ، وأفتضح يا بُنى فى هواك افتضاحا ! .

لقد تمّ لك يا حَسن كلُّ ما أردت ، وبَلَغتَ منى فوق كلّ ما أردت . وهذا مَطْعَنِى لقد انكشف لك دانياً سويّا ، فما لك لا تعجل بالثأر من بَطَرِى ، فتطعن الطعنة الشّهلاء ، وهذا منك أعدل الجزاء ؟ ولقد فعلت يا بُنىّ فى غير تردّد ولا إبطاء ! .

وهكذا لقد كفى عزمَك الحديدَ عشرون دقيقةً بين أن كنت كالوردة الضاحكة و بين أن صرت جُثّةً تطلب وامصيبتاه اللّحد !

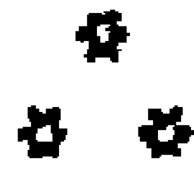
جُدتَ بنفسك المطمئنّة على صدرى الملتاع ، فإذا بك تخوض لجّة الموت فى دَعَة ورفق ونعومة نَفَس ، لا مجاهدة ولا معاناةَ ولا اختلاج . حتى أسلمت نَفْسك ، ولولا إجلالك الموتَ لظلّ على شفتيك هذا الذى طالما نعّمنى من حلو الابتسام .

وما لك يا بُنىّ ، وأنت بين يدىّ ، تعالج نَزْعاً أو تعاني احتضارا ؟ فعنك كنت وما زالت أنزع ، وعنك كنتُ وما برحتُ أُحتَضَر . و إنه لنزعٌ شديد ، و إنه لاحتضارٌ يا بُنىّ طويل ! .

لقد استحالت كلُّ جارحةٍ فىّ نَفْسًا تعانى من سَكَرات الموت ما لا يعلم مَدَى أوجاعه وآلامه و بُرَحه إلّا الله . فهذه تُزَمّ بملازم الحديد زمّا ، وهذه تَضغَمها أنياب النمور ضغما . وهـذه تُوخَز بالإبَر وخزا ، وهذه تُحزّ بالمُدَى حزّا . وهذه تَفريها المخالب فَرْيا ، وهذه تشويها النارُ شيّا . وكيف لى بعذاب نزع واحد ، ولم يصبح لى كسائر الناس نَفْسٌ واحدة (ولـكنّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسا) ؟

لا شكّ يا بُنىّ أنك مضيتَ من فورك إلى الجنـة ، فإذا أحببتَ أن تعرف مَبلغَ عذاب أهل النار ، فأشدُّه بعضُ ما أنا فيه !

ويلى منك يا بُنىّ! لقد ورّثتنى كل يوم مَوْتاتٍ لا نجاء لى منها إلاّ بهذا الذى يَدعونه الموت . اللّهم يا من امتَحَنِى بهذا العذاب كله فى الدنيا ، أَقِلنى بفضلك من عذاب الجحيم فى الآخرة .



لست أدرى يا بُنىّ أيّنا الأحق برثاء صاحبه ؟ لعمرُ الله إذا حقّقْت ، وأنت فى مَقعد الصدق ، لرأيتنى الجديرَ منك بالمرحمة وطول الرثاء ، ولكأنّما كان يعنينى وإياك هذا الشاعرُ حين يقول :

لو كَانَ يَدرِى الميْتُ ماذا بعدَه ... للحىِّ منه بَكى له فى قبرِهِ
غُصَصٌ تكادُ تَفيضُ منها نَفْسُه ... ويكاد يَخرُجُ قلبُه من صدره

وا حرّ قلْباه ! إننا نعيش فى هذه الدنيا عيشَ الآمِن فى سربه ، بل عيشَ الذى عاهده القَدَرُ على أن يَسلِمَ على الزمان فلا تكرِثُه الكوارثُ أبدا . وإننا لَنشعر فى أنفسنا المِرَاحَ فنعبَث ونضحك ، ولقد يضحك لضحكنا خلق من الناس . ولا ندرى ماذا يُضمر لنا القدر بعد ساعة واحدة . بل بعد دقيقة واحدة . ولقد يكون فيما يُضمر لنا ما يقدّ المتنَ قدّا ، وما يهدّ النفس هدّا . وكذلك كان شأنى يا بُنىّ فيك .

فى ليلة أسهرها فى دارى راضياً مغتبطا ، ومالى لا أكون وأولادى بخير ، وأهلى جميعاً بخير ، وأصحابى جميعا بخير . بل لا أشكو المرضَ الذى طالت علىّ مدّته حتى كاد يُصبح عندى من إحدى العادات . ثم أسترسل للنوم كذلك راضياً مغتبطا . ثم أُبعَث فى جوف الليل لا لشىء إلاّ لأرى مصرع ولدى ، وأشهدَ هذه الخاتمةَ الوجيعةَ من فصول رواية تمثّلها لى وتمثّلها بى الحقيقة لا يمثّلها الخيال !

يا هذه الليلةُ : كيفَ كنتِ ولمَ كنت ؟ أفكان يَفنى الدَّهرُ كلّه لو لم تكوني بين لياليه الكثار ؟ !

يا هذه الليلة ! لقد رميتِني فأصميت ، وطعنتِني فأردَيت . وكأني بكِ وقد نَفِستِ بي على الموت ، لا لأنكِ تُؤثِرين لي طولَ الحياة ، بل لأنك تؤثرين لي طولَ العذاب !

آمنتُ يا هذه الليلةُ أنكِ كنتِ السهمَ في قوس الدَّهر ، وأنكِ كنتِ النَّصْلَ في رُمح القَدَر ! .

النظرةُ الأخيرة

هذا ولدى يَحمله حامله ويخرج به من دارى إلى غير عودة أبدا . وإنى لأتحامل وأجمع جسدى المحطم ، وأجرّ ساقىّ المتزايلتين جرّا ، لأشيِّع إلى الباب ولدى بل لأشيع نفسى . وإنى لأتزوّد منه بالنظرة الأخيرة ، فإذا بي أحس أن كبدى وقلبي يسيلان كلاهما على عينى . فإن كانت بقيت منهما بعد هذا بقية فكالأسفنجة بعد شدة الاعتصار . ووالله ما أدرى أكانت تلك النظرة أحلى ما ذقت فى حياتى من ألوان المتاع ، أم كانت أقسى ما شعر به حى من الحُرَقِ والآلام والأوجاع ؟ .

اللهم اشهد أننى راض بقضائك ، صابرٌ لبلائك ، شاكرٌ لنعمائك .

إنا لِله وإنا إليه راجعون . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! .

فهرس الكتاب

الباب الثانى

فى الوصف

الموضـــوع	رقم الصفحة

الباب الثالث
فى التراجم والتعزيات والمراثى

تم الجزء الأول من هذا « المختار »

ويليه الجزء الثانى ، وأوله : (الباب الرابع فى الفنّ والمفتنّين)

١٩٣٨/١١/٢١٠٠/٢